

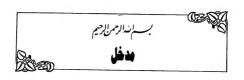
حِمْسُونَ عِامًا عَلَى طَرِيقٌ ٱلدَّعُوة الإسْكَامَيّة

تأليف

أنوَراكجٽنّدي

دارالمنسارة منسسة فسط ه جمعت أنجشقون بخفوظت الطبعت الأول

,1997_,1ETF



﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُشَكِي وَتَحْيَاى وَمَمَاقِ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾.

أراني وقد تجاوزت السبعين من العمر، وقد أوفيت على الغاية، واقتربت من النهاية أن أمانتي للإسلام والدعوة الإسلامية أن أقدَّم ما أريد أن أقول لقومي ولاهل أمتي ولشباب الأمة الإسلامية الذين كتبوا لي راغبين في معرفة الطريق الذي سلكه كاتب مسلم آمن بأنَّ العلم أمانة وأنه مسئول عن ما خطُّه خلال أكثر من خسين عاماً على طريق الدعوة الإسلامية.

والحقيقة أنني أحسست بهذا الخطر الذي يجيط بالإسلام والفرآن وتاريخ علامه من والمنققة أنني المحاهم والفرآن وتاريخ علطط عنوانه (حرب الكلمة) وذلك بعد هزيمة الغرب في الحروب الصليبية، في دعوة عريضة للعمل على إعلان حرب تقوم على تزييف مفاهيم الإسلام وتلدير قيبو وذلك عن طريق التأويل والتمويه في محاولة لإخراج الإسلام من ذاتيته الحاصة وتميزه المتفرد بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع، وخلق تصور نابض يتمثل في مفهوم الاهوتي يقصر الإسلام على العبادة وحدها ويحجب دوره الأصيل في بناء منهج متكامل قوامه السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية في نسق متكامل جامع لا يحتاج معه المسلمون إلى آية دعوات وافادة قوامها القومية والعلمانية والماركسية، ومن خلال تراث ذائف براد إحيائه في مجال الفرية.

وكان قوام دعوة الإسلام، العودة إلى المنابع والتهاس مفهوم الإسلام الأصيل قبل ظهور الخلاف ومن خلال تصور قرآني نبوي متحرر تماماً عن مصطلحات الفلسفة والتصور الفلسفي ومضاهيم علم الكلام والاعتزال. ويقوم أساساً على التوحيد الخالص.

وما تزال الكلمة الأولى هي الكلمة الأخيرة.

هذا وطن الإسلام الذي سرق منه واستولى عليه الاستمار وحاصر دينه وعقيدته في مؤامرة ضخمة لهدمها وتحويل هذه الأمة إلى عبودية الأعمية والخضوع للحضارة الغربية والانصهار في المجتمع العالمي المادي العلمإني الذي مرق من العبودية لله تبارك وتعالى منكراً هذه الرابطة متحللاً منها داعباً إلى نقضها في الزيغ عن الحق والخروج عن سنن الله تبارك وتعالى.

وبالرغم من مرور أكثر من مائة وخمسين عاماً على الوطن الإسلامي وهو محاصر في دائرة النفوذ الأجنبي بشكل أو بآخر فإنه مهما بدا إنه حر في حركته فهو مقيد محاصر، وثرواته ومقدراته مصادرة، مفرب شبابه ورجاله حيث تحاول أن تحتويه دعوات الماركسية والليرالية والفرعونية والقومية والعلمإنية في محاولة مستميتة لفصله عن عقيدته ولتحطيم وحدته الكبرى ليظل ممزقاً ذليلًا.

وقد عايشنا هذه اليقظة خلال خمسين عاماً في تناميها وامتدادها، وانتقالها إلى الصحوة في طريقها إلى النهضة.

حيث خرجنا من مرحلة الرد على الشبهات وكشف زيف المؤامرات إلى مرحلة بناء القواعد من خلال أسلمة العلوم والمناهج وتقديم البدائل المستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة وصولاً إلى التأصيل الإسلامي للفكر المعاصر.

لقد مضت اليقظة دائبة على تحرير الفكر الإسلامي من قيوده، في مهمة تكاتفت فيها جهود الأبرار من أعلام الإسلام، وقد خطونا مع العاملين في ذلك خطوات واسعة غير أن كتافة رد الفعل ومضاعفة النفوذ الغربي لعمليات التغريب والتقدم الفكرى ما تزال تحول دون الناية. ويأتي ذلك الخطر عن طريق التعليم والثقافة والصحافة، مما يتطلب منا
تذكر الغاية الأساسية والاستهاتة في سبيلها وهي حماية أمتنا من الخطر في سبيل
النهاس منهجنا الأصيل ويجب أن نكون على ثقة كاملة لا حد لها بصدق ما
ندعو إليه وما نؤمن به وهو أننا على الحق وأن ديننا الإسلام، بوصفه منهج
حياة ونظام مجتمع هو أمل البشرية الوحيد الباقي ومها أظلمت الحياة ونبين
أن الباطل قد استشرى فإن ذلك إلى زوال قريب وأنها ليست إلا مرحلة
قصيرة تستلزم منا الثبات والصبر والتصل باليقين الحقى وعلينا أن نكون على
وعي بالنيارات البراقة الغامضة وعلى حذر منها وأن تكون مهمتنا واضحة
صافية بيضاء كفلق الصبح ﴿ وَأَنْ هَلَا صِيرَطِي مُستَقِيماً فَأَلْتَهِ مُوهً وَلَا
تَشَهُوا السُّبُلِ فَلْفَرَقَ بِهِ كُمْ عَن سَهِيلِهِ ﴿ ﴾

لقد تحركت الدعوة الإسلامية من مرحلة اليقظة إلى مرحلة الصحوة في الطريق إلى النهضة وهي الآن تقوم بإعداد مناهج البناء وتقرر الأسس التي يتم عليها ترشيد الصحوة.

ولقد كان عطاء الدعوة الإسلامية كبيراً، ليس في مجال كشف الشبهات التي قدمها الفكر الغربي فحسب وإنما كان وافراً من حيث إحياء التراث الإسلامي في جميع مجالاته والكشف عن الدور الذي قام به المسلمون لبناء الحضارة الإنسانية، أضف إلى ذلك الأعمال الكبرى في مجال الشريعة والقانون والنظريات السياسية ومنهج الإسلام في بناء المجتمع والتربية.

ومن هذا المنطلق أجابت الدعوة الإسلامية: هل يكون الكاتب مرآة عصره أم موجه عصره، فكشفت حقيقة الإسلام في أنه كان على مدى أربعة عشر قرناً موجهاً للمجتمعات البشرية وليس مبرراً لانحرافها وفسادها.

كذلك كان الإسلام قادراً على النهاس طريق تصحيح المفاهيم والوصول إلى الحق عندما ينحرف الطريق بالمسلمين وكان دائهاً قادراً على الابتعاث من داخله وغير متقبل للجسم الغريب.

ولقد أعيد فتح باب الجهاد على الساحة الإسلامية في عشرات المواقع

في مقدمتها الشورة الجزائرية والعاشر من رمضان وفتح وحماس وجهاد أفغانستان وثورة الأقطار الإسلامية على النفوذ الأجنبي منذ مطالع القرن الماضى وهو اليوم في طريقه إلى امتلاك الإرادة وتحرير الهوية.

ولقد بدأ التحول إلى المنهج الأصيل عندما تكشفت الحقائق أمام الكتب حول القومية والاشتراكية والعلمانية كها كشفت دور السلطان عبدالحميد والدولة العثمانية ومؤامرة تحرير المرأة، ومن هنا كان عجب الذين يطالبون الدعوة الإسلامية بالانصهار في حركة الجيش وغفلتهم إذ كيف يمكن للمؤقت أن يستحوذ على الثابت الأصيل وكيف يمكن صهر العمل الكثير المحقق من رسالة محمد ﷺ في العمل المؤقت الذي يغلب عليه طابع المطامع الفردية.

وقد جاء سقوط الشيوعية ليكشف أمام الشباب المسلم مدى عجز الأيدلوجيات البشرية أمام الحق والفطرة والدين الحق وليس هذا السقوط إلا مقدمة لسقوط الفلسفة المادية، والعلمإنية والمناهج البشرية التي كشفت الدعوة الإسلامية فسادها من خلال هدم نظريات دارون وماركس وفرويد وسارتر ودوركايم وغيرهم.

ويبقى أمامنا الخطر الماثل الذي يحتاج إلى عمل كثير.

خطر الصهيونية الذي يتمدد الأن ويدعو إلى دولة من النيل إلى الفرات وبناء هيكل سليان ونحن مطالبون بأن نواجه الخطر ونعمل على تحرير بيت المقدس وستبقى هذه القضية أمانة في رقاب المسلمين حتى ينهدم هذا الجسر ويتحرر الوطن الإسلامي وتعود إليه وحدته القائمة على شريعته ومنهجه الرباني وسوف لا يتوقف الجهاد فإن كتائب الإسلام تظل في رباط إلى يوم القيامة.

> هذا وبالله التوفيق القاهرة/ربيع الثاني ١٤١٣

أنورالجتندي

سهم في سبيل الله

من أنت:

,

إنني محام: للدفاع عن ميراث هذه الأمة.

إنني محام: لتصحيح المفاهيم وكشف النزيف والشبهات عن فكر الإسلام.

إنبي محام: للدعوة إلى الله ونشر كلمة لا إله إلا الله في العالمين، إن المسؤلية ضخمة والمهمة شاقة وهي تستغرق كل الوقت وكل العمر وما مكنني ربي فيه خير، سلاحي القلم أرسل به القذائف على معسكر العدو وأسأل الله أن أموت مجاهد الكلمة شهيد الحق.

وما زلت منذ حملت هذه الأمانة وأنا أحس أن هناك «جذوة» متقدة في أعماق النفس وتحدياً قائياً لا يتوقف ولا يفتر، لقد كانت آمال وأحلام وأماني لأنباس كثيرين، غابت ثم عادت واطمأنت النفوس واستسلمت للرضا بالواقع، أما صاحب أمانة الدعوة الإسلامية فإنه ما زال قائياً بها لا يستنيم ولا يهدأ ولا يحس بالرضا عن النفس أو بأنه القى حمله الثقيل أو تخفف منه ولا ريب أن الكاتب المسلم مقاتل يحمل القذيفة كل ليلة بعد أن يحدّها ليلقيها على معسكر العدو، يعدّها بالليل فإذا أصبح الصباح أطلقها وصدق رسول الله ﷺ: وألا أن القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي».

وهو إلى ذلك مكلف بإضاءة الطريق أمام الإنسانية لتعرف ربها، لتعرف طريق الحلق إلى الحق.

هذا الكاتب المسلم هو الإنسان الرباني صاحب الرسالة: ما أبعد الفرق بينه وبين إنسان لا يرى ما تحت قدميه، أما هو فيتطلع إلى الأفاق الواسعة والنظرة البعيدة. ما أبعد الفرق بين إنسان في سباق مع الزمن وإنسان خامد النفس لا يشغله شيء ويرضى بما هو فيه كأنه غاية ما يرجو، ما أبعد الفارق بين إنسان تسمو مطامعه إلى الأمال الكبيرة وبين إنسان يتوقف عند المطلمع الصغيرة، الأمال التي تدخل بها الأمة الإسلامية مرحلة التمكين فيرضى عنها ربها ويصرف عنها بأسه وغضبه فيطعمون من الطيبات، وتفتع عليهم بركات من الساء.

- 7 -

إنني مدين بتكويني الفكري إلى القرآن والسنة، الإسلام بمفهومه الأصيل كما كشف عنه الاستاذ الإمام حسن البنا بما فهم الأوائل فيه عودة إلى المنابع.

إن الأفكار التي اجتذبتني إليه، كانت ولا تزال قضية (الغزو الثقافي والتغريب) التي أراها كبرى قضايا العصر وأولى تحديات النفوذ الاجنبي حيث تفنى أعيار المفكرين في هذا الجيل في سبيل تصحيح المفاهيم وتحرير القيم والكشف عن الزيوف والسموم المثارة والمطروح في أفق الفكر الإسلامي يوما بعد يوم عن طريق الاستشراق الغربي والماركسي والصهيوني على اختلاف مطامعه وأهوائه وغاياته التي ترمي في مجموعها إلى القضاء على الهوية الإسلامية والذاتية الخاصة للمسلمين التي أقامها الإسلام ﴿ صِبْعَةَ اللّه وَمَنْ

أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْبَعَةً في حتى لا يدوب المسلمون في أتون العالمية أو الأمية التي غيمل منهم أشبه بالقطيع العام وتحول بينهم ويين ظاهرة التميز الحاصة التي أعطاهم الإسلام حين جعلهم في الناس شامة وجعلهم أمة وسطأ خالصة الوجهة لله تبارك وتعالى تحمل لواءه بين الأمم وتدعو إليه إلى يوم القيامة، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقيم الدين وتبني المجتمع الرباني الحالص.

إن هدف التغريب والنفوذ الأجنبي هو أن يضعهم في الدائرة المغلقة، فإذا عليهم لو كسروا الدائرة المغلقة وخرجوا إلى العالم الواسع العريض.

_ * _

لم أصل إلى الفكرة الإسلامية الجامعة إلا بعد دراسة الحركات الوطنية القومية وتتبع أصوطا فقد انكشف في أنها ليست قائمة بنفسها وأنها ذات جذور أبعد يجب تقصيها حتى نصل إلى الأصل. ولقد صدق (ولفرد كانول سميث) حين يقول - هو و (روجيه جارودي) -: إن الإسلام هو المظلة الحقيقية التي انبعث منها الحركات الوطنية وحركات المشاومة ، مهما غلفها الزعاء بلون إقليمي ولكنها كانت في صميم وجدان الشعوب دفاعاً سوياً عن العرض والأرض. إن أول من حرّف مفهوم الكفاح الوطني وأخرجه من إطار الجهاد الإسلامي في بلادنا هو سعد زغلول أما قبل ذلك فقد كان الحزب الوطني يكافح كفاحاً وطنياً في إطار مفهوم إسلامي، وكان الارتباط بالدولة العثابة - هو ارتباط بالخلافة.

وهو في نفس الوقت ارتباط بمفهوم الإسلام وإن غلبت الدعوة الوطنية لتحرير الأرض على الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية التي كانت بالطبع مرحلة تالية كان أكبر من بني لها قاعدة عريضة هو الأستاذ الإمام حسن البنا رضوان الله عليه.

ولقد كانت أمانتي للإسلام والفكرة الإسلامية قائمة منذ التقيت بهذا الرجل الذي هداني إلى السطريق وكنت أكتب في الإسلام ولا أعرف هذه الوجهة الصحيحة، غير أن الظروف لم تلبث أن فرضت وإطاراً عربياً قومياً، ختق الفكرة الإسلامية واعتبر العمل فيها عداء، غير أنني لم أياس وجعلت

منطلق العروبة منطلقاً إسلامياً إلى إحياء أبطال الإسلام والتراث الإسلامي ولكن هذه المرحلة لم تكن تمثل الأصالة الحقيقة ولكنها تمثل مرحلة غنلطة مضببة لم تكن تبين لنا فيها الرؤية الحقيقية لمفهوم الإسلام.

وفي الوقت الذي نودي للعمل في المجال الإسلامي الرسمي، كنت أحس أن هـذا النداء عودة بي إلى الأصالة فكان أن قـدمت ذلك اللون الإسلامي الأصيل. إلى تلك المجلة التي كانت حافلة بكتابات العلماء دون أن تتضح من خلالها إلا مفاهيم الإسلام التقليدية.

ولقد بدا طريق المفاصلة بين القيم والمفاهيم عندما عمق مفهوم الأصالة ومن ثم خضعت الصداقات للقيم ولكن الطامة الكبرى جاءت بعد أن سيطر الشيوعيون على الصحافة والسينما والمسرح وأخذوا يطاردون كمل كتابات الإسلام وآوى بعض المسلمين إلى مجلة منر الإسلام.

كانت هذه الغهامة الشديدة السواد دافعاً إلى تأصيل المفاهيم على أساس الإسلام في غتلف القضايا الاجتهاعية والاقتصادية، والأخلاقية والسياسية والأدبية والتربوية.

هنالك تبين أن هؤلاء الذين كانوا معنا على طريق واحد بجنالفون في مسائل أساسية في العقائد والقيم فكان حقاً علينا أن نواجه فهمهم التقليدي أو الغامض القائم على أسلوب السياسة والحرية وأن نكشف هذه الأخطاء في رفق، ثم بان أن هناك خلافاً عميقاً وواسعاً بيننا وبين كبار كتاب الصحف أمثال توفيق الحكيم وزكي عبدالقادر وزكي نجيب محمود وحسين فوزي حتى الذين حملوا لواء الكتابة عن الإسلام فقد تبين أن إيمانهم ناقص حيث يصلوا إلى المفهوم الجامع بأن الإسلام منج حياة ونظام مجتمع.

كذلك فإن أخذ كليات من هنا أو هناك دون تقدير للمراجع الصحيحة أو كتابات الباطنية والصوفية والفلاسفة أمر يحتاج إلى مراجعة فعلى المفكر المسلم أن يتحرى منهج أهل السنة والجياعة، وعليه أن يتحرر من الفكر العلاني عند المعترلة، أو الفكر الباطني عند الصوفية وعلى المفكر المسلم أن يكون متحرياً أصول مفهوم أهل السنة والجياعة.

ولم يقع الحلاف بيني وبين المعاصرين وحدهم أمثال طه حسين وهبكل والعقاد وزكي مبارك ولكن وقع بيني وبين القدماء أمثال ابن سينا والفارابي والحلاج وابن عربي وغيرهم.

كذلك فأنا لا أرى في الأدب العربي وتفسيراته ما يراء أتباع المذاهب الوافدة وكذلك الأمر في الشعر والقصة واللغة العربية وغيرها فقد كان مفهوم الأصالة الإسلامية عاملاً هما في تغير مفاهيمي التي قامت أولاً على مسلمات زائفة حاولت أن تفرض علينا فهماً تغربيباً يدخلنا في دائرة سوداء مغلقة تستهدف أن نكون تابعين للفكر الغربي في نظريات ومفاهيم.

ومع أنني تنبهت مبكراً لهذا الخطر حتى قبل أن ألتقي بالأستاذ البنا منذ كنت أقراً كتابات الدكتور هيكل في السياسة والسياسة الأسبوعية عن التخريب وكتاب المستشرق جب ووجهة الإسلام، فقد انكشفت هذه الغاية الخطيرة ولعلي نذرت نفسي منذ ذلك الوقت ١٩٣٢ وسني ست عشر عاماً لهذه الغاية.

ثم فتحت لي دعوة الإخوان المسلمين الطريق واسعاً إلى الأصالة والفهم، غير أنني كنت ما زلت إلى سنوات قريبة غير واضح الرؤيا بالنسبة لأشياء كثيرة تبينت لي في الأخير.

وخاصة بعد أن عرفت خفايا بروتوكولات صهيون ومخططات الماسونية وبعد أن سيطر الشيوعيون عمل الصحافة والمسرح والسينها وأحسست بأن الخطر يقترب وشيكاً من هذه الأمانة الضخمة.

نعم عندما اكتمل مفهوم الإسلام (منهج حياة ونظام مجتمع) في نفسي كان ذلك حداً فاصلاً بين حياة وحياة فقد أخذت أراجع آرائي كلها في كل ما كتبت وأنظر إليها في ضوء مفهوم الإسلام الجامع بعد أن كان مفهومها قاصراً في المرحلة الأولى: مرحلة إسلام العاطفة والوجدان وفي المرحلة التالية - التي كانت التقية غالبة فيها - وهي مرحلة تمجيد الأمة في تاريخها وأبطالها وتراقها، دون أن يكون ذلك مفهوم الإسلام الحنيف.

وكمان الخطأ ما زال متصلًا بكتماباتي في أمور تاريخية كانت ما ترال مغماة

ومنها موقفي من السلطان عبدالحميد والاتحادين ومدحت وغيرهم مما كنت خائضاً فيه مع الخاتضين باتهام هذا البطل الكريم بأنه مستبد أو سلطان احمر كها كان يقول الظالمون، ذلك أن كشف ستر هذه القضية قد جاء متأخراً عندما كشف أحمد الشقيري رحمه الله عن واقعة اللقاء بين السلطان عبدالحميد وهرتزل التي، أوردها في مذكراته ولم تترجم إلا من بعد وكيف توعدوا الرجل بعد أن وقف أمامهم في صلابة ضد مطامعهم، وهو يعلم أنها ستكلفه عرشه وحياته.

وهذا ما تبين لي من بعد.

والحقيقة أنه لم يكن مفهوم الأصالة الإسلامي هو تكريم تاريخ المسلمين والعرب والنظر إلى تراثهم نظرة التقدير على هذا النحو الذي سرت فيه شوطاً إنما كان المفهوم الحقيقي هو محاكمة تاريخ هذه الأمة كلها في ضوء تسطبيق الإسلام.

ومن هنا وقع الخلاف بيني وبين كثير من الذين كنانوا معنا في أول الطريق. ومع كثير من المفاهيم التي كانت بمثابة مسلمات مع أنها خاطئة في الحقيقة خاصة في مجال الأدب والفن.

لقد تين لي أنه في ضوء إيماننا بالإسلام (منبج حياة ونظام مجتمع) يلزم أن نعيد النظر في مناهج الأدب والتقد الأدبي والتاريخ والإجماع والنفس. لقد كان الانحراف الذي خضعنا له: أن المناهج الغربية تعمل على تعرية الشخصيات وتبحث عن الشبهات وفصل الأدب عن الدين والأخلاق والاجتماع وإطلاق الفنون والأداب من قيود الأخلاق وتبعة المجتمعات وأعرافها الأصيلة.

وتقديم أبطالنا وشخصياتنا وتاريخنا وأدينا بأسلوب يستهدف تصويرهم بصورة الاحتقار والكراهية والسخرية وهذا هو أسلوب التغريب الذي نحرر منه مفاهيمنا ولقد كان طه حسين هو وقمة اطروحة التغريب وأقوى معاقلها ولذلك فقد كان توجيه ضربة قوية إليه هي من الأعهال المحررة للفكر الإسلامي من التبعة.

يقول المستشرق كاممفاير: إن المحاولة الجريئة التي قام بها طه حسين ومن شايعه في الرأي لتخليص دراسة العربية من شباك العلوم الدينية وهي حركة لا يمكن تحديد آثارها في مستقبل الإسلام.

هكذا ينظرون إلى المحاولة التي كلفوه بها، ويعرفون مدى الخطر الذي حققه في أجيال ثلاثة على الأقل. فإن فصل الأدب عن الفكر وهو عنصر من عناصره من أخطر التحديات التي فتحت الباب واسعاً أمام الأدب ليتدخل في كل قضايا الإجماع ويفسد مفاهيم الإسلام الحقيقية.

وباعد طه حسين جاءت مدرسة العلوم الاجتماعية، بدأت أفكار فرويد وماركس ودوركايم تزحف إلى الفكر الإسلامي وتطرح سمومها وهي تواجه مفهوم الإسلام الأصيل مواجهة خطيرة وتعمل على طمسه بإعلاء شأن المعدة تارة أو الجنس تارة أو القول بأن الفرد لا قيمة له ولا معنى لتشبثه بالحرية الفردية وإغا القيمة للمجتمع الذي يخلق الأديان والعقائد وإن الدين لم ينزل من الساء وإغا خرج من الأرض كها خرجت الجهاعة نفسها.

كل هذا كان في حاجة إلى كشف لزيغه ودحض لسمومه، وكانت هناك مدرسة تولستوي وغاندي وكيف حملت إلى الفكر الإسلامي مفهوم دحض وفريضة الجهاد، التي جاء بها الإسلام والدعوة إلى الخضوع والاستسلام تحت اسم السلام.

وجاءت مرحلة عمل كتاب التغريب منها في البحث عن الشبهات القديمة التي روجتها الشعوبية والمجوس والباطنية والإسرائيليات وعملوا على إحياتها وإعادة صباغتها من جديد وإثارة مفهوم للإسلام ليس كاملاً، بالقول بأنه دين تعبدي وعاولة التأويل في الشريعة والفصل بين الدين والمجتمع، وإبراز الحلافات المذهبية، والفجوات بين الطوائف ويقولون في جرأة عجيبة: إن مفهوم الإسلام يختلف باختلاف الشعوب.

ولحا رأى التغريب أن الأزهر هو القلعة الصامدة التي وقفت أمام مؤامراتهم قرر المبشرون في مؤتمرهم الذي عقد في أول هذا القرن أن الأزهر يعد أهم عائق في وجه التبشير وبالتالى في وجه الاستعار في مصر والعالم الإسلامي، ولا بد من إيجاد مؤسسة علمية ثابتة يبثون منها أفكارهم ويطبعون جيلًا من المسلمين بـطابعهم حتى يقف هذا الجيل أمام الفكر الإسلامي ويشكك فيه وكان أن ولدت الجامعة الأمريكية في القاهرة.

ر وكشف عميد التبشير في البلاد العربية (الدكتور زوير) عن خطفهم فقال: ليس غرض التبشير المسجي إدخال المسلمين في المسيحية فإن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً ولكن الغاية هي إخراج المسلمين من الإسلام فقط ليكون ملحداً أو مضطرباً في دينه وعندها لا يكون مسلياً أي لا يكون له عقيدة يدين بها وقال: إن هذه أسمى مراتب الانتقام من الإسلام وأجل الغايات الاستمهارية فهاذا عملت قوى الغزو التبشيري في صبيل ذلك!.

قال زويمر: أجل لقد قضينا على برامج التعليم في الأقطار الإسلامية منذ خمسين عاماً فاخرجنا منها القرآن وتاريخ الإسلام ومن ثم فقد أخرجنا الشباب والفتاة الإسلامية من الوسائط التي تخلق منهم العقيدة والوطنية والأخلاق والرجولة والدفاع عن الحق.

ر وقال: إن القضاء على الإسلام في مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير وقد جنينا أعظم الثمرات المرجوة منه فقىد حطم التبشير النشء الإسلامي تحطياً وهو سبب فساد الحلق والوطنية وموت الرجولة.

وهكذا تجمعت الأخطار على طريق الداعية المسلم فكان عليه أن يعمل لكشف الحقائق ويواجه الخطر ولا يستسلم.

ل لقد طرحت الوثائق التي ظهرت في السنوات الاخبرة حقائق كثيرة جلت كثيراً من الغموض الذي كان يواجهه الدعاة أسلافنا فكان علبنا أن نخطو الخطوة التالية: خطوة التأصيل والبناء على الأساس وقد قام في رحاب الدعوة الإسلامية علماء كثيرون آمنوا بالإسلام ديناً ومنهج حياة وقدموا مناهج جامعة في مختلف الميادين: منهج المودودي والندوي ومحمد المبارك وعبدالقادر عودة وأبو زهرة وعلال القاسي ومصطفى السباعي.

إن أخطر كلمة يجب أن تقال في هذا: أن الفضل كله لله وأن الهدى

هدى الله وأنه لولا فضل الله في التوجه إلى هذا الطريق المستقيم لظللنا في ضلال السبل التي لا توصل أبداً والتي هي عبارة عن أهواء وركام.

ولذلك فإن خير ما أعتقد أنـه موهبـة من الله تبارك وتعـالى لي هو الإيمـان به .

_ £ _

أعتقد أنني سهم من سهام الله التي تنطلق في مواجهة هذه المفاهيم المسمومة المبتوثة في أفق المجتع الإسلامي، ولدحض هذا الباطل ولكشف زيف هذا الفكر البشري الضال الذي استحصد واتسعت آفاقه وحملته الأدوات الحديثة التي صنعتها الحضارة عن طريق الصحافة والمسرح والسينها والإذاعة والتلفاز، كل هذا البث المتصل الشديد القوي التي جندت له القوى الضخمة والأموال الضخمة والعقول التي تجبري كلها ويبدها كل هذه الأدوات الضخمة لتبث تلك المفاهيم المسمومة في الشباب والفتيات والرجال والبيوت، ليلا ونهاراً عن طريق مسرحيات إباحية وأغان خليعة وحوار هابط، والمعام كاذبة: ليست مفاهيم الفطرة ولا العلم ولا الحق على إطلاقه وإنما وانحلال وليحصل من الترف هدفاً ومن الرخاوة وجهة فإذا جاءت الشوة والمحلال من الترف هدفاً ومن الرخاوة وجهة فإذا جاءت الشوة المعادية لتضرب هذه الأمة وجدتها خواء لا تصمد أمام الضربة ولا تقاوم ولكن تستسلم وقد فسدت منها النفس وانهزمت الروح قبل الهزية.

ونحن مطالبون بأن نقدم للمسلمين ما ينقصهم من برامج التعلم عن الإسلام ونصحح ما قدم لهم من شبهات وأخطاء، على قاعدة واضحة. إن هذه المناهج وضعها النفوذ الأجنبي ليعدنا عن حقيقة ديننا وإن علينا أن نصلح أمرنا بأن نفهم الحقائق التي لم تكشفها أساليب المعرفة المعروضة من خلال مناهج التعلم أو الصحف أو دراسات الثقافة الخاضعة للمفاهيم الوافدة.

_ 0 _

إن أبرز ما نجده في حركة اليقظة أنها حركة مقاومة بالقلم لم تيأس حتى بعد

سقوط عالم الإسلام في قبضة نفوذ الاحتلال، إنها تحمل ذلك الإيمان العميق بأن هذا الدين لا يمكن أن يزول وإن هزم في معركة فرعية فإن أبواب النصر وأضواء العودة إلى الحق لا بد أن تبدأ من صميم اليأس ومن ظلام الليل الدامس.

ذلك لأن كلمة الله لا يمكن أن تموت وستحيا وستعود إلى الإشراق تحملها تلك الأيدي الواهنة والقلوب المؤمنة رغم كل محاولات ضربها والقضاء عليها والتيشس منها.

﴿ إِنَّهُ الْا يَأْيُتُسُ مِن رَّوْجِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَنفِرُونَ ﴾.

هذه هي النار المتقدة في الصدور لا تنطفيء.

وهذا هو التحدي المتصل الذي لا يتوقف ليلاً أو نهاراً وذلك هـو الديدبان القِظ الذي له في كل يـوم كلمة ومـوقف وطلقة يـطلقها صـوب معسكر التغريب والغزو الثقافي.

لقد أشرق هذا الفجر: فجر حركة اليقظة بعد سقوط الخلافة الإسلامية واهتزت النفس الإسلامية في كل مكان للقضاء على هذه العروة الوثقى وكانت صيحات جمال الدين ومحمد عبده قد ارتفعت لتدفع الفكر الإسلامي إلى التحرر من جمود التقليد، وجبرية الصوفية، ولكن إلى أين! إلى الفلسفات وعلم الكلام وأفكار المعتزلة.

ولكن كان لا بد أن تظهر دعوة ربانية فرآنية خالصة بعد هذه المرحلة تدعو إلى مفهوم الإسلام الأصيل المستمد من المنابع الأولى بعيداً عن جبرية الصوفية وعقلانية المعتزلة، إلى القرآن نفسه وإلى فكرة الإسلام: فكر أهل السنة الجامع.

كذلك فقد كانت هناك دعوة فكرية ولكن لم يكن هناك شيء في مجال المجتمع نفسه، ولذلك فقد كمان لا بعد أن تنشأ فكرة ترد الشباب إلى الإسلام نفسه، على نفس المنهج الذي بني به رسول الله الجياعة الاولى. وكان التحدي قوياً، كان يتمثل في الغزو الفكري في تلك التيارات المغلفة بالاستشراق والتبشير في الجامعة والصحافة والثقافة يقودها طه حسين وعلي عبدالرازق ومحمود عزمي وسلامة موسى وكان لا بد من إبراز مفهوم الإسلام الأصيل الجامع.

وهكذا بدا ذلك التيار الأصيل الذي انضممنا إليه من بعد، لقد كان المنطلق الأول إسلامياً، ولكنه الإسلام التقليدي الذي يقصر نظره على أن الإسلام صلاة وعبادة، ثم جاء ذلك الفهم العميق الكامل الجامع: الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع، وكان صاحب القلم قادر على التوجه بفضل الله إلى العمل، لم يكن الارتباط بالتنظيمات هو الوجهة ولكن كان ذلك العمل، ولذلك فإننى مضيت إلى العمل الأكثر إلحاحاً وهو إعزاز موهبة الكتابة وتعميقها وتوجيهها إلى خدمة الهدف الإسلامي الأول في تقديري، وهو إحياء جوانب القوة والبطولة في تاريخنا وتراثنا العربي الإسلامي منذ فجر الإسلام وإلى العصر الحديث. واخترت ميدانين أساسيين في هذا المجال هما ميدان التراجم ودراسة الأدب العربي وكان في أعهاق النفس شعور بالغيرة على تلك البطولات المدفونة التي كانت تذهب آثارها في طوايا الدوريات فأحييت تاريخ أمثال أحمد زكى باشا وعبدالعزيز جاويش وفريد وجدي، وأقمت ذلك المشروع الواسع لدراسة ألف شخصية (الأعلام الألف) أما الأدب العربي فقد حاولت به عاربة فكرة الإقليمية فيها أسموه الأدب القومي والإقليمي ورأيت أن أدرس الأدب العربي في أفقه الواسع، وإحياء شخصياته وبطولاته وكان ذلك موضع سخرية بعض الإقليميين بل دهشتهم لذكر أمشال عبدالحميد بن باديس وعبدالعزيز الثعالبي، ثم وسعت الأفق في دراسة العصر الحديث من صحية جمال الدين وأثرها في الصحافة والأدب، كما أديت ديناً للأدب العربي في شمال إفريقيا وكان مجهولًا مغموراً فدرست جهاد الأدب العربي في المغرب وتونس والجزائر وليبيا في مواجه النفوذ الاستعاري غير أن هذا الاتجاه وإن كان قد خرج بنا عن الإقليمية فإنه قد حجز نافذة في مجال القومية بأخطائه ومفاهيمه القاصرة عن مفهوم الإسلام الجامع، ومن هنا فقد وقعت أخطاء كثيرة حول بعض الشخصيات التي كنَّا نقيَّمها في ظل المسلمات الضالة التي كانت مطروحة في ساحة الفكر الإسلامي والتي كان علينا من بعد تصحيحها وكشف زيفها، وكذلك شاركنا مع إخوة أبرار في تعرية هذه الزيوف من ذلك الموقف مع الدولة العثانية والحلافة الإسلامية والسلطان عبدالحميد وجلينا الموقف المضبب حول مدحت ومصطفى كيال أتاتورك ومفوم القومية العربية الذي طرحه أمثال ساطع الحصري وميشيل عفلق ومن مقاهيم الإقليمية المصرية التي طرحها سعد زغلول والأحزاب السياسية ومن بعض الشخصيات اللامعة.

وكذلك فقد درست بعض الشخصيات الغربية المعارضة لمفاهيم الإسلام وكشف أهدافها وأخطائها، ولعل هذا هو الذي أزعج بعض أصدقائنا الأدباء الذين تقوقعوا في دائرة الأدب وأغلقوها عليهم ولم يستطيعوا القفز أو الزحف إلى الفهم الأصيل الجامع للفكر الإسلامي بوصفه الدائرة الكبرى التي يجب أن يكون الأدب إحدى دوائرها الصغرى اتصالاً بها وتنسيقاً الظروف والأحوال يواجهون الأمور في بساطة ولم يكونوا قادرين على استيعاب الموقف إزاء تعقد الأراء المطروحة وبراعة عرضها فضلاً عن طابعها البراق الذي يخطف الأبصار ولكن سرعان ما تسلح الباحثون بنفس أسلحة خصومهم وتقدموا إليهم يناضلون بأسلوب العصر الحديث، بل إن بعض المقوا يا الغرب وعرفوا مفاهيم في البحث والجدل فواجهوا القضايا مواجهة قادرة.

لقد برزت أول الأمر المدرسة المنطقية والفلسفية، ثم جاءت المدرسة القرآنية فكانت أكثر عمقاً وأصالة حل لواءها مفكرون أبرار التمسوا مناهج الفكر وأساليب الرد والجدل والمساجلة من القرآن نفسه وقالوا: إن القرآن هو الأصيل للفكر الإسلامي فإنه يستنظيع أن يقدم الإجابة الحاسمة ويدخض الشبهة الزائفة.

نعم لقد كانت كتابات هيكل والعقاد وطه حسين عن الإسلام لامعة، وكانت موضع إعجاب الكثيرين في أول ظهورها، ولم يلبث الأمر أن تكشف عن أخطاء كثيرة في هذه الكتابات وأنها تصدر على منهج الاستشراق وتنكر ر كثيراً من حقائق الإسلام أو تعتمد مناهج الفلاسفة الفربين في تفسير الإسلام، هذا بالنسبة للعقاد وهيكل، أما طه حسين فقد تكشف عن تبعيته الحظيرة للاستشراق والتبشير الغربي أشد المكر في خداع المسلمين بالأسلوب الموسيقي الذي يخفي كثيراً من السموم وقد أمكن لحركة اليقظة كشف ذلك كله ووضعه في ضوء الشمس.

-7-

كانت دائرة العمل الفكري ضيقة في أول القرن الميلادي، فكانت قاصرة في الحركة الوطنية في مواجهة النفوذ الأجنبي.

وقد تراوحت بين الوطنية والسياسة، وكانت الحركة الإسلامية إلى جوارها قاصرة ضيقة، تكاد تتوقف عند بعض دراسات السنة وتفسير القرآن وكأنها منفصلة تماماً، وكانت أشبه بالمواعظ وخطب الجمع وغيرها يغلب عليها الطابع التقليدي الخاص بالحث على مكارم الأخلاق والتمسك باللدين.

أما الإسلام بوصفه مفهوماً أصيلاً جامعاً: السياسة والشريعة والاقتصاد أجزاء أصيلة منه فإن هذا المفهوم لم يظهر حقيقة إلا بعد ظهور الدعوة الإسلامية، هذه الدعوة التي غيرت المفاهيم وحررت أسلوب العمل الإسلامي فأصبحت دراسات الإسلام ليست قاصرة على العبادات والاخلاق بل متصلة بكل ما يرتبط به الحياة الاجتهاعية والسياسية والتربوية والاقتصادية، من دراسات وأبحاث تكشف عن وجهة نظر الإسلام فيها وقريها أو بعدها من أصول الدين الحق، ذلك أن مفهوم الإسلام الذي كان قائماً من قبل فإنما كان عبد عن أنه دين وصلاة وهو قاصر على حدود المسجد والمعاملات مع الله تبارك وتعالى. أما التعامل بين الناس فقد كان خاضعاً لفاهيم الاقتصاد الغربي والمصارف والقانون الغربي والمدرسة الغربية والسياسة الحزبية المستمدة في مفاهيمها من الليرالية والديمة والرأسيالية الغربية.

وفي هذه المرحلة نما مفهوم الأدب، واتسع، وكون له دولة مستقلة بعيدة عن الإسلام وأقام له مفاهيم ومقررات أتاحت له الحق في أن يستعرض كل أمور الإسلام دون أن يواجهها مواجهة صحيحة، كان يتحدث عن القرآن باعتباره كتاب بلاغة أو لغة، أو أن يتناول الأدب العربي منفصلاً عن خط سير الأدب العربي الإسلامي منذ فجر الإسلام أو أن يتناوله على نحو معين فيعرض لشخصيات معينة كأبي نواس والمعري ويسرى أنها من مادة الأدب ويتجاهل ويحجب شخصيات أخرى أمثال الغزالي وابن تيمية وغيرهم على أنها ليست شخصيات أدبية وقصر مفهوم الأدب على ما يسمى النثر الفني أو شعر النزل والهجاء وبذلك تقوقعت دائرة الأدب وقصرت على تلك الصفحات المسمومة التي قدمها الشعوبيون وتجنبت تلك الصفحات المشرقة المضيشة من القيم واللحولة.

وجرى ذلك المجرى في ضوء إخضاع الأدب العربي لمذاهب الأدب الغربي الوافد وهي مذاهب صادية إباحية لا ترى في الإنسان اكثر من أنه حيوان وأنه ابن بيئته وعصره وليس له قدرة على أن يكون ذا إرادة فردية أو مسئولية أخلاقية أو النزاماً مؤمناً.

__ ^ __

لا ربب أنه عندما يمثلك الكاتب «العقيدة» التي يعمل لها فإنها نكون يمثابة المصباح الموجه والكاشف للحقائق ومن ثم فقد وضحت الطريق بعد مدة طويلة من عدم الالتزام ومن الاضطراب والتخبط ولقد كان عبب إخواننا أنهم حصروا أنفسهم في دائرة الأدب دون أن يعرفوا لهم وجهة حقيقية لخدمة هدف واضح، ومن ثم فقد عجزوا عن الالتزام بالطريق الأصيل، ومن ثم فقد كان عجزهم عن امتلاك العقيدة، مصدراً لمجزهم عن امتلاك الإرادة القادرة على تحديد الواجهة، ومن ثم فقد بدأت الحياة الفكرية والأدبية تتكشف أمامي عن أخطائها وانحرافاتها. وكيف اعتدل الميزان وبدأت نظري تتغير إلى وقائع التاريخ وسير الإعلام، لقد حدث ذلك عندما أخذت أضع تاريخ البلاد للماصر في ميزان الإسلام، أما قبل وعلى ضوء ما تعلمناه في من ناحية، كان تقدير البطولات قائماً على مقاييس غير صحيحة لانها مقايس النعبة للفوذ الغري. كانت الصحف تكرم سعد زغلول ولطفي السيد وكيال أتاتورك وغاندي وقاسم أمين من الشرقيين وكانت تكرم لورنس وغوردون وغيره من الغربيين، وكانت الصحف تقدم شبهات تحاول النيل بها من السلطان عبدالحميد والأمير عبدالقادر وثوار الجزائر من بعده وعبدالكريم وثوار سوريا والعراق بعد الحرب الأولى وتصفهم بأنهم مارقون.

وكانت المقايس إقليمية عضة، تقوم على الوطنية الضيفة، وتعارض المفهوم الإسلامي الجامع، ومفهوم وحدة العرب، وكانت تكره الجامعة الإسلامية والحلافة لأن الاستمار يكرهها وتدعو إلى الإقليمية وإعلاء العنصر وإحياء التراث الإقليمي والفرعوني وفي كل بلد تحيي تاريخه القديم السابق للإسلام.

٢ ــ كذلك صحح الإيمان بالفكرة الإسلامية كثيراً من المفاهيم وكشف كثيراً من الريف وعرّى تلك البطولات الخادعة والحركات الوطنية التي كانت لدور في فلك النفوذ الغربي لأنها كلها تعمل على حجب النظام الإسلامي في السياسة والاقتصاد والاجتماع، وتجري وراء المفهوم الغربي الليرالي، كها أنها تتنكر للوحدة الإسلامية الجامعة وتقيم بدلاً منها الصراع الإقليمي والخلاف العميق بين العرب والفرس والترك وغيرهم.

. .

هذا هو مفتاح شخصيتي في التحول الخطير الذي غير مفاهيمي وأحال كثيراً من القيم والمفاهيم والشخصيات من قائمة البطولة إلى قائمة الخيانة، بل إنه امتد أيضاً إلى مجال الأدب والثقافة والفن.

- ^ -

كانت الصحف والمجلات الإسلامية تقف عند حدود التفسير والحديث والفقه لا تتعداه حتى فتح لها والمناره: بعد والعروة الوثقى، الطريق إلى قضايا العالم الإسلامي وصراعه مع الاحتلال والنفوذ الأجنبي وكان سقوط الدولة العثمانية والخلافة هو الذي فجر قضايا الإقليمية والعروبة، ولكن كان قيام الدولة السعودية الجديدة متطلقاً جديداً أتجهت إليه المنار لأنه فتح الطريق أمام مفهوم الإسلام السني الجامع المخالف والمعارض لمفاهيم الأزهر في ذلك الوقت وكانت خاضعة لنفسيرات الصوفية وجمود النظرة الفقهية التقليدية.

ولقد فتحت صحف الإخوان المسلمين أفقاً جديداً للصحافة الإسلامية والكتابة الإسلامية والكتابة الإسلامية جرت فيه الأقلام وما زالت تجري دون أن تصل إلى شاطئه أو أغواره، عندما دفعت بفكرتها التصحيحية بأن الإسلام دين ودولة، وأن المسلمين مسئولون عن تطبيق نظام الإسلام على أنفسهم ومجتمعهم، قبل المسلمين مسئولون عن تطبيق نظام الإسلام على أنفسهم ومجتمعهم، قبل تبليغ الإسلام للعالمين ومن ثم فقد فتحت هذه الدعوة الأفاق إلى تصحيح مفاهيم زائفة كثيرة قدمها المنج الغربي الوافد في مجلل السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية.

ولقد كان على الدعاة المسلمين مد نطاق هذا المنهج إلى الصحف التي تكتب عن الإسلام وأن تطرح هذه المفاهيم في كل منبر متاح حتى لا يتوقف الأمر على مفهوم قاصر هو الكتابة عن العقيدة أو الأخلاق وحدهما بل من خلال مفهوم جامع هو أن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع ليكمل جوانب العقيدة والشريعة والأخلاق وأن المسلم يجب أن يكونها جميعاً مجتمعة لا واحدة منها.

- 9 -

لا ريب أن أعطت التجربة: تجربة تصحيح المفاهيم وتحرير القيم عدة أضواء كاشفة وتوجهات صادقة.

ومن ذلك أن المفكر المسلم لا يعكس قيم عصره، وإنما ينقل الناس من المحصر إلى القيم، ومن الواقع إلى المثل الأعلى، من الصورة التي هي محاولة لتبرير الضعف والتخلف في المجتمعات العامة إلى الصورة التي هي تحقيق الإرادة الله في الأرض ببناء المجتمع الرباني، إلى نقل البشرية إلى الإنسانية وإلى قيم الأصالة التي حرمتها الملدية والوثنية والتقاليد وانحرافات الأجيال.

إن كثيراً من الكتاب يفخرون بأنهم يعكسون قيم عصرهم، وهؤلاء ليسوا في الحقيقة إلا أتباع وأولياء وعبيد. أما المفكر المسلم فهو لا يعكس قيم عصره، وما قيم عصره إلا المادة والوثنية والمطامع والإباحية ولكنه ينقل الناس إلى القيم العليا.

إن المفكر المسلم لا يقر دعوة الأغاني الخليعة والأفلام الإباحية إلى عبادة الحياة، ولكنه يدعو إلى تدليل الحياة والناس إلى عبادة الله تبارك وتعالى.

وفارق بين المسلم الرباني صاحب الرسالة وبين أي إنسان آخر لا يرى إلا ما تحت قدميه حيث يقنع بلقمة طبية، أو مركب فاره، أما المسلم الرباني فهو في سباق مع الزمن لا يشغله شيء عن ربه ودينه يسمو بمطامحه إلى الأمال الكبيرة ولا يتوقف عند المطامع الصغيرة، في الأفاق الواسعة ويتطلع إلى الأفق الواسعة ويتطلع إلى الأفق العد.

وعلى ضوء إيماننا بقيمنا لا بد من إعادة النظر في:

١ ـ مناهج الأدب والنقد الأدبي والتاريخ والاجتهاع والنفس، والانحراف هو أن المناهج الغربية تعمل على تعربة الشخصيات وتبحث عن الشبهات وثانياً فصل الأدب عن الدين والأخلاق والاجتماع وتحريره من ضوابط الفن والأدب وتعريض أبطالنا وشخصياتنا وتاريخنا وأدبنا لأسلوب يستهدف تصويرهم بصورة الاحتقار والكراهية والسخرية، وهذا هو هدف التغريب.

إن على الكاتب المسلم إضاءة الطريق أمام الإنسانية لتعرف ربها ولتعرف طريق الخلق إلى الحق وأن علينا دائماً النظر إلى ما وراء النصوص والكلهات.

اللهم اجعلنا هادين مهتدين، لا ضالين ولا مضلين، عوناً لأوليائك حرباً لأعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك.

إن أخطر ما يجاول التغريب إقراره في الشعور الإسلامي هو الانعزال عن النظر في خلفيات الأمور فهو يستهدف تضييق دائرة الفكر وقصر النظر دون معرفة البواعث وقد تبين أن من خلف المخططات التي نـواجه قـوى وتنظيات يجب كشفها ودحض شبهاتها.

فليحذر شبابنا المثقف كتب الأحاجى وأحداث الإجرام والقتل وقصص

العرافين والسحرة وقصص الحب والهيام مما يثير رغبة العامة ويدفعهم إلى قراءتها.

على الكاتب أن يعطي القراء ما يحتاجون إليه، وليس مضطراً أن يعطيهم ما يرغبون فيه، إن الذي ارتفع لا يجوز له أن يهبط، وإن الذي هبط يجب عليه أن يرتفع ويعاب عليه أن يبقى حيث كان.

وعلى دعاة الفكر الإسلامي أن يبقوا بمعزل عن التيارات والايدلوجيات مع إدراك حقائقها وما ترمي إليه، ذلك لأن دعاة الفكر المادي يبذلون أقصى ما يستطيعون لـتركيز أفكارهم في طلائع الشباب المثقف موهمين أولئك أن طريقهم ومبادئهم هي وحدها الكفيلة بتحقيق ما تطمع إليه الشعوب.

على الشباب المسلم الحذر من التباس القوى المتكاملة كالعروية والإسلام والدين والدنيا والدين والدولة.

- 1. -

منذ ١٩٦٠ وسعت أبعاد دراستي فلم تعد قاصرة على الأدب العربي المعاصر والصحافة العربية وأوغلت في مجال أوسع أفقاً وأرحب منطلقاً : ذلك هو مجال الفكر الإسلامي المعاصر وفي لقائه مع الفكر الغربي بشقيه، ومن ثم أصبحت دراساتي تضم الاجتماع والفلسفة والحضارة والتراث.

رجوت العمل على تنقية الفكر الإسلامي من الشوائب التي أثارتها العصبيات والنعرات الطائفية وأزكتها العقلية الشعوبية وتصحح ما دسته مؤامرات التغريب والاستشراق في تاريخ العرب والإسلام من سموم فقد استغل المستعمرون أسباب الضعف بين المسلمين وراحوا يبعثون من قبور التاريخ أسباب القرقة والبغضاء وينفخون في نار قد خد أوارها منذ زمن بعيد. وبدأ الغزو من نقطة العقائد، وتقسيم العلوم إلى دينية ودنيوية واستهدف ذلك تمزيق وحدة الفكر الإسلامي وجماعية الرابطة بين العلوم الدين عن المجتمع، الدينية والدنيوية في طريق واحد. والهدف هو فصل الدين عن المجتمع، وفصل الدين عن المجتمع،

منطلقات التغريب والغزو الثقائي، إن لأمتنا منهج حياة ونظام مجتمع، يدعوها إلى أن تتجرر من التبعية الاجتهاعية والثقافية للفكر الغربي وتعرف ذاتها. إن لنا نظرة أصيلة في الاجتماع والنفس والتربية والأخلاق والاقتصاد. نعرض عليها الفكر الوافد، فلننظر في هذا الفكر على أنه يخص الآخرين وأنه مستمد من بيئتهم وعلينا أن نقف في ضوء أصول فكرنا.

إن الفكر الإسلامي لم يستسلم للنظريات الوافدة ولم يقبلها أو يسلم بها تسليهاً مطلقاً بل كان معها حاسباً وكرعاً في نفس الوقت فهو لم يرفض كل ما قدم إليه ولكنه استصفى منه ما أضافه إلى كيانه مما لا يتعارض مع التوحيد ويخلص مما يتعارض معه.

لقد ظل الفكر الإسلامي دوماً وجيلًا بعد جيل يواجه النظريات الوافدة ويوضح وجهة نظره ولا يتوقف عن المعارضة وعن الاحتفاظ بذاتيته والانتفاع بالأساليب والمناهج والأطر.

- 11 -

من أبرز عناصر رسالة الــداعية إلى الله هــو كشف مغالــطات الغرب ودحضها وإعطاء بني وطننا وأمتنا العربية والإسلامية شيئين:

الأول: حقيقة الفهم لأراء هؤلاء الخصوم وكشف تعصبهم.

الثاني: عظمة ثقافتنا الإسلامية العربية والكشف عنها وعن آثارها في مجال العقيدة والتاريخ واللغة.

وقد تأخر هذا العمل بعد مرحلة من العمل في مجال الأدب والفكر على نحو أحرز ثقة القارىء بالإنصاف. وبعد أن أتمت موسوعة (معالم الأدب العربي المعاصر) أحسست أنني لم أكن أقصد إلى هذا العمل بالمذات وإنما العمل الحقيقي الذي كان يختفي خلفه والذي برز بعد هو مواجهة الشبهات والتحديات التي طرحها التغريب والاستشراق والتبشير والغزو الثقافي في أفق الفكر الإسلامي وهو موضوع ضخم قدرت ما يمكن أن يكتب عنه بما لا يقل عن تفرغ كامل وعندما بدأت (١٩٦٣) كان أمامي ما لا يقل عن خمة آلاف جذادة، تمكنت من جمعها خلال سنوات منذ ١٩٥٩ وأمامي ما لا يقل عن ٢٥٠ كتاباً للمراجعة (هذا ما كتبته للدكتور زكي علي في ١٩٦٤/٨/١٤).

وكان في خاطري أنه يجب أن لا تستغرقنا التضاصيل والتخصصات والفرعيات وأن نظل دائماً قادرين على امتلاك ناصية الأصول العامة والمسائل الرئيسية والمواقف الأساسية، وجمع الخطوط الكبرى في تكوين متكامل يجملنا قادرين على النظرة الكلية الدائمة وذلك هو مفهوم التكامل الجامع الذي علمنا الإسلام إياه.

وكان علينا أيضاً أن نكون قادرين على استيعاب كل دراسات التخصص والفرعيات والتفاصيل الجديدة والمتجددة دوماً حتى نستطيع أن نكون واعين لأحدث مستحدثات الفكر والفهم دون أن يجعلنا ذلك متخصصين ننفصل عن القضية العامة وعلينا أن نتفع بمطيات التخصص كلها في الفروع المختلفة لحدمة الفكرة الإسلامية العامة.

وأستطيع أن أقول أنني عشت مرحلة نقد المجتمع من 1940 - 1900 ثم عشت مرحلة معالجة الواقع 1900 - 1978 وفي هذه المرحلة تساولت قضايا الوطنية والقومية وهي مرحلة تقبلت فيها بعض المفاهيم المطروحة قبل أن أعرف خفاياها التي اتضحت لي من بعد.

ثم بدأت مع ١٩٦٤ مرحلة جديدة لتصحيح المضاهيم بعد سيطرة الشيوعة على الإسلام وفي هذه المرحلة استطعت أن أكشف كثيراً من الحفائق فضلًا عن أن الدعوة القومية والإقليمية كانت قد قدمت حقائق خطيرة. ذو القمدة ١٣٩٨

الباب الأول ستخوات ما قبّت لالدعوة

كانت صلتي بالدعوة الإسلامية امتداداً لما قبلها من ناحية وفاصلاً لما والعصل بها قد تحولت لخدمة هدف واضح عدد: هو الدعوة إلى الله والعمل في سبيل أن تكون كلمة الله تبارك وتعالى هي العليا وقد تخلت النفس عن كل في سبيل أن تكون كلمة الله تبارك وتعالى هي العليا وقد تخلت النفس عن كل مفاهيمها ومطامعها وأهوائها التي كانت تحاول أن تجعل من أمثال: التابعي وفكري أباظة وغيرهما توزجاً وأصبح القلم أمانة لحدمة الهدف الأصيل الحالد حين هبوا للدفاع عن الحتى والكشف عن الزيف وتحرير المفاهيم وتصحيح حين هبوا للدفاع عن الحتى والكشف عن الزيف وتحرير المفاهيم وتصحيح ترجمة الفلسفة اليونانية وما أصاب الفكر الإسلامي خلالها من اضطراب نتيجة ترجم المفاهيم والمن عند مريان مفاهيم المادية والغنوصية والتحلل والإباحة والفكر الباطني على النحو سريان مفاهيم المادية والغنوصية والتحلل والإباحة والفكر الباطني على النحو الذي قدمه الشافعي وابن حنبل والغزالي وابن تيمية وأين نحن من هؤلاء.



الفصل الأول

خطوط عامة

كان جدي لوالدتي قاضياً شرعياً يشتغل بتحقيق التراث وكنت أراه وهو يكتب على أوراق من الكاغد يجعل لها إطاراً بالحبر الشيبني الأحمر ويكتب في داخلها بالحبر الأسود ما عدا العناوين فيجعلها بالحبر الأحمر أيضاً.

وكان أبي يشتغل بتجارة القطن ولكنه كان حفياً بمتابعة الأحداث الوطنية والعالمية وللذلك كان بيتنا معموراً بالصحف والمجلات وصور الأبطال وأمثال عبدالكريم الحطاني زعيم حرب الريف وأنور باشا القائد التركي الذي اشترك في حرب طرابلس الغرب.

وكنا نعيش في عطور مقدمة ابن خلدون، وإحياء علوم الدين للغزالي وتفسير الجلالين وفقه الإمام مالك وسيرة الشيخ أبو الحسن الشاذلي.

وقد ذهبت إلى الكتابُ ثم رأى الوالد أن يستقدم لنا شبخاً أنا وإخوتي يحفظنا القرآن في البيت وكان بلدنا (ديروط) من أجمل بلاد الصعيـد حيث تشقها ثلاثة روافد من الماء: الإبراهمية وبحر يوسف، والدلجاوي .

وكنا نخرج في المساء جماعة من الشباب نفل السير طويلاً بجوار الإبراهمية ونتكأ هناك على بعض القوارب، نقرأ عن ظهر قلب (رواية ماجدولين) للمنفلوطي حيث ترجمها بقلمه الرائع، ومن المتفلوطي انتقلنا إلى الزيات والرافعي (مدرسة البيان العربي الحديث).

وكانت (ديروط) بلدة جديدة على التاريخ تحاول أن تفخر بأسهاء من ولدوا فيها وكان فخرها شديداً بمولد شاعر النيل حافظ إبراهيم على ضفافها فقد كان والده مهندساً في بناء قناطر ديروط التي يتفرع عنها (بحر يوسف). ولذلك فإنه عندما أعلنت مجلة (أبولو) التي كان يصدرها الدكتور أحمد زكي شادي عن إصدار علد خاص عن شاعر النيل بمناسبة وفاته عام ١٩٣٣ (وكنت حدثاً في السادسة عشر) جردت قلمي لكتابة كلمة عنه باسم واحد من أهل ديروط التي ولد على ضفاف إبراهميتها شاعر النيل وكان ذلك موضع فخري بالكتابة في جريدي البلاغ وكوكب الشرق قطفاً متناثرة ولما أكن بعد قد عرفت طريقي إلى أين، ولكني عوفت القلم منذ ذلك السن المبكر وكانت عضاك مقالات موضع إعجابي في الهلال والسياسة الأسبوعية وكانت ديروط قد خرجت من دور تاريخي حيث اندلعت بها ثورة ١٩١٩ وشاركت فيها برجالها الذي قاتلوا الأنجليز وحوكموا وشنقوا.

ومن حيث خرجت من بيتنا الذي كان يشرف على باحة واسعة من الحقول الخضراء بجدها شريط القطار الذي كنا ننتظره بشوق ولهف لنرى وجوه القاهريين المسافرين إلى الأقصر وأسوان ونترقب الصحف وفي مقدمتها جريدتي البلاغ والسياسة الأسبوعية ومجلة الرسالة، وقد بدأت أجرب خطواتي في عالم الكتابة فكنا نراسل هذه الصحف وغيرها وكان الدكتور زكي مبارك يوصينا بالتريث والقراءة والاستيعاب وقد مرت أيامي في الدراسة مع العمل المبكر في بنك مصر وواصلت الالتحاق بالجامعات الخارجية بالمراسلة حيث كانت الكتابة الأدبية والعمل الصحفي تغلب خطواتي.

وفي مطالع الشباب كانت أوقاني مقسمة بين مجالس العلم وحلقات الذكر، أما حلقة العلم فكانت بالمسجد الكبير من بين صلاة العصر إلى صلاة المغرب حيث كان هذا الشيخ الجليل بحدثنا عن أصول العبادات والمعاملات، أما حلقة الذكر فكانت تعقد بعد صلاة الفجر حيث كنا نخرج في الغلس إلى المسجد القريب فندير الساقية التي ترفع الماء من البئر إلى الصنابير ثم نصعد إلى المأذنة فنؤدي الابتهالات التي يسمونها المبادرة قبل أذان الفجر فإذا صلينا انتظمنا في حلقة الذكر حتى تطلع الشمس.

وكنا نتطلع إلى العلماء في بلدنا فنزورهم في منازلهم نسأل عن الكتب فإذا اتجهنا شرقاً فإلى عيادة الدكتور أمين إبراهيم نسأل عن مقدمة ابن خلدون · وإذا اتجهنا جنوباً فإلى بيت الشيخ بكر نسأل عن صحيح البخاري وإذا اتجهنا غرباً فإلى بيت الشيخ طه نسأل عن كتب الفقه.

ولكنا كنا نقراً فلا نفهم إلا قليلاً، وكان يغلب على المزاج: الأدب والكتابة الذاتية ونحاول أن نربط أنفسنا بالقاهرة في طموح بالغ إلى العمل بالصحافة وكان الأستاذ محمد إبراهيم الديروطي صاحب جريدة الأماني القومية قد أغراني بالعمل معه فغافلت أهلي ذات مساء لأركب قطار منتصف الليل إلى القاهرة لألتحق بالعمل معه لولا أن من أودعته حقيبتي وشا بي إلى الوالد الذي اقتنصني قبل أن أهم بقطع التذكرة والذي وعدني بان يصطحبني إلى القاهرة في إجازة الصيف وهناك التقينا بالدكتور زكي مبارك في محل (أسدية الحلوالي) حيث حطم مطاعي في الممل بالأدب أو الصحافة مصر وكان من فضل الله تبارك وتعالى أن تأخرت في الريف عشر سنين قبل أن أتخرت في الريف عشر سنين قبل أن أتأخرت في الريف عشر سنين قبل

وكانت هذه الفترة قد صهرتني وأعادت تشكيلي النفسي وحولتني من هدف وهمي إلى هدف أصيل حيث اختفت مطامع الكتابة الأدبية وزخرف الصحافة الرخيصة وبرزت الوجهة الإسلامية الحاسمة.

نعم كانت السياسة الأسبوعية، قد نشرت ملخصاً لذلك الكتاب الذي أصدره هاملتون جب (وجهه الإسلام) في ذلك الفصل الذي كتبه الدكتور محمد حسين هيكل الذي كان انتهى لتوه من نشر فصول كتابه (حياة محمد) في ملاحق السياسة وكنا تنابعها منذ اليوم الأول ونبش لها وكان ينشرها مترجمة عن كتاب (إميل درمنجم) ولكنه لم يلبث أن أضاف إليها وعدلها ولم تكن مترجماته عن درمنجم إلا مقدمة لها.

ولم يكن الدكتور هيكل غريباً على فقد كنت أدمن قراءة الهلال والمقتطف وكنت شغوفاً بمقالة له نشرها تحت عنوان (النور الجديد ـ أيان يكون مطلعه) تنبأ فيها بالصحوة الإسلامية التي سيشرق نورها على العالمين بعد أن فقدت الحضارة الغربية هدفها الروحي وغرقت في المادية وكنان ذلك عام 1971 وسنى قريباً من العشر سنوات وقد نشر بعد قليل من سقوط الخلافة الإسلامية وتطلع المسلمين إلى أفق جديد ربما تمثل في رسالة المدكتور السنهوري عن ما يسمى عصبة أمم إسلامية بديلاً عن الخلافة وهو ما تطور خلال أربعين سنة إلى المؤتمر الإسلامي والتضامن الإسلامي.

وقد هزني حقاً ما أورده في مقاله الخطير الذي لخص به كتاب (وجهة الإسلام) الذي كتبه المستشرقون الخمسة وعلى رأسهم هاملتون جب والذي كشف خطه الاستشراق في تغريب الإسلام والمسلمين من خلال هذه الدراسات الدراسة. وكان هذا الكتاب هو نقطة التحول في وجهتي من الدراسات الأدبية الخالصة إلى العمل من أجل مقاومة الغزو الاستشراقي والتغريب وكان هذا كله سؤال ظللت أبحث للإجابة عنه حتى التقيت بالإمام الشهيد حسين البنا الذي صحح إسلامي وإسلام عشرات الألوف من المثقفين حين فهمنا منه ولأول مرة أن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع، وأننا مطالبون بأن نستعيد تطبيق شريعة الإسلام في مجتمعنا لله خالصاً وهي التي حجبها النفوذ الاستهاري، وأن نوفض الحفارة الغربية لفسادها وإن كنا نقبل منها الجانب العلمي والتجريبي لنضعه في إطار مفهومنا الإسلامي الأصيل.

لقد وجهنا الإمام الشهيد حسن البنا إلى الدعوة إلى تصحيح المفاهيم وتحرير القيم في سبيل بناء المجتمع الإسلامي على منهج القرآن وعن طريق هذا الفهم استطعت أن أجد الإجابة على كل الاسئلة التي كانت تملاً على مشاعري وكان ذلك هو منطلق عملي الذي ما زلت أواصله منذ أربعين سنة وبعد هذا العمل الذي بين يدي القارىء هو ثمرة هذه الوجهة وهذا المفهوم، هذا وبالله التوفيق.

وقد جعلت وجهتي إلى تأصيل المفاهيم وتحرير القيم من النيارات الوافدة والكشف عن المصادر الزائفة والمغالطات التي تحاول أن تجعل للفلسفة اليونانية وما يتصل بها من فكر باطني ووثني من بقية تراث المجوسية القديمة لإحيائه مرة أخرى على نحو مختلف.



الفصل الثاني

الكتابات الأولى

منذ أربعين سنة أو على وجه التحديد عام ١٩٣٧ نشرت أولى كلياتي في البلاغ وأبولو. كانت كلمتي في البلاغ في الصحيفة الأدبية التي ينشر فيها لطفي جمعة وزكي مبارك وعبدالله عفيفي وسلامه موسى والفضل يذكر لذويه فقد كان الاستاذ إبراهيم المصري هو الذي التقط هذه الكليات البادئة فأولاها الاهتمام. أما أبولو فقد أعلنت عن عدد خاص عن حافظ إبراهيم ولما كان يتولى بناء قناطر ديروط فقد رأيت في هذا السن الباكر أن أشارك عن البلد يتولى بناء قناطر ديروط فقد رأيت في هذا السن الباكر أن أشارك عن البلد التي ولد فيها بكلمة، اعترازاً بجولد شاعر النيل في بلدنا ولقد ظلمانا وقتاً طويلاً نفاخر إخواننا في البلاد الأخرى بهذا الميلاد فكانوا يقولون إذا كان المنفلوطي قد ولد في منفلوط والرافعي في طنطا وزكي مبارك في سنتر يس وطه حسين في عزبة الكبلو بجوار المنيا والعقاد في أسوان فإن ديروط قد أحرزت شرف ولادة حافظ إبراهيم شاعر النيل.

ولا ريب أن هذه الكليات الأولى منذ أربعين عاماً ترسم نقطة البدء لطريق طويل له مراحل ومنعطفات وعلامات ومواقف.

وأن نظرة سريعة إلى ما وصل إليه القلم اليوم من وضع وما يتصل به من اهتهامات ليسخر أشد السخرية بكل تنبؤات الخيال وتوقعاته في نلك الأيام فقد جال القلم جولة طويلة، وتحول تحولات كبيرة، واقتحم مواقع عدة، وجرى أشواطاً موفقة وأشواطاً أخرى منحرفة حتى بلغ مكان الذي يكتب منه اليوم هذه الكلهات. لقد كانت النظرة الأولى ضيقة ساذجة غريرة: نـظرة سن تنظر فيـه العيون ولكنها لا ترى شيئًا: سن السادسة عشرة.

فكيف بهذا بعد أربعين عاماً: نظرة المسئولية والالتزام والتقدير الكامل لأمانة القلم كانت نظرة المجال البسيط المحدود: كلمة تسري عن النفس أو تخفف عنها عبء الأحلام الغريرة في مواجهة الواقع المرير، كلمة النفس المشوقة المتطلعة إلى آفاق الحياة ومتاعها من أجل تأكيد الذات، أو الإحساس بالسعادة، أو الذكر الحسن. كلمة عابرة تقال، ومن حولها شعور باللامبالاة بشيء، حيث تجري الأمور رخاء، وكل ما فيها يسير إلى غايته.

أما اليوم فقد اتسعت الأفاق: أفاق المعرفة.

وتعمقت المسئولية: مسئولية الكاتب وأمانته.

وانكشفت الأبعاد: أبعاد الأخطار التي تحيط بالأمة وفكرها. فليست الأصور رخاء كما كنا نظن، وليست رسالة القلم كلمة عابرة، أو متاع وطموح.

* * *

عندما أتصور في خاطري كيف بدأت أجدني أجتر نفيي وأسجل عواطفي ومشاعري، وأنظر حولي فلا أجد إلا دنيا صغيرة، وفكر محدود، وتصور ساذج لدنيا تعج بالاخطار والتحديات، ومن حول مصر استعمار وتبشير واستشراق وتغريب وصهيونية نامية وكلمات ذات بريق وهي تخفي السم، وأسماء تلمع وهي من صنع الغاصبين، وصحف ذات دوي وهي خادمة للولاء الأجنبي، ومذاهب وافدة وأخطار وأهوال...

لم أكن أرى تلك الأبعاد، البعيدة، ولم أخترق بعد تلك الأنعاق الواسعة، كنت في حدود النظرية التي تقول: أن بسطاء الناس يتعلقون بالأشخاص، وأكثر منهم وعياً يتعلقون بالأحداث وهناك من تنضجه الاحداث فيصل إلى الامتياز: حيث تشغله الأفكار والقضايا.

وأعتقد أني قطعت هذه المراحل حقيقة، كانت تبهرني الأسياء اللامعة والشخصيات ذات الدوي وكان البريق، والأضواء، يبهر النظر ولقد عايشت (تراجم الأعلام) سنوات وسنوات حتى فهمت أسرار البطولة ومصادر العظمة في الشخصية الإنسانية.

ثم انتقلت إلى الانبهار بالاحداث والمواقف، وبالتاريخ والوقائع ومضيت أدرسها سنوات وسنوات، وأذهب شرقاً وغرباً في سير الأمم والدول والانقلابات والثورات حتى استطعت أن أفهم قوانين المجتمعات وخلفيات الاحداث ثم انتقلت بعد إلى القضايا الكبرى، إلى المذاهب والأيدلوجيات والنظم والقضايا المصيرية، الحاكمة ومعضلات العصر.

ولقد كنت أكون ـ في كل هذه الحلقات والدوائر التي تتسع ثم تتسع ـ مضلاً أو غدوعاً أو واهماً، أو جارياً وراء الفلسفات والتحديات التي تشد المفكرين وراء التحولات ذات البريق، أو التغيرات ذات الدوي، لولا أنني قد رافقت خلال رحلتي هذه الطويلة كتاباً واحداً / هادياً/ هو القرآن الكريم هو منطلق الفكر الرباني والمصدر الإنساني الوجهة ودليله وضوءه وهاديه، وعليه يجري التحاكم مع مئات الألوف من الكتب والمذاهب والدعوات وبه يجري المفاصلة الحقة، فهو في كفة وحده ومعه كل ما يتصل به أو يجري بجري المناص ضوءه وفي الكفة الأخرى ركام البشرية وحيرتها وضلالها.

إن الخطوات التي يخطوها الكاتب الطلعة معتمداً على عقله وحده، أو ملتمساً هداه من نيتشه أو فرويد أو هوجو أو روسو أو ماركس، هذه الخطوات لن تدفعه إلا في تيه الفسلال والوهم وتصل به إلى الظلمات المرتكسة، التي تملأ القلب فتقله، وإلى العقل فتضله وإلى النفس فتجعلها تعيش في الحرج والقلق والتمزق دون أن تجد بعد غرجاً أو منطلقاً إلى نور أو هدى.

وإن الذين صادفهم سوء الطالع فألقى في أيديهم هذه الكتب في مطالع الشباب فلقد تبدد أمنهم وبعدوا عن الطريق وضلوا في تيه الصحراء، لقد بدأنا جميعاً على كلمة الله حفظناها في الكتاب وعرفناها في المكتب وسمعنـا صداها في البيت ورأينا ظلها في قدوة الأب والأم والمعلم والرائد.

غير أن بعضنا أعرض وتقاذفته الموجة العاصفة، بعد أن ألقيت في يديه
بعض القصص المترجمة أو بطولات الغرب، أو كلمات حكيا، وفلاسفة لم
يعبشوا في أرضنا ولم يلتمسوا قضايانا ولم يفهموا روحنا ولم ينطقوا كلمتنا،
تلك التي وضعها التغريب في أيدينا لينقلنا من هدى التوحيد إلى ضلال
الوثنية، ولقد سقط إخواننا ولم يجدوا نوراً.

قد ينتقل البصر من فن إلى فن، ومن أسلوب إلى أسلوب، وكلما ازداد البحث عمقاً اتسعت الأفاق وبدا أن الفكر الإنساني بحر متلاطم، عميق مهيب، وأن الخوض فيه مخوف مرعب.

ولكن ضوءاً كاشفاً لم يلبث أن ومض في أعهاق القلب، فنحول الخوف إلى أمن والظلام إلى نور والضلال إلى هدى، والقلق إلى أمن، كان ذلك الضوء خاطراً من هدى الله، إنك لن تجد طريقك إلا بمصباح السهاء ووحي النبي، ومن خلال النص الخالد الموثق: القرآن، فالتمس به الطريق فسوف لا يصعب عليك شيء وسوف تفهم وتستوعب وتهتدي إلى الحق المبين.

إن هناك كتاباً حجزوا أنفسهم في أقاع السمسم فيا شاهدوا إلا قطاعاً واحداً من الفكر لم يعدوه فكانت نظرتهم قاصرة، لم يستطيعوا أن يستشرفوا الصورة الكاملة فعاشوا في حدود الأدب أو الوطنية أو الأقليمية أو القومية الملجردة، وكان أكبر خطأهم أنهم نظروا بعين الغرب المجزئة، واعتنقوا منهج الانشطارية الوافد وغفلوا عن المنبج العربي الإسلامي الذي يؤمن بالتكامل والنقاء المناصر في وحدة واحدة، هي الإنسان وما كان لهم أن يخرجوا عن سجن الجزئية إلا أن يخرجهم الله بإيمان أعمق ونظرة أوسع وضياء من القرآن.

وفي خلال أربعين عاماً خاض القلم معوفة ضخمة وفي كل يوم كانت تنكشف في حقائق جديدة، وتفيض مسلمات كاذبة كانت تطرح على أنها هي الحقائق وما دونها أباطيل. في مجال القراءة والكتابة والرحلة ولقاء الناس والتجربة مع ارتفاع السن
 تجدد كل شيء، وتغير كل شيء، تجدد من حيث أنه التقى بالأصالة، وتغير
 من حيث أنه النمس الجذور، وأضاء في النفس ضياء الفطرة والإيمان.

فقد كان التطلع في التهاس الحق إلى الله وحده واهب الضياء، وخف الإعجاب ببطولات زائفة، وانكشف من وراء أحداث ضخمة، أهمواء وأكاذيب، وبان كيف عاش أناس أعواماً وقروناً على أضاليل وأوهام، سرت مسرى الحقائق وتشكلت حولها آداباً وأخلاقاً وتقاليد، وهي في أصلها زائفة وفي أعماقها ضالة.

كانت نظرتنا محدودة بالأدب القومي ولم يكن الأدب القومي إلا الأدب الإقليمي وكانت فكرتنا تقف عند حدود مصر ومجال الوطنية وقد غفلت عن مفهوم الأمة الإسلامية.

وكانت ثقافتنا قاصرة على الأدب الحديث وقد جهلت روابطها واستمدادها من الأدب العربي والفكر الإسلامي الذي هو منشئها والقائم عليها وكان مفهومنا التمصير للقانون والأدب واللغة وكان ذلك كله من صنع المنهج الوافد والفكر المستغرب والغزو الثقافي.

ثم نظرنا فرأينا امتدادنا في الأمة العربية هو الأفق الأوسع، وانتهاءنا إلى العالم الإسلامي هو البعد الأعمق.

وارتباطنا باللغة العربية لغة القرآن عـلى طريق الإســلام هو الســور العظيم الذي تتحرك من داخله الوطنيات والقوميات.

لقد تحول المثل الأعلى من النهاذج الفردية إلى الفكرة العلبا، ومن الزعامات المحلية إلى الوعامة والسلام الزعامات المحلية إلى الزعامة الكبرى، زعامة الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يعد الإعجاب بالناس لأنهم مشهورون أو في مناصب الحكم، بل أصبح الإعجاب بالبطولات المؤمنة التي تعرف حق أمتها وقيمها وربها.

كانت الصحافة موضع الإعجاب ثم تبين أن الصحافة لا بد أن تكون لها زسالة في سبيل بناء الأمة وإنشاء الجيل الجديد المؤمن. وكان هناك الاستعار البريطاني والفرنسي، ثم انزاح رويداً، لتنكشف من ودائه الصهيونية الضادرة في ضرباتها منذ ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧ كنا قد استكشفنا كلمة التغريب منذ ١٩٣٣ عندما كتب (جب) كتابه (وجهة الإسلام) ولكنا لم نكن نعرف مدى ابعاد التغريب في مجتمعنا العربي الإسلامي، من خلال التبشير والاستشراق والإرساليات والشعوبية والغزو النقاني.

كنا نظن الأدب هو كل شيء ثم تبين أن الأدب ليس إلا قطاعاً من الفكر وأنه حسب مفهوم الإسلام جزء من الكل المتكامل الذي لا تنفصل فيه الروح عن المادة والقلب عن العقل.

كنانت القراءة مضطرية فقىد وقعت في أيدينا بقايـا موائند الغرب وصراعات الفكر المادي الوثني، وصور التحلل وملامح الإباحة وكلهات الغير، بينها اختفى فكرنا وروحنا وتراثنـا واختفت قيمنـا وراء ركام من الأوهـام والأهواء.

أما اليوم فقد انكشفت طوابعنا وبرزت روحنا وأصبحت في أيدي الأجيال الجديدة نماذج من تـراثنا وقيمنـا تكشف الطريق الصحيح وتهدي الروح الحائر.

إن المسافة بين اليوم الأول، واليوم المتم للأربعين عاماً تبدو وكأنها شريط طويل، وطريق متعرج، حلقات ودواثر تبدو منقطعة ثم تتسع وتتسع حتى تذهب في أمواج البحر المحيط.

هي في البدأ كما تبدو الآن ساذجة بسيطة، متواضعة، محدودة، كأنها حجر في بناء ضخم، ومن ورائها الطموح والتطلع، والمشابرة والموالاة، والفراءة في كل اتجاه.

هي في البدأ كما تبدو الأن دعاية ولعبة، وهواية وتخطيط بعصا عـل الرمال لا هدف له ثم هو اليوم مسئولية كبرى وأمانة عظمى وجهد ومشقة.

هي في البدأ كما تبدو الآن كلمة واحدة، وخفقة قلب، ثم هي اليوم بعد التاريخ الطويل سفر ضخم في أكثر من عشرة آلاف صفحة. هي في البدأ كها تبدو الأن سطر في صحيفة أو مقال، وربما كتاب ثم هي اليوم بعد ذلك مكتبة تضم عشرة آلاف من كتب جمعت وقرأت.

هي في البدأ مقالة في سطور نشرتها مجلة أو جريدة وهي اليوم مئات المقالات في عشرات الصحف والمجلات وأبحاث تقرأ في الجامعات، ومراجع تذكر في مقدمات الكتب ونهايتها.

* * *

الفصل الثالث

سنوات التهويم

خرجت الفراشة من الشرنقة، بعد أن استقرت فيها حتى بلغت الثلاثين، وفتحت لها الآفاق إلى قلب الكنانة، إلى القاهرة بعد حياة الريف التي امتدت منذ ثارت في النفس رغبة الكتابة والتطلع، ومنذ هرب تحت جنح الليل يركب القطار إلى القاهرة في مجازفة سن العشرين الطموح والمستطلع إلى الغامض المثير، المندفع إلى الإقامة المجهولة بغير زاد، إلا من روح غنية بالإيمان، موفورة الثقة في الهجرة إذا ضاقت الأرض...

غير أن إرادة الحياة ردت المندفع حتى يستكمل، وأعادت الغض حتى ينضع، وحمته في ظلال الريف الحانية فترة أخرى، يقرأ ويتأمل وبعب من جمال الطبيعة، وخبرة الحياة، وينهض بأشق واجبات الحياة، في عمل مليء بالصراع والتجربة ومعاشرة الناس ودراسة الشيائل والأخلاق وقد فتع له باب الكتابة في الصحف التي تصدر قريباً منه فأينع اسمه ولمع، ودرب قلمه واستحصد، ومرن فكره على البحث والقراع، وتفتقت أمامه أساليب الكتابة ومفاهيم الأدب، وكاتب جولاته جولات المس القريب، في متاهات الفكر وقضاياه، ومعارك الصحافة والسياسة وهو يجري هنا وهناك، بين الخاطرة والقصة، والنقد والبحث، لا يعرف أي طريق يسلك ولا أي خط يعمق.

ثم احتواه طابع السن في حديث الداخل إلى الخارج، ومفى يرسم صورة قلبه، ومشاعره، إزاء الحب والحرمان والريف والعقوق، وكأنما ظن أنه لو فتح له الطريق إلى القاهرة لاستطاع أن يشقه غير حاسب حساباً لقوى كثيرة كانت تسيطر على الصحافة، ومفاهيم كثيرة كانت تطوى إليها ذوي الأقلام، وأن القدرة على التعبير، وسلامة الضمير، لا تكفي وحدها لأن يقول الكاتب الوطني كلمته، وإن وراء الصحف قوى أخرى من الحزبية والساسة والنفوذ الأجنبي، ما يفرض عليه أن يكون خديماً لها، موالياً، وأن يكون في ركب كاتب كبير أو زعيم، حتى يستطيع أن يظهر ويصل..

لم يكن يعرف هذا كله، ولكنه ظن أن صحيفة صغيرة تصدر في ورقتين وتطبع في روض الفرج مثلاً تستطيع أن تعطيه الشهرة، وغفل عن أنه كان في القاهرة إذ ذاك مائة صحيفة على الاقبل مثلها لا يقرأها إلا أصحاب الإعلانات القضائية وفقد الأختام وأن هناك ثلاث صحف أو أربع هي وحدها التي ترسم الصورة وتعطي الشهرة والمال معاً.

ومن هنا كانت الحيلولة دون وروده القاهرة في سن العشرين إلى سن
الثلاثين عمل مقدور ومحسوب في حساب المكانة التي ستتاح له حين يصل
ويكتب في إحدى خمس صحف كبرى لها مكانها في تقدير الناس، وفي
صحيفة يومية وفي ظل هيئة كبرى ترعى وجوده وتحمي كيانه لها طابعها ومن
حولها مجموعة ضخمة من القراء.

الفصل الرابع



لا أدري لماذا أمسكت القلم لأكتب. ثم كيف بحثت عن صحيفة لأنشر كلمتي، وأنا هناك من الريف لست متصلاً بأي أداة من أدوات الكتابة والنشر. كنت أعرف، كنت أحس أن في أعماقي عاطفة معينة أو إحساساً ما، وكنت أجد الراحة أن أفضي به للورق، حيث لم يكن ميسوراً لي أن أفضى به لأحد ممن حولي. لا أدري هل كان فكري قد تهيأ لأقول كلمة في نقد الأدب أو أقول كلمة أصور بها مشاعري وعواطفي. ذلك أنني حين أنظر اليوم إلى الطاقة العريضة التي أعيش فيها مفكراً أو كـاتباً، أدهش لسـذاجة الفكـرة الأولى لإمساكي بالقلم ومدى الأمل الذي كنت أعلقه على كتابة خاطره حول حادث في حياتي أو نفثه حول عاطفة ما. ربما كان خيالي يصور لي أن أكتب هذه الخاطرة كل يوم مصوراً إحساسي إزاء الحياة أو المطالعة أو الحب. حقاً؛ كم كان ضيقاً ذلك المجال أحس كأنما كانت مشاعري خانقة، كأنما تنبعث من فوهة مدخنة طويلة ضيقة إلى الفضاء الرحيب. كم كنت أحس بالراحة بعد أن أكتب الكلمة، النقمة على ضيق المجال في الريف، أو الفقر وقصور جناحي عن التحليق، كان إحساسي بأني أجد الحرية الكاملة حين أقول كلمتي الساذجة في نصف عامود، أو في سطور تمثل يوميات أو خواطر، كان ذلك عام ١٩٣٢ عندما كتبت الكلمة الأولى ساذجة بسيطة، تحمل إحساس الإنسان الحي الذي يريد أن يؤكد ذاته ويقول بين ألوف الأصوات العالية وأنا موجود» وقد تحول هذا المفهوم مع الزمن اليوم إلى «رسالة» ماراً بمراحل طويلة ووقفات خلال ثلاثين عاماً نما فيها العقل، وتأصلت العاطفة، وجرت تجارب وخبرات في مجال العاطفة والعمل والحياة والأدب. أي بعد بعيد بين تأكيد الذات وبين حل أمانة رسالة. أي بعد شاسع بين نفثة شعر وبين بين كلمة عاطفية وبين عمل لبناء أمة، أي بعد واسع بين نفثة شعر وبين رسالة فكر، ماراً بالأدب والصحافة والنقد والتراجم والتاريخ ونافذاً خلال التصوف والفلسفة والدين والعقائد. وجارياً من بين ثنايا المطالعة والدراسة والتجربة والرحلة، وقراءة مئات من آثار الباحثين ولقاء العشرات من المثقفين والدارسين في نختلف المجالات، ودورة كاملة بين فكر الغرب وفكر الشرق وبين القديم والجديد. وفي طريق عمد من التراث إلى الحضارة خلال ثلاثين عاماً تتصل في رحلة الفكر بين الفراعنة والإغريق والرومان والعرب خلال أكثر من خسة آلاف عام.

. . .

في مستهل ١٩٣٣ بدأت نفتات بين كلمة عاطفية وكلمة أدبية «حطام» لماذا كتبت تحت عنوان حطام، لعله تأثر بالمازن في عنوان كتابه: حصاد الهشيم أو قبض الربح. هكذا كانت كلماني تحمل الطابع المهوم المضبب حيث كانت الكلمات تخرج من قرية صغيرة بعيدة عن شريط السكة الحديد، ومن غرفة ساذجة بها سرير سفر، ومائدة صغيرة عليها لمبة جاز غرة خسة، والنافذة أمامها متر واحد، هو الطريق ومن بعده غدير ماء يلعب عليه الأطفال وتملأ منه النساء جرارهن.

ذلك وضعي على أحسن حال، بعد الحارة الضيقة، والمنزل المعتم سنوات، الكليات تخرج من نفس حزينة مليشة بالألم والغربة، والوحشة، متطلعة إلى العاطفة والمجد يتراءى أمامها أشباح حلوة باسمة، ولكنها كالنجوم بعيدة في أغوار السياء، ومن هنا أضفت على الكليات روح الياس والحرمان والأشواق المغلفة بالوهم من وراء سبعة عشر عاماً، وكأنما الحياة خضم عريض...

ذلك كان عنوان الكليات من بعد «في خضم الحياة» ويصدر عدد خاص عن حافظ إبراهيم في أبولو (بوليو ١٩٣٣) وفيه كلمة تحية من ابن البلد التي ولد حافظ على ضفاف نيلها «ديروط» هذه علامة الارتباط بدنيا الأدب. وإني لأذكر كيف حاولت من بعد أن ارتبط بجهال الدين الأنغاني فالتقيت مع آخر علم حي رآه وهو الشيخ عبدالقادر المغربي وعشنا ليلة نتحدث عنه وكنانما كان المغربي في تلك الليلة يصل بيني وبينه ويسلمني أمانته، كان ذلك عام ١٩٥٣ وقد توفي المغربي فيا بعد وأحسست أن صلة كبرى قد قامت بيني وبين جال الدين منذ عرفته وقرأته ولم يكن ينقص هذه الصلة شيئاً إلا أن أسمع حديثه من رجل رآه وحادثه، تلك علامات ساذجة من علامات الارتباط بالأعلام، وفي أعهاق الريف حيث الأمل في القاهرة يتبدد مع مرور السنوات التقيت بالشيخ محمد فخرالدين أستاذ المفاد في يتبدد مع مرور السنوات التقيت بالشيخ محمد فخرالدين أستاذ المفاد في أسوان في أول المقرن فقد جاء الرجل مهاجراً عام ١٩٩٤ من قابل الحرب العالمية على الإسكندرية وأقام في «القوصية» وبدأت بيني وبينه صلة روحية لفقد أحيني الرجل وقرأ بعض آثاري وتميى ياكنان تلميذه الأول في دنيا الفكر والصحافة.

هكذا كانت الصورة من بعيد، مغلفة بالضباب، ليست شيئاً إلا أن نقول الكلمة، أي كلمة، ماذا كان يجول في العقل أو ما جال في الصدر، أي دعوة، أي رسالة، أي عمل كبير كان يترقب لحظة البروز.

هل كان يكفي أن نجري مع النيار الجاري فنتحدث عن طه حسين والعقاد وهيكل والمازني، عن هؤلاء الذين كانت تلمع أسهاؤهم إذ ذاك في بريق خاطف يأخذ بالألباب، أم أن لنا فكرة نقولها أو كلمة نعلنها.

را كان لا بد من أن نلتغي بالرجل الذي يهزهذه النفس الفامضة الني تعيش أن الضباب، تريد ولا تعرف ما تريد، نعم لم تكن الكتابات التي تنشرها الصحف ولا الأبحاث التي تضمها الكتب، ولا تلك الأحزاب السياسية الصاخبة بمعطية النفس الرائدة شيئاً، هل كنت أريد كتابة كلمة عاطفية، أم قصة، أم مقال سياسي، أم نصف عامود، أم نقد أدبي، أم ترجمة لعظيم.. كل ذلك كان يجول في خاطري وعلا نفسي.. وقد أمضيت سنوات طويلة أكتب في كل هذه الأبواب، منذ عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٤٠ بين صحف الإندار والأفكار والوادي والقاهرة والأماني وأسبوط: تلك كانت مرحلة

قضيتها في مناقشات ومساجلات ولم تلبث أن تكونت مدرسة ديروط الأدبية تضم عبدالمتعال الهريدي وأنور الصناديقي ومحمد زكي محمود وأنور الجندي على صفحات جريدة القاهرة التي تصدر في طنطا عام ١٩٤٠.

وهي غير «مدرسة الأفكار» التي تزعمها صديقنا محمد محمود حمدان على صفحات الأفكار وكانت تضم وديع ميخائيل موسى وزينب عبدالرخمن محمد وأنور الجندي وكأنما كنت متصلاً بالمدرستين على بعد ما بينها من اختلاف طرائق البحث والدراسة فيهها.

أما «مدرسة ديروط» فقد كان طابع الريف واضحاً فيها، كتابها يعيشون تلك الحياة المتطلعة إلى المجد في ظل الأدب يدينون بالحب للرافعي أساساً فهو أستاذهم أو أستاذ أغلبهم (الهريدي وزكي) ولزكي مبارك مكانة وأثر وللمدرسة طابع إيمان بالتراث والفكر الإسلامي وبلاغة الأسلوب ومقومات أمتنا وأمجادها تبرز في كتابات الهريدي والجندي من بعد، والرصانة في العرض هي سمت أسلوب زكى الذي يجنح إلى ابن شبرمة وغيره من أعلام الأدب، أما الصناديقي فهو صاحب أعظم مكتبة في ديروط، كان الأدب بالنسبة له مصدر المتاعب مع والده الثري تاجر الأثاث المشهور، وهو القارىء الباحث الذي يمضى طوال يومه مكباً على كتاب، ولعل أبسط ما يصور هذه المرحلة في حياة الكاتب أنها مرحلة الاندفاع العاطفية المبهمة المهومة وراء مشاعر الذات والحب، ووراء نزق الجدل والهجاء في أقصى صوره، فلقد كانت تشغلنا إذ ذاك معارك السياسة وأهاجيها، وتدفعنا إلى أن نقلدها في خصومات تستمد وقودها من عبارات العقاد وزكى مبارك وطه حسين. . . ولقد وقعت سقطات مع زكى وحمدان، ننظر إليها اليوم في ضيق شديد وتمنى لو أنها لم تقع، وإن كانت النفوس قد غفرت هفواتها إلا أنها لا تزال تمثل اندفاعة القلم في سبيل الاستعلاء أو الغلبة بأسوأ وسائل الغلبة..

ذلك أن الإحساس بالبقاء في الريف، وانسداد الأبواب أمام الأسال المحلقة، وامتلاء النفس بالأزمة والضيق والحرمان كل هذا كان يدفع القلم إلى غير طبيعتة الأصيلة. فقد انطوت هذه الصفحة ومضت، وتكشف من بعد أننا كنا تحت ناثير مباشر لحياقات الدكتور زكي مبارك ومعاركه وكلياته القاسية، في مرحلة يتأثر فيها الكاتب الناشيء كاتباً كان له عليه إثارة فضل في خطاب رفيق أو دعوة

فإذا ما مرت هذه المرحلة تكشفت النفس عن طبيعتها الأصيلة وهي عازفة عن الكلمة المؤذية، كارهة لها، راغبة في أن تقول دائياً الكلمة الطبية، دون أن يفقدها ذلك قدرتها على الحق والنقد.

مون من يعصف دلك اللقاء العاطر مع الأستاذ الموجه المرشد، هنالك تذوب ثلك الفقاعات التي على السطح، وتتبدى الطبيعة الأصيلة نقية مشرقة، كالفضة، تشلالاً بضياء جديد من نور الحقيقة وهمدى الجهال والحير،... وتنظرى صفحة كاملة بخبرها وشرها.







إن نقطة البدء في الذهنية التي انبثقت في أعراقي منذ مطالع الصبا، كانت نقطة تحدي. هذه الفكرة ما زالت هي التي تدفعني إلى اليوم، كان ذلك وأنا في سن السابعة عشرة حينها هتفت أدعو إلى مذهب «الرجل الديني المدني».

كانت منابع هذه الكلمة تتصل بقراءاتي المتعددة لحملات التغريب، لم جوهر فكرنا العربي الإسلامي يوشك أن يتبدد أو يضيع أو يجنق عُلت ركام من الحملات العربي الإسلامي يوشك أن يتبدد أو يضيع أو يجنق عُلت ركام من الحملات العنيفة والصرخات المدوية في صحف ضخمة فخمة، ومجلات رائعة الطباعة، كلها مجندة لذلك العمل الخطر وتغريب الشرق، وإنماء حركة شعوبية تمتل، بالحقد والكراهية وتنفث السم وتضع مخالبها الحمراء الدامية داخل قفازات حريرية لامعة، ذلك النموذج الذي ظل الحقد يملأ نفسه وقلمه يجري على الورقة خسين عاماً، حقد قوامه تعصب ضد الإسلام والعروبة والقرآن والتراث والشرق والتاريخ واللغة. ولكنه مع ذلك ظل هادئاً دقيقاً يهر في رفق كل يوم طوبة، يراوغ ويخدع، ويرتفع ويبهط ويندفع ويتهاوت كالمعلب. مثابراً لا يكل ولا يمل، بنقل كلمة من صحيفة إلى مجلة إلى كتاب إلى عاضرة... يغلفها بكلهات الحضارة والمتجدد.

وغيره ثان وثالث، (سلامة موسى. طه حسين. إسهاعيل مطهر) وهم في مظهر الأمر مختلفون متصارعون، ولكنهم هدامون، ينتقلون من موضوع إلى آخر، ومن فكرة إلى أخرى، وقوام الهدف كله القضاء على «أساس» الفكر العربي الإسلامي ونخره والتشكيك فيه وإثارة الشبهات حوله، وتحويل الفكر عنه لأنه قديم وجامد وتراث العصور الوسطى ومعوق عن الحضارة والنهضة.

بدأت نظرتي تنكون عام ١٩٣٢. كانت الرؤيا أمامي ضعيفة، كنت -أحاول أن أقول بالاقليمية والأدب المصري ولكني كنت أرى أدبنا كله أدب ميوعة وضعف. حتى عام ١٩٤٠ عندما بدأت نظرتي تستفر على «صور»، و «فكره».

وبدأت أفهم عمق التيار الضخم.

ووقفت على محطة اسيوط أسأل إماماً كبيراً: هل قرا كتاب جب اوجه الإسلام، ولقد لفت نظري إليه الدكتور هيكل في مقاله الرائح، فأسرعت المتنائه. هنالك وجدت الحلقة المفرعة؛ هذا الذي يجري كله محاولة لتغريب الشرق، العرب، الإسلام، وعرفت المؤامرة الضخصة، وبدأت أقف في والمنو والمنو المتنافذ الفكري الأجني والمنو والمنو غياً أن أخوض في بح لم ثلاثون عاماً كانت وجهتي الأدب ولكني كنت لا أنسى ذلك الشيء الحفي الذي يتحرك في الأعماق، هذه الدعوة التغريبة في مدها وجزرها، في تحول وتطورها، في كتابت المشرين والمستشرقين والمستغربين، وكلها ننصب عا هدم: الإسلام واللغة العربية وتمزيق وحدة هذه الأمة وتحويلها إلى شيء مبه غامض ضائع تابع للفكر الغربي.

ولم تذهب كلمة «مذهب الرجـل الديني المـدني» منذ ١٩٣٧ ولكنم تحولت إلى المدرسة الوسطى ١٩٥٧ وإلى «البناء على الأساس» ١٩٥٩.

الباب الثاني الدغوة والرجث لالفُرآني



صححت إسلامى:

لقد نشأت أساساً في بيئة قاصرة عن فهم الإسلام فهماً صحيحاً. كان هذا الفهم قاصراً على أساس أن الإسلام دين عبادة ومساجد وأن السياسة منفصلة عن الدين ولم يمنع هذا الفهم القاصر الموروث من أن نضطرب في عيط السياسة الحزبية وتتقاذفنا أمواجها الصخابة، فتتصارع ونفترق ويصل هذا إلى أبعد الحدود في الخصومة والخلاف.

ذلك لأن الاستعار كان بحرص على أن ينقلنا من الجو الإسلامي الأصيل إلى جو مشيع بالشهوات والأثام والخلافات فيتقلص في أنفسنا ذلك المعنى الإسلامي الصافي الذي وصل إلى حدود ضيقة من العبادات الشكلية فكان قومنا جميعاً في حاجة إلى أن يصححوا إسلامهم سواء من اندفعوا في الاتجاه الجزي أو الاتجاه الأخر: اتجاه الزهادة والاعتكاف.

كلنا في حاجة إلى تصحيح إسلامنا:

وكذلك الذين اندفعوا وراء مذاهب الغربين والمبشرين والمستشرقين والذين خدعوا بآرائهم الإلحادية المارقة الخاطفة، فتتكروا للإسلام ولتاريخه وأمجاده ونظامه.

والذين ملأت نفوسهم مغريات الحضارة الغربية بآثامها وشهواتها فاندفعوا وراء مظاهرها وأضوائها واندبجوا في جوها الملبد بالمنكر والفجور وما وراء ذلك. وكذلك الذين فهموا الإسلام على أنه دين عبادة منفصل عن السياسة والاجتماع والاقتصاد والجهاد.

والذين فهموا القضية الوطنية هذا الفهم القاصر على التنابذ والتناحر وعاورة الغاصب والتطلع إلى كراسي الحكم ومعالجة القضية المصرية عن طريق المفاوضات.

والفهم القومي المحدود بحدود الوطن الضيفة والتعالي بهـذه النعرة المصرية أو الشامية أو العربية.

والفهم الاجتهاعي المندفع وراء تلك الحضارة الأثمة المتبرجة والذي كمان يعمل على تقبلها جميعها خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب.

والفهم الاقتصادي للإسلام القائم عملى القناعة بالقليل وترك الغنى والثروة لليهود والأجانب.

والعجز عن الدفاع عن الأوطان وحماية الثغور.

كل هذا كان في حاجة إلى تصحيح.

ً وكانت دعوة الإخوان منذ مطلع فجرها نوراً يهدي إلى الطريق وبلسم يشفي المريض ورياً للصادي وقوة تتقد إلى الجسد الضعيف فتوقظه وتحييه.

لقد قدمت الدعوة مقاييس جديدة في السياسة والاجتماع والأخلاق فقد نظر أصحاب الدعوة الإسلامية ومصنفيها إلى الحياة نظرة مستمدة من ديهم الكريم ونظامهم العظيم فأنكروا كل عرف يتعارض مع مثلها العليا.

هذه المقاييس ما تزال حديثة مع الناس وهي عباد النهضة الجديد ومطلع الفجر الصادق لذلك اليوم الأغر الذي ترقبه الإنسانية يطلع عليها م الشرق.

وجاء يوم اللقاء:

كنت إذ ذاك منصرفاً إلى بعض دراسات أدبية واجتهاعية حديثة يتصل بعضها بالحضارة الغربية وبالأفكار الجديدة التي بثها حولنا من سموهم كتاب العصر ممن تتلمذوا على بعض المستشرقين وكان قد طال بي المطاف حول هذه المعاني سنوات عدة وأخذت أتابع في عزلتي في الريف بعض صور الحياة التي تنشرها الصحف عن رواد الصالونات والمسارح عمن يدعون أنهم قادة الفكر وزعها الجيل فيأخذى العجب.

وأسائل نفسي كيف يمكن أن يستقيم الأمر.

وكنت قد اتصلت قبلاً بـالطرق الصوفية فلم تشف غليـل نفسي، المتطلعة إلى العلاج الواضح للفرد والجهاعة معاً وأخذت عليها روح الانكهاش والعزلة والقصور في الميادين العلمية.

واتصلت بالأحزاب فترة ثم انصرفت عنها كارهاً نـاقياً ممــا رأيت من أسلوب في الحوار أقرب إلى الهجاء.

أما الكتب القديمة فهي تقبض النفوس والكتب الجديدة لا هم لها إلا جوانب الإياحة وقصص الإثم وفصول التقحم على الإسلام وناريخه وكنت أبحث عن القائد والزعيم لهذه الأمة يردها عن هذا الطريق الذي كاد بجرفها إلى الهاوية وأسأل أين ذلك «المنهاج» فلا أجد من يدلني، فكنت طالباً يترقب أستاذه وجندياً يبحث عن قائده.

ثم سرت شوطاً طويلاً في دراسة التاريخ الإسلامي ولكن عـلى غير هـدى من غاية محددة أو وجهة واضحة.

فلها التقيت به أحسست كاني كنت أعرفه من قبل وقد استقر في نفسي منذ اللحظة الأولى وطغى على مخلفات عشر سنين من الرؤى والخيالات والمذاهب والأفكار. وجاء دوره على منصة الخطابة.

رجل هادىء يتكلم بلغة فصيحة بليغة سهلة الوصول إلى كل القلوب ترخي المثقفين ولا تعلو على أفهام المتوسطين والعامة، لا يرتفع صونه ولا يضرب بيده، ولكنه مع ذلك يأخذ بالألباب ويمال النفس تأثيراً ويثير في أعياقها إحساساً بالأمل والحياة ويفتح أمامها باب السعادة والرجاء في الاتصال بالله تبارك وتعالى.

رباه: لقد وجدت الأستاذ وعرفنا الهدف: أن المصباح الذي يحمله هذا الرجل قد كشف لنا عن الطريق فيا تردها وعورته ولا طوله وإنما نعرف أن الزمن كفيل بالوصول إليه وأن قلوبنا وأرواحنا رخيصة في سبيله.

ـ ۴ ـ

منذ اليوم الأول الذي التقيت فيه بالأستاذ حسن البنا كان الطريق قد انفتح أمامي للإجابة على الأسئلة الهامة التي كانت تدور في نفسي حول نهضة المسلمين وتاريخهم وعقيدتهم ومختلف مشاكلهم.

ولقد كان من أول ما سألته عنه كتاب هماملتون جب، وجهة الإسلام بعد أن قرأت ملخصه مترجماً بقلم الدكتور محمد حسين هيكل ثم يتبين لي أن هذا الأمر لم يفاجئه فقد كان قد أعدّ العدة لمواجهة تلك القضية الخطيرة التي أثارها جب وهي قصة تفريب الإسلام والمسلمين. وكان الاستاذ البنا قد ألف رسالة صغيرة متواضعة في حجمها ولكنها غنية في معطياتها تحت اسم (بين الأمس واليوم) تعرض لهذه القضية.

ولما أن بدأت أكتب في صحف الإخوان عام ١٩٤٦ كانت تلك هي قضيتي الأولى التي شغلت بها. جائبي ذات صباح الاستاذ عبده قاسم السكرتير العام للإخوان وأطلعني على كتاب صدر في ذلك الصباح تحت عنوان: (الإخوان المسلمون في الميزان) لكاتب ماركسي مضلل وأبديت رغبتي في أن أدحض أكاذيه وذهبنا معاً إلى الاستاذ البنا رضوان الله عليه، الذي أسعدتني كلماته وكانت منطلقاً لذلك الخط الذي مضيت فيه حتى اليوم في

مواجهة الفكر الوافد، وقد حملني الأمانة كاملة لدور رآني هو صالحاً لأدائه والقيام به وأشهدالله أنني ما توانيت لحظة منذ تلك اللحظة. وصدر كتابي (الإنحوان المسلمون في ميزان الحق).

ولقد انتديني أكثر من مرة لأواجه مراحل في تاريخ الوطنية المصرية كانت غارقة في التبعية والولاء الأجنبي، فنهضت بها ومن ذلك اليوم عرفت التردد على دار الكتب والبحث في الصحف القديمة ومواجهة هذه المواقف وعرضها على ضوء الإسلام، كانت كلهائي تحت عنوان «يجب أن تعلم» وأثارت ضجة كبيرة وكنت أطلعه عليها يوماً بعد يوم قبل أن تنزل إلى المطبعة فكان يضيف إليها ويجذف منها، وكنت إزاء ذلك أكشف تاريخاً مليئاً بالولاء الأجنبي لأحزاب كانت تدعى الوطنية.

ومن ثم جاءت دراستي الواسعة عن السياسة المصرية وعن قادتها وفي مقدمتهم سعد زغلول ولطفي السيد وعلاقة ذلك بالاستمار البريطاني وهي دراسة أزعجت دوائر الاستعار وكشفت عن حقائق كثيرة وكانت القنبلة التي تفجرت هي كتابي «اخرجوا من بلادنا» الذي أزعج السلطات البريطانية التي كانت ما نزال عام ١٩٤٧ جاثمة على صدر القاهرة فذهبوا في عنف شديد يصتادرون الكتاب، وقد أزعجتهم الصورة التي رسمها الرسام الدكتور عبدالمجيد وافي لجوال مسلم يلقي بالإنجليز في البحر الأبيض.

ولم أغفل عن أمرين في الدعوة:

أولاً: خطوات الإسلام الكاسحة في العودة إلى الأصالة وتكوين الأجيال الجديدة التي تفهمه على حقيقة منهج حياة ونظام مجتمع فكان كتابي (الإسلام يزحف إلى قواعده).

ثانياً: مهاجمة الحضارة الغربية والكشف عن زيفها ودمارها التي توشك أن تسقط فيه فكان كتابي (انهيار الحضارة الغربية).

ولكن الشيء الذي كان أهم من ذلك حقيقة هو مواجهة التغريب في حلقات متصلة.

الرجل

سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تغض 💎 فحسبــك مني مــا تكن الجـــوارح

دخل الدكتور عبدالنعم البهي قاعة المطالعة بمهد الدراسات العربية العالية للبحث عن نص وكنت موجوداً فيها فإذا هـو ييمم نحوي ويقتحم الحديث معي اقتحاماً قائلاً:

هلا كتبت سيرة الإمام الشهيد حسن البنا وأنت أهل لذلك وأعرف
 الناس به.

ودهشت إذ ما كنت أتصور أن هناك من يعرف صلتي بالإمام الشهيد وقلت ـ وأنا أسرح بخيالي ـ أترى ذلك؟.

قال: نعم، أنت أحق الناس بذلك لعمق صلتك بالإمام الشهيد. وأحسست أنها دعوة من الله تبارك وتعالى إلى آداء هذا الحق للرجل الذي هدانا إلى طريق الله.

وكانت الدنيا حالكة الظلام والدعوة تواجه أخطر امتحاناتها على يد حركة الجيش، من معتقل ومقتول، وكان لا بد من عمل شيء فكان أن جمعت آراء الأستاذ البنا ومناهجه وأعدت ترتيبها من جديد على نحو يشكل (أيدلوجية كاملة) ولما كان نشرها في مصر غير ممكن ونشرها باسمي غير مستطاع فقد عنونها بعنوان غامض هو (حسن البنا يتحدث إلى شباب الإسلام اليوم) وكان ذلك عام ١٩٦٥ تقرياً.

ولقد ظللت سبعة عشر عاماً وأنا لا أستطيع أن أؤدي حق هذا الرجل

على فقد كنت أكتب عن كل من حمل القيم وأتحرق شوقاً لأن أكتب عنه وقد كان من المستحيل الكتابة عنه أو إذاعة ما يمكن أن يكتب عنه حتى أرسل لي أخ مسلم من ناشري العرب فأخذت في إعداد هذه الدراسة ولكن بعد أن كتبت عن كل المجاهدين الذين عملوا في هذا الميدان وأنا أطوى في نفسي الشوق والحسرة على عجزي عن آداء هذا الحق للرجل الذي كان له أكبر الأثر في تكويني وتوجيهي إلى فهم الإسلام فها حقيقاً وشاء الله أن ينفسح المجال وأن تزول الغمة وأن أكتب عنه مؤلفاً يزدهي ويفوق ما كتب العقاد عن سعد زغلول وأن يتصدر أعلام القرن الرابع عشر.

مهمة الكاتب المسلم

ما هو التحول الخطير الذي أحدثته الدعوة الإسلامية لصاحب هذا التحل بعد فترة من القلم بعد أن اعتنق عقيدتها ومفاهيمها، لقد جاء هذا التحول بعد فترة من الاندفاع في الطريق المرسوم الذي وجدناه قائماً فلم يكن لنا إلا أن نتحرك في إطاره، نعم كانت هناك خلفية وجدانية تشكلت بعد الالتفاء بالرجل الذي حمل لنا هذه الدعوة ودخل بها إلى بيوتنا وديارنا ولم ينتظر حتى نسحى نحن إليه، ولكننا في هذه المرحلة كنا عاطفين ووجدانين لم نلمس بعد مدى الخطر الذي يجتاح بلادنا ويجتاح الفكر والثقافة والذي يتطلب منها اتخاذ موقف، كان الحطر كل الحظر، هو الكامن في التعليم والتربية والثقافة.

وقد مضت هذه السنوات القلائل قبل أن تأتي القارعة التي أطاحت بذلك الوجود الاجتهاعي المتمثل في هيئة قوية لها كيانها القوي في مختلف مجالات الاقتصاد والاجتهاع والصحافة والكتابة، فكان هذا الحدث بمثابة امتحان خطير لهؤلاء المؤمنين بالدعوة الإسلامية والذين كان عليهم أن يقاتلوا في سبيل تثبيت قيمها.

في هذه المرحلة بعد العاصفة كان يغلب علينا أمر واحد هو البحث عن مورد الرزق فكان علينا أن نختُلط بالمجتمع المغرب الملغم في كل جوانبه بألغام الغزو الفكري وكان علينا أن نمضي على هذا الطريق حتى نثبت أقدامنا وفي هذه المرحلة كمانت لنا أخطاء في متابعة التيار الغالب سواء في فهم الشخصيات التاريخية (أمثال السلطان عبدالحميد أو مدحت، أو الشخصيات المعاصرة) (أمثال غاندي ونهرو) أو بالنسبة لأناس عرفناهم من أهل العصر (أمثال سعد زغلول ولطفي السيد) أم من العاملين في الصحافة وعمن أسدوا إلينا بعض الخدمات (أمثال زكي عبدالقادر ومصطفى أمين) فقد اختلفت الهجهة.

ثم جاء الوقت الخطير الحاسم الذي فرض علينا أن ندع كل العواطف الخاصة والأهواء الشخصية، وأن ننظر إلى واقع الأمة من خلال مفهوم الدعوة الإسلامية، وإعادة تقييم الحركة الأدبية والفكرية والاجتماعية كلها منذ جمال الدين ومحمد عبده والاحزاب وتحرير المرأة ونحقق القضايا المتصلة بذلك كله، وإعادة تقييمها من وجهة نظر الإسلام.

وكان هذا هو المأزق الخطير الذي كانٍ لا بد للكاتب المسلم أن يقف منه موقف الحسم وأن يتجاوز عواطفه وصداقاته في بعض مراحل حياته السابقة.

ذلك أن مفهوم الدعوة الإسلامية لم يكن مجرد تصور يجري في ذلك الطريق الذي رسمه النفوذ الأجنبي والتغريب خلال أكثر من مائة عام ولكنه كان مفهوماً مختلفاً، كانت مقولة الدعوة الإسلامية بأن الإسلام دين ونظام مجتمع، ومنهج حياة، دين ودولة، سياسة وحكم تعرض مفهوماً مختلفاً لعشرات النقابا والمشاكل المشارة بل إنه يقدم تصوراً كاملاً بحملنا على معارضة النصور القائم الذي فرضه النهوذ الأجنبي منذ سيطر على بلادنا وأقام في داخل القوى الإسلامية لللان: المدرسة والمحكمة والمصرف والصحافة والمنافذة.

ومن هنا فقد كان على الكاتب المسلم أن يواجه خطراً مسيطراً هو (التغريب) والغزو الثقافي؛ وهو جملة ما حاول النفوذ الأجنبي عن طريق الاستشراق والتبشير إذاعته وفرضه على مناهج التعليم ومن خلال الصحافة ومن خلال الثقافة واللغة والقصة والمسرح وأدوات التسلية في حرب معلنة خطيرة قام بها النفوذ الأجنبي وأساها (حزب الكلمة) في محاولة لإخراج المسلمين من مفهوم الإسلام واحتوائهم في إطار الثقافة العالمية المسيطرة التي فرضها الغرب (بشقيه) على بلاد الإسلام والمستمدة عن الـتراث اليونـــاني والقانون الروماني، ومفــاهيم اليهوديــة والمسيحية التي تبلورت من بعـــد فيها يسمى (الفكر الماسوني) التي تصورها بروتوكولات صهيون.

تلك هي الصور التي عاشها الكاتب المسلم والتي كان عليه أن يجمل رايتها ويجارب تحت لوائها عمره كله، لا يترقف ولا يتردد ولا يتراجع وأن يجرد نفسه لها وأن يجعلها غايته الأولى والأخيرة. فهل استطاع الكاتب المسلم أن يفلح في أن يقوم بواجب العهد والميثاق للعقيدة الجامعة للإسلام بوصفه ديناً ودولة ومنهج حياة ونظام مجتمع.

يه اودوه ومعج حيه وللما جسع. وإحقاقاً للحق فإن الكاتب المسلم الذي بدأ يعمل بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٦ والذي تأكدت له مخاطر الغزو بعد سيطرة النفوذ الماركسي على اجهزة الإعلام والصحافة والمسرح في مصر بعد عام ١٩٦٢ لا بد أن يذكر بالتقدير والإعزاز الدور الخطير الذي قام به الأبرار الذين سبقوا على الطريق والذين فتحوا الأبواب أمام حركة التصحيح الإسلامية الكبرى.

فنحن لسنا إلا حلقة من سلسلة طويلة المدى تمتد منذ أيام ابن حنبل والشافعي والغزالي وابن تيمية والتي لم تقطع أبداً، وإن ضعفت في فترة من الفترات ثم عادت إلى الظهور.

ولقد كان يتمثل لي في ساعة من ساعات الفكر والتدبر قصة ترجمة النراث اليوناني في العصر العباسي.

الباب الثالث المرفت كة المضطرنية





الفصل الأول

المرحلة المضطربة

بعد أن شكلت الدعوة الإسلامية فكري وحياتي وأقامت لي منهجاً فكرياً وروحياً جامعاً على هذا النحو الذي تكشف عنه كتاباتي في هذه المرحلة السابقة، كان علي أن أواجه جواً عاصفاً مضطرباً كل الاضطراب.

صناعة القلم الموجه إلى أن تكون كلمة الله هي العليا قد فرضت نفسها علي في المرحلة الجديدة.

لقد وجهت إلى الدعوة الإسلامية ضربة قاصمة فأطاحت بهذه المؤسسة الضخمة، صحافتها ومؤسساتها ورجالها ووجهت إليها الاتهامات وأصبح هذا الرعل الأول كله مقسماً بين جماعة ينتظرون المحاكيات وجماعة محجوزون وراء الأسوار وجماعة اختاروا أن يهاجروا في سبيل الله ليفتح الله عليهم في ببلاد الإسلام الواسعة سبيلاً وذهبنا وراء الاسوار عاماً كاملاً ثم عدنا إلى الحياة نحاول أن نلتمس فيها رزقاً ومورداً.

وكان علينا أن نتأقلم مع المجتمع وصحافته وتباراته فها زال هو مجتمع الأحزاب السياسية المتصارعة في ظل الملكية المستبدة والنفوذ البريطاني المسيطر..

ولم يطل الأمر إلا قليلاً حتى حدث الانقلاب العسكري الذي قام به رجال الجيش، لقد كنا نتطلع إلى فجر جديد سيحدث في مصر منذ استشهد الإمام حسن البنا وزلزلت الأرض كانت الأمال ما تزال تملأ الصدور بعصر جديد، وكانت الدعوة الإسلامية قد مهدت الأرض لنظام يعلو فيه صوت الإسلام، دعوة إلى الحكم بكتـاب الله، وكانت قــوى كثيرة تعمـل، وكله طامعة في أن تحقق السيطرة على الوطن.

وكانت هناك صلات بين الدعوة الإسلامية ورجال الجيش، وقد قام الشراة من الإخوان بحياية الحركة ليلة بدأها وكان معروف أن طريقها هو طريق الإسلام.

ولذلك كانت فوحتنا بها كبيرة، وكان تأييدنا لها في المراحل الأولى بناء على هذه الوعود المعقودة على الحكم بكتاب الله.

ولكن القوم كانـوا يبيتون غـير ذلك، وسرعـان ما غـدروا وتكشفت خططهم عن تحول خطير في أسـلوب الحكم وفي مواجهة رجال الدعوة الذين عاهدوهم وآزروهم وكان لا بد من خطة تمكن هذا القلم من الاستمرار في دعوته وأمانته دون أن تصدمه الصدمات أو تعوقه المعوقات.

ونظرت فوجدت عشرات من القضايـا في حاجـة إلى دراسة وعـرض وتناول بعيداً عن القضية الأساسية التي توقف الكلام فيها تماماً.

وكان لا بد من الاستفادة من القنوات الجديدة التي فتحت في سبيل العمل لتجديد التراث الإسلامي ودراسة أعلام الوطنية والكفاح والنضال الوطني والقومي والإسلامي، ودراسة الحركات الإسلامية التي توالت منذ وعهد عبده على المهدي والسنوسي إلى جمال الدين ومحمد عبده والحزب الوطني وحزب الإصلاح والسلفيين وكذلك دراسة حياة وأعال عشرات من الأدباء والمفكرين والصحفين وكانت الدعوة إلى الوحدة العربية قد أتاحت لنا العمل على كتابة تاريخ الأدب العربي الحديث والمعاصر من الخليج إلى المحيط بعد أن كان يدرس إقليمياً في كل قطر على حدة.

وهكذا كان تاريخ الأدب العربي، ودراسة أعلام العرب مجالاً واسع أتاح لي فرصاً واسعة للعمل وتغطية شاملة، امتدت سنوات طويلة فكنت أواصل عملي في قلعة صلاح الدين حيث توجد دوريات الصحف، وهما ميدان خصب جدير بأن نختص به كل باحث ومفكر ولقد استطاع استدرام عدد كبير من المستفين إلى هذا المجال من هؤلاء الاستاذ أحمد حسين مؤسس مهر الفتاة والدكتور محمد صبري السربوني الذي جمع لأحمد شوقي أربعة آلاف بيت من الشعر كانت مبشوئة في الصحف (المؤيد، اللواء، العلم، الشعب.. إلى وكان من الضروري أن أدرس هذه الفترة من خالال الصحف لاكتشف هذه المرحلة الخطرة في تاريخ مصر والبلاد العربية والعالم الإسلامي منذ قدم جال الدين إلى مصر إلى اليوم واستطعت فعلاً أن أقدم في الإسلامي منذ قدم جال الدين إلى مصر إلى اليوم واستطعت فعلاً أن أقدم في حيث تناولت فيها مختلف المؤسسات التي كانت تحفل بالنشاط في هذا العصر والإهر والمدارس العليا، ومكاتب المحامين، ودور الصحف، والأطباء، إلخ) وأوليت الأدم الي خلفوها بين أهليهم، ثم اتجهت إلى أعلام الإسلام فأخذت أدس قمعها.

أما عملي في الصحافة فقد كان شيئاً غربياً كل الغرابة لقد التحقت بالصحافة اليومية، ولكني عجزت أن أحقق فيها تقدماً واضحاً، فبإني لم أستطع أن أنطوي مع أجواء الصحافة ولذلك ظللت سنوات طويلة على هامشها، لا أستطيع أن أحرز مركزاً مرموقاً فيها، ذلك أنني عجزت عن التحرر من القيم إلى شكلتني ففضلت أن أعمل في الأعمال التي لا تتطلب مني تعبير مفاهيمي وكانت الصحافة في ذلك الوقت ميداناً خطيراً حافلاً بالتيارات وكان على الذين يريدون التبريز فيه أن يكتبوا على الوجهة التي يطلبها الحاكمون.

لم أستطع أن أعق فطرق وعقيدتي ووجهتي فعشت في الظل طويلاً مجهولاً، لا أكتب إلا حول التراجم والأدب من خلال الاتجاه القومي الذي كان يذهب إلى غاياته وقد أفدت من ذلك أنني وسعت داشرة الأدب ودراسة الأعلام فجعلتها حول العروبة بعد أن كانت قاصرة على الإقليم.

⁽١) راجع: (صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر).

ولكن ذلك لم يمنعني من أن أكتب عن القومية العربية وأعالج مشاكلها وقضاياها ومستقبلها.

وهو عمل أظهرني أمام كثير من الباحثين على أنني من القومين ولكني فصلت الأمر في ذلك من بعد وكشفت عن الفوارق العميقة بين مفهوم العروبة القومي الأصيل الذي ظهر بعد سقوط الخلاقة وتبناه كبار الدعاة أمثال شكيب إرسلان ورشيد رضا وعب الدين الخطيب وهو مختلف تماماً عن المفهوم الذي سيطر من بعد وهو مفهوم ساطع الحصري وميشيل عفلق.

ولما سألني شيخنا العالم الجليل الشيخ عبدالعزيز بن باز قلت له: لقد كانت العروبة هي الطاقة الوحيدة المقتوحة لنا كمسلمين لتنناجي منها ونتحدث عن تاريخنا وقيمنا وتراثنا ولم يكن لنا نافذة غيرها ولكن الأمور لم تستمر طويلاً على هذا النحو فإن تجربة امتلاك الماركسيين للإعلام (صحافة ومسرح وإذاعة وتلفزيون) كانت قد فتحت ثغرة إسلامية في جدار الحكم فكانت مجلة (منبر الإسلام) هي الملاذ الذي لاذ به هؤلاء العاملون في الحقل الإسلامي في مصر في ذلك الوقت حيث رؤي أن يكون هناك تيار موازن.

ولقد اقتحمت هذا الميدان بقوة وكشفت عن المؤامرات التي تواجه الإسلام وبدأت أعاود الكتابة عن التغريب عام ١٩٦٣ بعد أن توقف ذلك الحديث منذ ١٩٤٨ (خمسة عشر عاماً) واتسع النطاق فواجهنا معركة الغزو الفكري وكان ذلك بمثابة استعادة للدور الذي وهبته قلمي فكتبت خلال عشر سنوات تفاصيل واسعة لمختلف القضايا الفكرية الإسلامية.

ولكني كنت حذراً خلال هذه المرحلة فكنت أكتب تحت عنوان (الفكر الإسلامي) وتلك مرحلة أكثر سعة وفسحة من مرحلة (الفكر العربي) التي سبقها ولكني في كل ذلك كنت أمضي في حدود الخطة التي رسمتها في المرحلة السابقة لم أخرج عنها وكان أبرز معالم هذه المرحلة:

أ**ولًا**: أنني وسعتها وعمقتها إلى أبعد مدى.

ثانياً: وهذا هو الأهم أنني نقلتهـا من دائرة الـوجدان والعـاطفة إلى

الدراسة العلمية (لا أقول الأكاديمية) ولكن وفق أسلوب الدعوة الإسلامية الجامع بين الوجدان والعقل.

فحياتي بهذا المعنى قد جرت في هذا المجرى الواسع لم أتخلف عنه ولكني رعا وقعت في خلال هذه الفترة الحرجة في أخطاء كثيرة ومتعددة ولكنها أخطاء حسن نبق، فلم يتغير القلب المؤمن بالدعوة الإسلامية والجهاد في سبيلها لحظة ولكن رعا شاءت بعض الظروف أن تدفعني إلى قبول التعاون مع بعض الأصدقاء في شأن هذا النظام الذي كان يظلنا والذي كان يقترض التضوية من أجل الاستمرار، فقد عملت مع الاستاذ أبو الفضل الجيزاوي في أعداد دراسة عن عبدالناصر وحركة الجيش جمعناها من كثير مما نشر في الصحف ونسقناها، وكذلك عملت مع المرحوم الاستاذ أحمد عطية الله في سبيل تنسيق القضايا التي أثارتها الحركة وكان من وراء ذلك أمرين:

الأمر الأول: أننا كنا نكشف عن زيف العصر الملكي والحزبي وقد توسعت في ذلك فكشفت عن فساد الحياة السياسية وتضارب الكتباب السياسين (العقاد وطه حسين وغيرهما) وتنقلهم بين الأحزاب.

الأمر الثاني: إننا كنا نتطلع إلى هذه القوة الجديدة على أنها ستحقق لهذه الأمة شيئاً مما كانت تتطلع إليه وتطمع فيه، وهذا الأمل سرعان ما تحطم وتحول الأمر إلى محاصرة كاملة للدعوة ورجالها.

ولقد كان من إيماني أن يكون هناك صوت متصل وإن لم يكن مرتفعاً بالقدر الكافي ليقول كلمة الإسلام ولو تحت أي اسم آخر، ولم يكن مطلوباً من اصحاب الدعوة أن يصمتوا جميعاً وراء الأسوار.

وفعالًا فقد استطعنا تطعيم الصحف البرسمية بكثير من مضاهيم الإسلام، وقد قدر ذلك إخواننا وراء الأسوار، فلم يكن هذا الموقف ممالأة للظالين أو نكوصاً عن العهود، ولكنه كان محاولة لكي يستطيع هذا القلم أن يستمر في إعداد هذا العمل الكبير الذي نشأ وتكون تحت اسم «الموسوعة الإسلامية».

وقد ظلت تلك طريقتي: الانتفاع على أوسع مدى بالمسموح، وأوجل الممنوع حتى تأتي الفرصة للتعامل معه، والمراحل تختلف بين القبض والبسط، والتعقيد والساح، ولقد كانت هذه المرحلة مظلمة شديدة القسوة فقد سيطر فيها الشيوعيون سيطرة كاملة، وأصبح الكلام عن الإسلام بمفهومه الحقيقي الناس بأولئك الذين استشهدوا، وقد علمتني الأيام عاولة التأقلم مع ما تتبحه الفترات المختلفة من وسائل في سبيل تبليغ كلمة الله دون الإجتراء على المنوع أو غير المسموح به، ودون بلوغ أقصى المراحل، فإني كنت بطبعي يكن ليؤدي إلى شيء إلا إلى شيء واحد، هو قصف هذا القلم أو تغييه لفترة قد تطول وقد تقصر، وكنت حريصاً أن أمضي في إعداد موسوعتي في هدوء، وأن أحمي وجودي من عوامل الاضطراب والقلق، حتى أتمكن من أداء واجبي وأن أحمي وجودي من عوامل الاضطراب والقلق، حتى أتمكن من أداء واجبي

وكنت أؤمن بأن كلمة الله (تبارك وتعالى) واسعة مرنة وقادرة على البقاء في كل العصور والاستمرار دون أن تصطلم بأي عواية لمنعها أو توقيفها، لأن النبقة في الأساس خالصة، ليس فيها مطمع من أي نوع كان، لا تتطلع إلى تسلط ولا تصدر عن خفه، ولا تطمع في ممنوع ولا ترغب في طفرة، وإنما تجري مع الزمن وتنمو معه حتى تستوي على الطريق شجرة مشمرة، كل المطلوب من الدعاة استمرار تبليغ الدعوة وإيقاء إيقاعها مستمراً في حدود المسموح به، والمتاح من الفرص، ما دامت الخطوط الأولى قائمة وهي أن دين الدولة الإسلام ولفتها العربية وأن الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي للقوانين، ما دام ذلك كذلك وهو مكسب كبير زاد عيا كان مع الدعاة السابقين نصاً جديداً عن الشريعة، فإن الأمور تكون مشجعة على تحقيق السابقين نصاً جديداً عن الشريعة، الإسلام وإقامة نظام الله الحق في المجتمعات.

ولقد طُلب إلي في فترة من الفترات الحرجة أن أكتب عن الدعوة الإسلامية فكان علي أن أصور المثل الأعلى الذي نتطلع إليه دون مساس بالواقع الذي كان غتلفاً اختلافاً شديداً وكانت كتابتي تمثل الحوار الذي كان يدور في أعماقي أحياناً لو أنني أتيح لي أن أجري (نقد الذات) للدعوة وربما عدّ ذلك في بعض التصورات خروجاً عن المعتقد الأصيل ولكني وجدت في الإسلام فسحة من التقية.





عايشت الأحداث بقلم متيقظ

في هذه الفترة (فترة ما قبل حركة ١٩٥٣) كان موقفنا موقف المقاومة الواضحة للنفوذ الاستعهاري والاستبداد الحاكم: خصومة واضحة صريحة للإنجليز المحتلين وكشف لمخططاتهم ودعوة متجددة لمقاومتهم وعرض واضح لما تلاقيه القوى الوطنية في (الأقطار الإسلامية) من عنت واضطهاد، ظهر ذلك واضحاً عندما صدر كتابنا (اخرجوا من بلادنا) الذي هز القوى المحتلة في القاهرة ودفعهم إلى مصادرة الكتاب وتقديم مؤلفه للمحاكمة.

كذلك فقد كان ما يزعج القوى الحاكمة، ذلك الاهتهام بالثورة العرابية وعمر مكرم وجمال الدين ومحمد عبده، فقد كان هذا يزعج القصر هذا فضلاً عن المقاومة الواضحة والكشف المستمر عن فساد الحزيية وبمالأتها للقصر والاستمهار وعجزها عن تحقيق آسال البلاد في الحرية والاستقلال: كان مؤلفا (بين لاطوغلي وقصر الدوبارة) و (تاريخ الأحزاب السياسية) واضحاً في تقديم الصور الصحيحة لموقف هذه الاحزاب من التضامن حول المطامع والمغانم وعجزهم عن مواجهة الخطر الحقيقي وهو النفوذ البريطاني الذي كان يجركهم عبعاً من وراء الستار.

فلها جاءت المرحلة التالية على غير ما كانت تطمح إليه الفكرة الإسلامية ولم يتحقق هدفها الذي سعت إليه عشرين سنة كاملة وحشدت له العقول والقلوب، كان الموقف من الكاتب المسلم أن يواجه القضايا الجديدة المثارة ويكشف رأي الإسلام فيها في الوقت الذي يتاح له ذلك فيه فقد استقلت الدعوة إلى القومية، وكانت في مطالعها مرتبطة بالإسلام ثم انحرفت انحرافاً شديداً حين احتضنت مفاهيم ساطع الحصري وميشيل عفلق وقامت الوحد بين مصر وسوريا على هذا الاساس حتى أنه رفع من دستور الوحـدة ماد (الإسلام دين الدولة).

غير أن التجربة لأنها انحوفت عن مفهوم الأساس فقد سقطت. وانهزمت تمامًا، وكان علينا أن نكشف هذا، كذلك فقد كشفنا هزيمة التجرب الغوبية ثم هزيمة التجربة الماركسية من بعد.

في خلال سبعة عشر عـامـاً من الانحـراف الخـطبر، فقـدت مصـ مصـداقيتها الإســلامية الحقيقيـة، ثم كانت نكسـة ١٩٦٧ علامـة عــل أد الخطوات العلمإنية كلها منذ أول المراحل كانت فاشلة وفاسدة.

فقد تحقق في هذا الموقف شيء واحد هــو احتلال إسرائيــل للقدم وانهيار الأنظمة القوـــة والعلمانية وفشلها.

كان سقوط النظام الملكي علامة على سقوط التجربة التي نقله المصريون من الغرب وكان سقوط القدس علامة على سقوط التجربة الماركس الشيوعة. وكذلك كان موقفنا من الغزوة الصهيونية واضحاً منذ اليوم الأول، م

ودعدت المواجهة وشهدنا قوافل المجاهدين وهي تخرج من المركز العام زاح إلى فلسطين لتواجه الصهيونية التي لم تنتصر إلا بالنآمر، والتي لو ترك لقوى المجاهدين المسلمين المدين كانوا يقتحمون أول مصركة لهم بمائه انضهم فه تبارك وتعالى لم حققوا أي انتصار ولكن القوى الغربية بالاشتر مع الأنظمة الفاسدة الحاضعة حققت الحدمة التي مكنت لهم بالبقاء، وكان خطتهم من بعد القضاء على القوة الإسلامية حتى يأمنوا الاستمرار وقد حقق لهم الأوضاع التي قامت من بعد هذا الأمل، فقد استراح السلطان الظالم الداخل، ووجدت إسرائيل حريتها في النهاء والتمكن، حتى حققت هزئ للعرب في معركة ١٩٦٧ واستولت على القدس وأقت ما بدأته عام ١٩٤٨ وكان لا بد للكاتب المسلم أن يرجم إلى الجذور، إلى دراسة واسا والشيوعية والصهيونية، وكان العمل في بجال حرب الكلمة أقوى الأعبال، فقد زحفت إلى آفاق الفكر الإسلامي والعربي دعوات ونظريات مسمومة من غنلف الجوانب، الاجتهاعية والسياسية والاقتصادية والتربوية التي فرضت على مناهج التعليم وعلى الصحافة والثقافة.

وكانت المؤامرة التلمودية المثلة في بروتوكولات صهيون قد صيغت في مناهج ثقافية وتعليمية مسيطرة من خلال دارون وماركس وفرويد ودوركايم وسارتر.

ثم كانت التجربة الشيوعية الماركسية التي سيطرت على الفكر الإسلامي العربي في مصر أكثر من عشر سنوات، استطاعت أن تمدفع سمومها إلى غنلف مجالات الصحافة والأدب والمسرح والاذاعة المسموعة والمرثية.

هذه القضايا المسمومة جميعاً كشف عنها النقاب وهوجمت جوانبها الفاسدة وكشفت أسام الرأي العام الإسلامي وكنان على الذين حملوا أمانة القلم أن يذهبوا إلى أقصى المدى فيكشفون عن زيف الاستشراق وسمومه ومؤامرات التبشير الغربي وغططاته وأن يكشف الموقف كله من النكسة وأسبابها وآثارها.

لقد كانت سيطرة الماركسيين على الإعلام والصحافة والمسرح عام المعالم والصحافة والمسرح عام المعال في مصر من أخطر الأحداث التي ألمت بصاحب هذا القلم وهزئه هزأ من الأعياق وفتحت له آفاقاً جديدة من العمل بعيدة المدى، فقد أخذت على نفسي أن أقدم عملاً حقيقياً يُختلف تماماً عن كل الأعيال التي كنت أقوم بها، كان على أن أعيد كتابة تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات في كتاب صدر تحت اسم (الإسلام وحركة التاريخ) وكان على أن أعيد صياغة القيم الاساسية في الفكر الإسلامي على نحو مكنني من بعد من تقيدم (معلمة الإسلام) في مائة مادة من مواد الفكر والتحديات عقائد وعبادات واختلاف ودراسات للعلوم الاسلامية.

ولما كنت قد أوليت الأدب العربي دراسة واسعة لتراجم أعلامه في غنلف مجالات: النثر والشعر والقصة، والمترجة واللغة العربية، والمعارك الأدبية وغيرها فقد كان علي أن أقيم تجربة الأدب العربي المعاصر في موقعه من وقصدت رأساً إلى رأس التغريب وعاموده (طه حسين) فقدمته في دراسة أقمتها على أساس المنهج العلمي كشفت فيها عن الأخطار التي أوقع هذا الرجل الأدب العربي والفكر الإسلامي فيها نتيجة تبعيته وولائه للفكر الغربي ومحاولته المتصلة خلال أكثر من خسين سنة في مختلف مجالات الفكر الإسلامي لتغريبه وإخراجه عن أصالته ومنابعه الحقيقية.

التبعية للأساليب الغربية التي وفدت إليه ومن ثم كشفت هذا الجانب

ولما كنت قد أوليت أعلام النهضة الإسلامية في العصر الحديث اهتهاماً واسعاً (إلى جوار الأدباء الذين كتبت عن ٣٦٠ شخصية منهم) فقد تناولت هؤلاء الأعلام في مختلف مجالات الوطنية والفكر والثقافة من المغرب العربي إلى حدود العراق في دراسة واسعة في أربعة مجلدات تحت اسم عام هو (أعلام القرن الرابع عشر الهجري) وتحت أسياء مختلفة أعلام وأصحاب أقلام، أعلام الدعوة والفكر، تراجم الأعلام المعاصرين . . إلخ .

كذلك فقد أوليت تاريخ الصحافة العربية اهتهاماً كبيراً وأصدرت كتابين يكشفان عن تموجات الأسهاء اللامعة بين الأحزاب والأراء، ثم قصدت إلى الصحافة نفسها في دراسة تناولت أخطارها وآثارها على نكسة ١٩٦٧ تحت عنوان (الصحافة والأقلام المسمومة).

وتناولت إلى ذلك الشيوعية والصهيونية والاستعيار الغربي في دراسات متصلة مفصلة، كشفت فيها عن آثارها وأخطارها. كما كشفت عن فساد نظريات العليانية، القومية، المادية، البهائية، الماسونية وكذلك تناولت مختلف الدعوات الهدامة.







الفصل الأول



سألني سائل: ما هي المصادر التي ألهمتني الكتابة، فأقول:

لا مشاحة أن «الكتابة» سليقة طبيعية لا سبيل إلى خلقها واصطناعها أو الإغضاء عنها إذا ما برزت وأرادت أن تؤكد وجودها. غير أن هذه السليقة الطبيعية تظل ساذجة غضة إذا لم تجود وتنمى وتجد المجال لظهورها وتجد المادة الوفيرة التي تعطيها الخصب والحيوية.

ولقد يحس الكاتب الموهوب بطاقة مذخورة في نفسه تنطلع إلى التحرير والكتابة، منذ مطالع الصبا ترافقها طاقة ضخمة من التطلع إلى القراءة والتقافة واختران الرؤى والأحاسيس ونفس راغبة إلى معرفة الكون والحياة، والنظر فيها وراء الظواهر، ومعرفة الناس والجلوس إلى أصحاب الندوات، واكتناه أسرار المجتمعات، في علاقات الرجل والمرأة، والتطلع إلى الصحف، ومتابعة الأحداث العالمية والوطنية، ولقد كنت في مطلع حياتي شاباً طلعة ولكن في حياء بالغ وحصر وعي شديد، أستمع أكثر مما أتكلم، وأقرأ أكثر مما أكتب، يشدني تطلع غامض إلى مجالات الفكر والأدب والصحافة دون أن أستكمل الأداة.

ولقد دنوت من آفاق الثقافة على مهل وفي بطء شديد، ولم تتسع دائري إلا على مراحل طويلة، وطال بقائي في الريف وكنت ضائقاً به ولكنه كان بمثابة التمهيد والإعداد لتكوين أداة الكتابة وأداة الفكر والبحث على السواء.

كانت طاقتي إلى الكتابة هي الأدب، وكان أول ما كتبت خواطر النفس ومشاعر المراهقة، وظلت دائرتي قاصرة على تراجم الأدباء وحيواتهم في كل ما يتصل بالعواطف والمشاعر، ثم اتسع الأفق ثمة من خلال مشاعر نفسية أقرب إلى التصوف والزهادة والاتصال بآفاق الروحانيات ثم كانت الوطنية والسياسة هي الشغل الشاغل لقراء الصحف والمجلات، غير أني لم أكد أبلغ العشرين من عمري حتى انفتح أمامي أفق التاريخ الإسلامي ثم الإسلام نفسه من خلال مطالعات منوعة لا تقف عند ثبيء، ولكنها تحوم تحويم الطائر القلق الذي يندفع من خلال إحساس داخلي عميق غامض لم يتبينه بعد.

ولم تلبث عواطفي أن شدت إلى الورد النمير: «القرآن» والعهد به قديم منذ ما طالعت العين وقرأ اللسان وحفظ القلب من آيات بينات، ثم شغلتنا عنها الدراسة المدنية القاصرة، حتى دارت النفس دورتها عائدة مرة أخرى إلى ذلك المصدر الأصيل.

كنا نظن القرآن كتاب دين أو كتاب بلاغة أو كتاب قصص، حتى عرفنا أنه كتاب الإنسانية كلها: دينها ودنياها، أدبها وعلومها، قصصها وواقعها، وأنه هو المصدر الأول للفكر الإسلامي نفسه، وإنه هو الذي هدى المسلمين إلى أصول العلوم التي بلغت مئات العلوم ومن بينها العلم التجريبي الذي ابتدعه المسلمون وكان هو قاعدة بناء الحضارة والتكنولوجيا الحديثة.

ولكن ذلك لم يكن من اليسير أن نعرفه من أنفسنا وكان لابد أن يرودنا إليه ذلك الإمام الجليل الذي مر كالشهاب الساطع في حياتنا، ذلك الشيخ الذي عرفناه يوماً ثم مضى.

كان القرآن هو في الحق على رأس المصادر التي ألهمتني الكتابة الحقة، بعد تهويمة طويلة، على أطراقه وحواشيه من كل ما كتبه الكتاب من علوم وآداب.

ثم كان والفكر الإسلامي، هو المصدر الثاني: ذلك الذي أنشأه الفرآن من خملال علماء المسلمين ومفكريهم في غتلف مجالات الفقه والتشريع والأخلاق والتربية والتفسير والاقتصاد والاجتماع والسياسة، حيث قدم لنا أولئك الأبرار تراثاً ضخياً ثراً، حافلاً بالضياء والنور، فيه عصارة الفكر وذوب القلب، من كل ما تحتاج إليه الإنسانية في حل معضلاتها وترشيد مجتمعاتها والتسامي بأفرادها وجماعاتها إلى بناء المجتمع الإنساني الفريد.

وكان التاريخ الإسلامي هو المصدر الثالث: بما يرسم من طريق طويل لذلك النهر العتيد: نهر الإسلام وهو يخرج من الجزيرة العربية ثم يمتد شرقاً وغرباً فيصل إلى خبر اللوار، ثم يمتد إلى أسوار فينا، ثم ينتشر بقوته الذاتية فيصل إلى الفيليين وأندونيسيا في أقصى الشرق، وإلى السنغال ونيجيريا في أقصى الجنوب، ماضياً يفتح الأفاق باسم الله وبكلمة (لا إله إلا الله).

وكانت تراجم الاعلام وبطولات النوابغ والقادة مصدر من أعظم المصادر، فقد رسم الإسلام نموذجاً جديداً من البطولة نختلف اختلافاً كبيراً عن نماذج البطولات في الشرق والغرب، تلك البطولات التي قامت على المطامع والاهواء بينها قامت بطولات الإسلام على مفهوم واضح صريح: والذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداًه.

واللغة العربية بترائها الحافل وإيماءاتها الحية مصدر ثر من مصادر الكتابة، فلقد كانت تلك اللغة الكريمة قد استحصدت ونضجت قبل نزول الغرآن، فلها اختارها الحق تبارك وتعالى لكتابه كان ذلك شرفاً لها أي شرف، بل كان علامة على الحلود: ﴿ إِلَيَّا اَحْتُرُ نَرَّلْنَا اللَّهِ الْمُرَافِلُهُ اللَّهُ مُرَوَّا اللَّهُ العربية بفضل القرآن هذه القرون، أمدها بمروحه وبلاغته، ووسع آفاقها، وذهب بها إلى كل مكان استعلنت فيه كلمة الله، فقد كان على كل مسلم في أقصى الأرض أن يقرأ العربية، لأنه يقرأ (القرآن) وحافظت كل مسلم في أقصى الأرض أن يقرأ العربية، لأنه يقرأ (القرآن) ولما كانت العربية على بلاغتها حتى يظل العقل الإسلامي في مستوى القرآن، ولما كانت اللغة هي أداة الفكر، فإن اللغة العربية هي أداة الفكر العربي الإسلامي وفيها طابع النفس العربية الإسلامية وروحها ومزاجها.

* * *

أمدتني هذه المصادر بالرصيد الأصيل، وبالقاعدة العريضة التي انبعثت

منها أكتب، ولكن هل وفقت مصادري عند هذا التراث العربي الإسلامي وحده؟.

في الحق إنني قرأت الكثير في آداب اللغات وفلسفاتها، سواء في لغته الأصلية أو مترجماً إلى اللغة العربية، وألمت كثيراً بعصارة الفكر الأوروبي الحديث والفكر اليوناني القديم وفلسفات الهنود والفرس والصين القديمة.

ولعلنا في مطالع الصبا قد ألقي إلينا، في الثلاثينات، كثير من المترجمات عن الفرنسية والإنجليزية عما غمر به المستعمرون بلادنا من القصص والروايات ومن تراجم أرسطو وأفلاطون وفرجيل وتابليون ودارون وفرويد، وكان لدينا كتاب تخصصوا في ترجمة آثار هؤلاء الكتاب وتقديمها إلينا، على أنها هي الفكر والثقافة، وأن كتب الأزهر القديمة هي الأوراق الصفراء التي يجب أن يغضى عنها كل مثقف متمدن!

وصدق هذه الفرية كثير من زملاتنا وإخواننا، عزفوا عن الغزالي وابن تيمية وكلفوا بترجمة تايبس للصاوي، والكونت دي مونت كريستو، وغادة الكاميليا، وظنوا بذلك أنهم قد بلغوا قمة العصرية وأنهم تساموا إلى هيكل وطه حسين والعقاد والمازني! فإذا قبل لهم أنتم عرب، ومسلمون، قبل لهم فلتقرأوا ألف ليلة وكليلة ودمنة ومقامات الحريري وشعر أبي نواس وبشار بن برد.

وكنا نعجب لمثل هذا التوجيه، يغري به جيلنا في العقد الثالث، وكنت أسأل لماذا لا تقرأ: (مقدمة ابن خلدون) وفي سن السابعة عشرة، حمل إلي أبي «المقدمة» بعد أن ألححت على قراءتها، ولكن هل حقاً فهمت شيئاً!

إن لم أكن قد فهمت فقد كان ذلك علامة الطريق على الخط الذي أجدني قائبًا عليه اليوم وأنا أتجاوز سن الخمسين بأعوام!

كانت هذه المترجمات التي قدمها (طانيوس عبده) وغيره عندما ترجموا مئات القصص الفرنسية المكشوفة، وأغرقوا بها السوق فكان أترابنا يشترونها بمليهات قليلة، إنما تهدف إلى غرض واضح، وكان كتاب ألف ليلة وهو يطبع ويباع عند (الكتيبة) بأسعار رخيصة إنما يهدف إلى قصد مبيت، فقد كان الغرض هو «توسيد» أرضية نفسية فاسدة مدمرة لهذا الشباب الذي يتطلع إلى التبريز في مجال الكتابة والفكر لهدمه وتحطيمه، أو لاحتوائه داخل أطر الفكر الغربي بانياً حياته على وثنياته وإلحاده. فهادة قصص طانيوس عبده بالإضافة إلى الف ليلة تحاول أن تصور له المجتمع في أقصى صور انحلاله وفساده، مع إعلامان الأدب الغربي وأبطاله بتراجم نابليون وشكسير، وبوضع الفكر اليوناني فوق قعة الفكر البشري بتراجم أرسطو وأفلاطون، وكان شعر بشار وأبو نواس إنما يهدف إلى إكيال الحلقة حول النفس العربية والعقل العربي ليفقد أصوله يهذف إلى إكيال الحلقة حول النفس العربية والعقل العربي ليفقد أصوله ويذهب في غربة غربة عن جذوره وقيمه.

فلقد كان الفكر الإسلامي منكوراً وكان الأدب العربي في نظر علماء مذاهب النقد الغربي الوافد هو هذه الحصيلة من شعر الإباحيين بالإضافة إلى مقامات الحريري، مع الإغضاء عن إنتاج الأعلام الكبار الذين مروا في تاريخ الفكر الإسلامي عبر عشرات السنين، أما اليوم فقد تحقق لنا أن بشاراً وأبا نواس لا يمثلون إلا أنفسهم وإن ألف ليلة لا تمثل النفس العربية في جوهرها وإن قصص طانيوس عبده إنما هي صورة دخيلة من مجتمع غريب لا تمثل أمتنا ولا تعبر عن مزاجنا العربي الإسلامي، الذي صنعته أخلاق الإسلام وقيمه والذي كان يعوفه العرب في الجاهلية حيث يقول شاعرهم:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى تـواري جـارتي مـأواهــا

لقد كانت هناك عاولة لإزاحة القرآن والسنة النبوية وحكمة الإمام على بن أبي طالب التي تمثل أول خيط للبلاغة العربية والنثر الفي الذي سار على بن أبي طالب التي تمثل أول خيط للبلاغة العربية والنثر الفي المحاولة قد فشلت وعجزت عن أن تحطم كيان هذا النتاج الإسلامي العربي الباهر وانكشفت هذه المخططات بعد أن أغرتنا زمناً وبعد أن خدعتنا طويلاً وكنا ضحاياها، فترة من الزمن، ثم عدنا نلتمس الحقائق وكشف لنا الأبرار الطريق وأضاؤوا لنا السبيل، لقد كشف التغريب عن خططه وأعلن عن هدفه، وجاء كثيرون يجرون فكرنا ويزيحون من طريقنا ما غفلنا عنه وتبين لنا أن الأدب لا

يستطيع أن ينفصل عن المجتمع ولا عن الفكر، وأنه حر كل الحرية في نطاق القيم الاخلاقية الإسلامية، وأنه يستطيع أن يعبر عن نفسه دون أن يخرج عن دائرة التكامل مع قطاعات الفكر المختلفة وأن الفكر في أساسه خادم لبناه الجماعة وأن الفرد له شخصيته وله أيضاً وجوده داخل الجماعة التي يعيش فيها وأن حرية كل فرد تنتهي إلى حيث لا تكون عدواناً على حرية فرد آخر. وإذا كان العقل في أوائل الشباب قد يصادف شيئاً ما فيحتضنه في أعاقه وقتاً طويلاً ثم يقذف به من بعد كعلامة على اكتبال نمو المزاج النفسي،

وإذا كان العقل في أوائل الشباب قد يصادف شيئاً ما فيحتضنه في أعراقه وقتاً طويلاً ثم يقذف به من بعد كعلامة على اكتيال نمو المزاج النفسي، وكدليل طريق، ونور كاشف فإنني أستطيع أن أقول إن كليات ثلاث: هي المثل الأحيا، والشجاعة الأدبية، والنور الجديد إيان يكون مصدره، كانت تعتمل في عقلي وقلبي ومن وراء كل الصور والرؤى والظواهر لتشكل هذا الانجاه الذي سيطر على متطلبات الكتابة وأهدافها.

وإذا كان لإلهام الكتابة مصادر غير القراءة والثقافة، فإنها تتمثل عندي النظرة إلى الأفق البعيد، وتلك علمتنيها السياء المكشوفة الممتدة أمام دويرتنا في ديروط، تصل بالطرف إلى آخر الأفق حتى تصطدم العين بجبال المقطم، مارة بالسندس الأخضر، ومن حوله العصافير تزقرق والنخيلات العالية تميل، وحيث تزدهي قناطر ديروط في المساء ونحن ننتقل بين روافد النيل: الإبراهيمية وبحر يوسف والديروطية حيث تشكل شجيرات الجميز خيلة رائعة، بينا طواحين الهواء تدور لتنقل الماء من حقل إلى حقل.

لعل هذه المطبيعة الحافلة قد دفعتني إلى التأمل المطويل، حتى إذا غادرت الريف إلى القاهرة قصدت ضاحية الطالبية بالهرم لاستبقي ذلك الأفق الطلبق، والسياء المكشوفة، من حولها الزهور والطيور.

لقـد كانت مطالع الكتـابة متـواضعة محـدودة في أفق أدب المشـاعـر والعاطفة، ولكن النفس الـطموح مـا زالت توسع آفاقهـا حتى هديت إلى طبيعتها الأصيلة ومرماها الطبيعي، كانت تطمع في أن تقول شيئًا جديدًا، أو تكمل عملًا ناقصًا، أو تصحح خطأ مدفون.

وكان تعلقها بتحرير الثقافة العربية نما اختلط بها من أخطاء الأمم أكبر مطامحها حين نضج العود وأوفى على الأربعين حتى لأستطيع أن أقول إن مهمتي قد جعلتها في تصحيح المفاهيم ودحض الشبهات. وحتى لأحسب أن هذا العمل لن ينتهى ولن يستقصى.

وإن مهمتي فيه ليست مرحلية ولكنها أساسية، وتلك مهمة حمل لواءها الكثيرون من رجال العروبة والإسلام على مراحل التاريخ، ذلك لأن مصدرها هو ذلك والتحريف، المقصود، وغير المقصود الذي واجه الفكر الإسلامي منذ مطالع الإسلام إلى اليوم، وتلك مهمة عسيرة تحتاج إلى جهد وصبر وجلد.

لقد واجه الفكر الإسلامي غزوات متعددة من غزوات «التحريف» رماه به خصومه، ومن تضامنوا معهم من بعض أهله، وكان هذا الفكر حفياً بأن يدفع عن نفسه، ويصحح مساره، ويرد هذا الغشاء الذي يراد أن يطفىء نوره، أو يجرفه عن مداره، أو يضعه في دائرة الظل، وكانت أصالة هذا الفكر هي التي تبعث من أعماق حماته ومصححيه.

ولقد نظرت فوجدت تلك رسالة دائمة لم تتوقف، وتلك حملة مستمرة لم تنقطع، وفي عصرنا هذا، جدد الغزو والتغريب كل الشبهات القديمة ونثرها من جديد وأغرى بها، فأثار شكوكاً وشبهات، وسيظل ذلك أمراً لا ينقطع: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدفعه فإذا هو زاهق﴾ و «ستظل طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم».

* * *

لقد كشفت لي المطالعة الواسعة للثقافات الغربية والشرقية من يونانية وغربية وفارسية وهندية قديمة، أن هناك خطأ واضحاً لا سبيل إلى تجاوزه بين فكر الإسلام وقيمه ومفاهميه، وبين هذه الثقافات جميعاً، فقد تلتقي هذه الثقافات وقد تتقارب وقد ترى بين بعضها وبين البعض الآخر مشابه لا حد لها، والجديد منها يستمد من القديم، وتراث الهند الوثني القديم يبدو واضحاً في التراث الفرعوني وفي التراث الغربي الحديث، أشياء كثيرة، وقضايا كثيرة، ومفاهيم كثيرة، تتلاقئ ولا تختلف، إلا من حيث الصياغة والنطور.

أما الفكر الإسلامي فيقف وحده بكل قيمه ومفاهيمه ليمثل نظرة إنسانية متحررة عن الوثنية وعن عبادة الفرد وعن عبادة القوة وعن الظلم الاجتماعي وعن التفرقة العنصرية.

نظرة شاملة متكاملة تلتقي فيها العناصر جمعاً وتقوم على الأخلاق وتستهدف بناء الفرد الصميم صاحب الشخصية الممتازة القوية المؤمنة، كجزء في بناء مجتمع الطوبيا الإسلامية الذي تتطلع إليه البشرية.

ومن ثم فقد كنت أرى هذه القيمة من القيم وهي تختلف بين نظرة الإسلام إليها ونظرة الفلسفات والثقافات والتراث الشرقي والغربي على السواء

لاشك أن مصدر المعرفة واحد، ومصدر الأديان واحد، ولكن جاء الانحراف من خلال المطامع والأهواء، ولا شك كل الدعوات تتطلع إلى الحرية والعدل وخير الإنسانية، ولكنها خلطت حقها الأصيل بباطل أهواء الأقوياء، أما الإسلام في يزال نقياً، وقد ظل كتابه والقرآن، نصاً موثقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولذلك فالإسلام مرجو في أن يقدم للإنسانية ضياءً جديداً بل إن طال بها الاضطراب والقلق باحثة عن مصدر النور، من خلال محاولاتها وإيديولوجياتها المتعددة، فهل يستطيع أهل الإسلام أن يقدموه للناس، ليتهم يفعلون صادقين.

لقد كانت مصادر الكتابة عندي ساذجة متواضعة في مطالع الصبا، حتى التقبت بالقرآن الكريم، وقد طوفت ما طوفت بالفلسفات والمذاهب والعلوم والنظريات حتى أوفت على الغاية من المعرقة، حين تحقق لها أن هذا الكتاب هو مصدر الضياء والهدى لكل نفس حائرة وعقل متطلع، وأمة تشيء الحياة، وللإنسانية جميعاً في غدها المرتقب.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَاينينَافِ ٱلْأَفَاقِ وَفِي ٓ أَنفُسِمِمْ حَتَّى بَنَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

الفصل الثاني

أعقد مَا يُوَاجه البَاحِث المؤرَّخ المصَادر الحَيَّة

ليست هي مبالغة، وإنما هي الحقيقة الصريحة، إن أعقد ما يواجه الباحث والمؤرخ هو «المصادر الحية»، أي الناس، أهمل ذلك العلم: العظيم أو المفكر الذي تحاول أن تدرسه وتستقعي كل ما كتب وما كتب له وعنه، وأهل هؤلاء الأعلام هم أكثر الناس صداً وتعقيداً لمحاولة دراسته أو الوصول بدراسته إلى قمة البحث العلمي الصحيح، ولقد واجهت هذه المسألة مرات عديدة وفي كل مرة كنت أخرج بذلك الانطباع: أن أعقد ما يواجه الباحث والمؤرخ هي: المصادر الحية.

لفت نظري منذ وقت بعيد اسم وإبراهيم اللقاني، أي قارىء لسيرة جمال الدين الأفغاني يجد هـذا الاسم واضحاً، قـرياً إلى نفس هـذا العالم الجليل، حتى ليكاد يقول المؤرخون إنه كان في الدرجة التالية للشيخ محمد عبده، فقد وكـل إليه الأفخاني تحرير صحيفة مرآة الشرق عامي ١٨٧٨ و١٩٧٨، ويذكر المؤرخون أن جمال الدين كان جالساً في حدائق الجزيرة عندما مرت سيدة أجنبية تمتطي جواداً فقال: ما تتمنى يا لقاني!

ولقد حاولت أن أجد للقاني ترجمة حياة أو دراسة مستوعبة فلم تقع عيناي إلا على كليات قصار، وذكرت ابنه اسنى اللقاني، الذي توفي منذ سنوات وكان من رجال الاقتصاد وقنيت لو وجدت عند أسرته ما يشفي الغلة ويفتح الأفاق أمام دراسة واسعة عن رجل من رجال القانون دافع عن مسجوني دنشواي وأتعبه المرض بعد رحيل جمال الدين من مصر، وعلمت أن

لدى أسرة اللقاني (بدروما) في الروضة تحوي كتباً وأرواقاً ما تزال منذ سنوات طويلة مهجورة مضيعة.

وكدت أصل إلى ذلك لولا ما قام في نفس بعض الأهل من تخوف خشية أن يكون ذلك أمراً يتصل بالميراث أو الضرائب أو غيرها، أو ربما لشبهة لحقت ببعض أصحاب القلم وخاصة من الصحفيين، جعلت الكثيرين يعزفون عن الاتصال بهم أو تحاميهم. وضاعت الفرصة للوصول إلى أكبر قدر ممكن من تراث هذا العالم الكبير.

وقد وقع لي شبيه بهذا الأمر مع خلفاء المرحوم أحمد زكي باشا شيخ العروبة، عندما أعددت دراستي الجامعية عنه في سلسلة أعلام العرب، فقد قدرت أن هناك رسائل ومذكرات وأوراقاً قد تكشف أمامي جانباً من حياة هذا العلامة الكبير الذي ظل يكتب في الصحف اكثر من خسين عاماً دون أن يكون له كتاب كبير أو مبحث جامع، والذي ظلت أثاره مدفونة وتبلغ أكثر من ألفي مقال مفوقة في صحف المؤيد واللواء والأهرام والمقطم منذ عام 1978 إلى عام 1974 إلى عام 1974 تقريباً.

وما زلت أذكر كيف شقيت بدراسة العلامة محصد مسعود، وكانت لمسعود أضابير مرتبة بها قصاصات وبطاقات قبل إنه كان يستعمل عليها موظفاً في الثلاثين يعطيه بضعة عشر جنيها، فاين ذهبت هذه الادراج التي كانت تسعفه في مراجعة الألفاظ ووقائع التاريخ، وبفضل ما تحويه كان يدخيل المعارك الحافلة مع شيخ العروبة أحمد زكي باشا ويصاوله، ولم يكن زكي باشا بأقل من ذلك أضابيراً وأدراجاً غاية في الدقة (ومع الاسف ذهب كله بموتها ولم ينتفع به أحد).

فلما اتصلت بأكبر أبناء المرحوم مسعود لم أجد عنده إلا القليل، ثم اتضح لي أن الورثة قد اختلفوا وتشاكوا إلى المحاكم، وأن االقضية ظلت بضعة عشر عاماً حتى فصل فيها، وأن الأوراق التي كانت في البدرومات قد غرقت مرة ومرتين وثلاثاً بسبب فيضان النيل وأن كثيراً منها قد ذهب. ولقد كان أهل الكثيرين من الكتاب والباحثين هم أزهد الناس في مكتبات أبائهم وأهليهم فقد حدثني المرحوم محمد أحمد برانق وكان من مؤلفي قصص الأطفال وكتب المدارس الإسلامية وكنا في مكتبه جلوساً ومعنا الدكتور أحمد الحوفي، عن حيرته في إهداء مكتبته لإحدى الهيئات بعد موته، نظراً لأن أبنائه من نهج آخر في الدراسة لا يحفلون بالأدب ولا اللغة وكانت مكتبة المرحوم برانق هي مكتبة صهره المرحوم أحمد السكندري مضافاً إليها مكتبته هو فهي حافلة قيمة تمتد إلى أوائل القرن ومضى الأستاذ برانق بعد قليل ومفتت مكتبة، لا أدرى إلى أين.

وكانت مكتبة الدكتور زكي مبارك حافلة عامرة تحوي بضع عشر ألفاً من المؤلفات، وكان يجلس أحياناً على الأرض كها ظهر في كثير من الصور وأمامه الكراس من الكتب ثم ذهبت المكتبة ربما إلى سور الأزبكية أو غيره حتى انتهت.

ولقد أتيح لي وأنا أعد دراسي عن العلامة فريد وجدي أن أشاهد آثار ذلك التصرف العجيب الذي يحدث لأثار كتابنا بعد وفاتهم، كان فريد وجدي علامة متخصصاً في علوم الدين والروح وله دائرة معارف، ولابد كانت له مكتبة حافلة، غير أني عندما زرت بيته بعد موته بسنوات لم أجد شيئاً، أين رسائله، أين مذكراته، أين مسودات كتاباته، أين القصاصات، لا شيءً لا شيء.

وكان السابقون أكثر منا علماً واهتهاماً بمثل هذه الآثار فقد قامت ذات يوم شركة بين أحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا والخانجي الوراق الشهير على شراء آشار كل علامة يذهب، حتى لا تضيع آثاره، أما اليوم فإن الأبناء لا يولون اهتهاماً لآثار أبائهم ولا يحفلون بهذه الأوراق فلا تلبث أن تتبدد ويضيع معها تاريخ كثير، وعلم كثير.

إن مآل الكتب أمر هين ويسير، ذلك لأنها مهما سرقها الحدم أو أهمل في شأنها الأبناء فسوف تصل يوماً إلى يد يهمها أمرها، أما الأمر الجلل والخطير فهو تلك الوثائق والأوراق والجذاذات والمذكرات والـرسائـل، هذا الأستاذ الزيات الذي فقدناه منذ قليل، لقد حاولنا وحاول معنا الأديب محمد البنا قريبه وصفيه للحصول على رسائله فلم نجد شيئاً، وما زلنا نبحث عن الرسائل التي أرسل بها إلى أصدقائه في مصر وسوريا والعراق وغيرها، ولكن ذلك رعا تيسر، أما العسير حقاً والمؤسف حقاً فياغا هو ضياع أوراق وجداداته، كنا نريد أن نعرف مثلاً ماهي الموضوعات التي كان العقاد والزيات والمازي يحاولون معالجتها قبيل الوفاة، لقد وجدت في مكتبة العقاد حافظة لاوراق عن الأديرة والكنائس رعا كانت هي آخر الموضوعات التي كان معني به، فأي الموضوعات التي كان يعدها العلامة محمد أحمد الغمراوي آخر من فقدنا من الباحين وكان موضوعه عن المجاز في القرآن الذي واصله أكثر من ثلاث سنوات في مجلة الأزهر ولما يكتمل بعد.

أين الموضوعات التي كان يدرسها ويعدها هذا الباحث أو ذاك؟

وا*تحن إذا كان أنا من باب الإنصاف أن نذكر أن بعض خلفاء العا*والباحثين كانوا يولون امتياماً كبيراً لأثار أبائهم فإنا نذكر أن بعض خلفاء المجال أ
هيكل ابن الدكتور محمد حسين هيكل صاحب حياة محمد فقد حرص
الشاب النابه في دأب وصبر شديدين سنوات طوالاً على جم آثار والده
الصحف والمجلات حتى استطاع أن يحفظ بما يخرج عشرة كتب على الأة
وما زال يواصل إخراج هذه المقالات بعد تصنيفها في مؤلفات فاخرج .
الأن ثلاثة أو أربعة منها.

وما زلت أذكر في هذا المجال تلك الثروة الضخمة التي خلفها المر-عبدالقادر مختار وهو رجل لم يكن أديباً ولا كاتباً ولكنه كان حريصاً على يسجل يومياً كل ما يقرأه في الصحف وقد عمل في هـذا الحقل أكثر أربعين عاماً، وأتيح لي يوماً أن أشاهد إحدى كراساته الثلاثين، وهي أ. بسجل حافل للأحداث.

وفي السنوات الأخيرة مات كثيرون ممن لهم أضابير حــافلة أذكر م «محمود أبو رية؛ فقد كان هذا الرجل حريصاً على جمع القصاصات على ن دؤوب صابر حتى أوفت عنده على مجلدات، وكنت أداعبه في السنوات الأخ وأسأله عن هذه الأوراق فيضحك، ونحن في الشرق لا نستطيع أن نقـول لاحد: كيف سيتصرف خلفاؤك في هذا التراث النافع بعد الموت.

وما زلت أذكر المرحوم أحمد خيري وكانت مكتبته من أحفل المكتبات بالوثائق والأضابير وله مذكرة يومية يلخصها من الصحف، وكان لدى المرحوم عبدالرحمن الرافعي أضابير كثيرة وكذلك عمن فقدنا في السنوات الأخيرة الدكتور محمد عبدالله العربي وعبداللطيف حمزة، وأسبير وجسري والمدكتور غلاب ومحمد فتح الله بدران ولهم جميعاً مكتبات عامرة بالأوراق والآثار.

الحق أن هناك ثروة ضخمة ضائعة، وأن هناك مصادر حية قد تدفن بين لحظة وأخرى بوفاة صاحبها، وبالمرقف العجيب الذي يقفه خلفاء هؤلاء الأعلام بالنسبة لتراثه الفكري ووثائقه ومذكراته.





الفصل الثالث

الكاتب ومراجع الكاتب

كان البحث عن المراجع أول هذا القرن هواية كبرى من هوايات الكتاب والمؤلفين وكان تكوين خزائن الكتب رغبة تملأ قلوب كثيرين ممن تصدروا للبحث والتوجيه في العالم العربي، واستطاع كثير من ذوي النفوذ والثراء البحث عن المخطوطات والكتب وجمع المئات منها وكان أحمد زكي باشا الملقب بشيخ العروبة وأحمد تيمور باشا في مقدمة العاملين المتنافسين في هذا الصدد، أعانها على ذلك إيمان عميق بالتراث العربي، وغيرة بالغة عليه وكان عاماً من أجل الحصول على أكبر قدر من الكتب الأمهات، سواء أكانت غطوطة أو مطبوعة، والسياحة في شتى بلاد الشرق والغرب من أجل الحصول على المخطوطات سواء بنسخها أو بتصويرها، وقد تحقق لها فضل كبير في هذا الاتجاه، واستطاعا أن يصورا بالفوتغرافيا عشرات من المخطوطات الموجودة في مكتبات استانبول ولندن وباريس حتى استوت الحزانة الزكية والحزانة التيمورية تتنافسان في هذا المجال وقد غلب على كمل منها ذوق صاحبها تيمور أقرب إلى دراسات الناريخ والجغرافيا وأحمد تيمور أقرب إلى دراسات اللغة والإسلام.

ولقد استطاع أحمد زكي أن يجمع سبعة عشر ألفاً من المجلدات منها أكثر من خمسة آلاف مخطوط، كها جمع أحمد تيمور اثني عشر ألفاً منها سبعة آلاف مخطوط. ولقد استعان زكي وتيمور بوراق لامع هو (الخانجي) فكانوا يراقبون أعمدة الوفيات في الصحف يوماً بعد يوم. فها أن يسمعوا عن كبير نوفي حتى يذهبوا للعزاء ثم يتحدثون عن شراء مكتبته فيأخذ منها زكي وتيمور كل ما يشاء في الفنون التي يريدها، ويخلص الخانجي بالباقي.

وكان لهما من يسافر إلى أوربا وإلى الأستانة من أجل تصوير المخطوطات التي تحفل بها الكتبات، فضلًا عن أعيهال البحث في الأضرحة والمساجد القديمة للحصول على مخطوطات أخرى.

وقد شكلت الخزانة لكلا الرجلين هموماً ومناعب من حيث الاستيعاب والعمل، أما أحمد زكي فكانت دار العروبة على النيل في الجيزة في مواجهة مصر القديمة مقراً لكتبته التي سرعان ما أهداها لوزارة الأوقاف فافسحت لها مكاناً ثم نقلها بعد ذلك إلى قبة الغورى، ثم سلمها لدار الكتب المصرية، واحتفظ لنفسه بلكتبة السريعة المنتقلة في بضع ألوف من المراجع التي كان يستعين بها على العمل السريع، فإذا شاقه بحث رجع إلى مكتبته في دار الكتب فأقام فيها أياماً وليالي يبحث ويقلب، أما أحمد تبمور فقد كانت خزائته بقصر في درب سعادة قريبة من باب الخلق، ثم رأى أن ينقلها إلى ضيعته في بيم روبع ويصنف، ثم لم روبيسنا) فأقام سنوات عليها هناك بعيداً عن الناس، يراجع ويصنف، ثم لم يلبث أن أعادها إلى قصره الجديد الذي بناه في شجرة الدر بالجزيرة، وهي ما يطلق عليه اليوم (الزمالك).

ولقد أشار تيمور في رسائله إلى أصدقائه عن مدى الجهد الذي تكلفه في أعمال النقل حتى يقول في خطاب له إلى الأب انستاس الكرملي (وصلني خطابك حين وصول النقلة الأولى من الكتب وهي ربع الحزانة تقريباً (عشرون صندوقاً) فوصل (أي الخطاب) وأنا غارق في الأتربة مستغرق الأوقات في الترتيب ومراعاة الأرقام ولا أدري متى أخلص حتى أسافر لجلب النقلة الثانية فالثالثة فالرابعة).

ولقد كان لكلا الرجلين أسلوبه في مراجعة هذه المصادر.

أما زكي باشا فكان يعمل بطاقات بالكلمات والمصطلحات والرؤوس العامة، ويودعها في أدراج، فإذا احتاج الأمر سارع فأحضر صفحات المصادر أو النصوص المنقولة منها وكان هذا هو سر سرعته الفائقة في الرد على ما ينشر في الصحف من أخطاء في بعض أسهاء البلدان العربية أو الأندلسية أو وقائع التاريخ.

أما تيمور فكان رجالًا لا تهزه مطامع الشهرة، ولا يجرص على قدع الطبول في كل حين، بل كان يعمل في صمت ويضع تعليقاته على حواشي الكتب حتى لقد أثر عنه، أنه ما كان من كتاب من هذه الألوف إلا راجعه وعلق عليه وقد زاره الأستاذ محمد كرد علي وكتب بحثاً مطولاً عن خزانته في المقتبس عام ١٩١٣ وأشار إلى أن تيمور أقام لمكتبته ثلاث فهارس: فهرساً فيأ وفهرساً معجمياً وفهرساً لأسهاء المؤلفين، وأنه كان لا يتوقف عند جمع الكتب بل كان يصنفها ويطالع كثيراً ويحسن الاختيار ويقارن وينقد ويكتب بالموامش ولا يستغلى عليها أي مبلغ.

ولقد ظل كتّاب الشرق والعاملون في حقل الدراسات اللغوية التاريخية يتعاملون معاً، ويتراسلون وقد انعقدت بينهم صلات وكان أبرزهم: محمود شكري الألوسي، وطاهر الجزائري، وانستاس الكرملي: يقول كرد علي: لقد كان من العادة أن يضن غلاة الكتب بكتبهم، أما تيسور فقد تعمود بسط الكف بها لأن غايته نشر العلم وإحياء آراء السلف ويسروى من ذلك أن صديقاً له استعار كتاباً في التراجم فظل عنده ثلاث سنوات فكان تيمور كلها احتاج إلى ترجمة ما، يذهب إلى صاحبه وينقل منه، دون أن يطلب إليه رد

كما أشار إلى تواضعه الجم حتى أنه بعد أن علونه معاونة أكيدة في موسوعته (خطط الشام) رفض _ أي تيمور ـ أن ينص كرد علي في المقدمة على هذا الفضل أو يوجه إليه الإهداء.

وقد جنح إلى العزلة في خزانته بقويسنا بعد وفاة صديقه الشيخ محمد عبده وظل يعمل في صمت ولما عاد بخزانته إلى القاهرة بعد ذلك، واصل عمله دون أن يفكر في النشر كثيراً فلم تطبع له في هذه الفترة إلا رسائل صغيرة وكل ما أعده للنشر من مؤلفات إنما طبع بعد وفاته.

أما أحمد زكي فقد نشر أكثر من ألف مقال في صحف الأهرام والمقطم والمؤيد وغيرها عن اكتشافاته وتصحيحاته المتوالية التي كان يصدرها بمقدمات تحمل كثيراً من الازدهاء، مثل قوله:

اعني وعني وحدي خذوا الخبر الصادق. . . إلخ.

نشأت بعد ذلك مكتبات كثيرة، واهتم الجيل الذي ظهر بعد الحرب العالمية الأولى بإنشاء المكتبات، فكانت مكتبات العقاد ولطفي السيد وزكي مبارك وطه حسين وأحمد أمين ومحمد صبري السربوني ومحب الدين الخطيب وعشرات أخرى من المكتبات التي تفرقت وضاعت بعد أن تركها أصحابها.

وتختلف هذه المكتبات عن مكتبات الجيل الأول في عدة أمور منها:

أنها كانت مكتبات للمراجعات الصحفية السريعة التي تنطلب الوصول إلى بعض التفاصيل عن حادث من الأحداث أو قضية من القضايا، ولذلك فقد غلبت عليها دوائر المعارف وكتب الموسوعات وخاصة الأوربية، وقل تبعاً لذلك فيها كتب الأمهات والأصول والمخطوطات.

ذلك أن أعال المخطوطات كانت قد أصبحت من اختصاص دار الكتاب ولها رجالها والمهتمون بها، بينها غلب طابع الترجمة على العاملين في الحقل الأدبية والسياسية والصحفية السريعة ولقد جاهد كثير من أدباء هذه الفترة في الحصول على الكتب واشترى العقاد عند إنشاء مكتبته للمرة الثالثة كثيراً من غلفات المكتبات القديمة، وكان بيته في مصر الجديدة بحجراته الخمس الواسعة مكتبة منوزقة موزعة على صواوين غتلفة الاحجام والأشكال، ذلك أن العقاد لم يكن حريصاً على الأناقة بقدر ما كان حريصاً على الأناقة بقدر ما كان حريصاً على الأناقة بقدر ما كان حريصاً على التصوص المطلوبة.

ولقد كانت مكتبة لطفي السيد وطه حسين من آنق المكتبات فقـد أعدت لها غرف خاصة فنضدت من الأرض إلى السقف بالرفـوف المقسمة ووضعت فيها الكتب ذات المجلدات الأنيقة في ترتيب تشعر منه أنها لا نمس وإن صاحبها لا ينظر فيها.

أما مكتبة الدكتور زكي مبارك فقد كانت غاية في الفوضى والاضطراب وقد شوهدت صور للدكتور وهو جالس القرفصاء ومن حوله أوراق كثيرة وهو يبحث عن شيء منها.

وقد استطاع الذين سافروا إلى أوربا أن يجلبوا عشرات من المجلدات بل مئاتها فقد كانت الكتب الإفرنجية في الثلاثينات رخيصة جداً ومن هنا فقد تكونت مكتبات كثيرة من المراجع الأجنبية الخالصة، ومن ذلك مكتة الدكتور محمد صبري السربوني التي تغطى معظم حوائط ردهات منزله الواسعة.

وتعد مكتبة السيد عب الدين الخطيب من أعظم الكتبات الخاصة الموجودة في الوقت الحاضر، فقد أربت على أكثر من عشرين ألفاً من المجلدات وقد جمها صاحبها منذ عام ١٨٩١ تقريباً واستمر على ذلك حتى عام وفاته ١٩٦٩ وأعانه على ذلك أنه كان يعمل في الطباعة والوراقة والنشر، وكان كبير العناية بكتب التراث وخاصة في مجال الدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامي واللغة العربية.

ولا شك أن لكل مكتبة من هذه المكتبات: وتاريخ حياة، يرتبط بصاحبها وبالهموم التي تهمه والقضايا التي يعالجها، فهي تمثل حلقات فكره وتطورات عقله، وتضم الجوانب التي تمثل مراحل نشاطه.

فإذا أخذنا مكتبة العقاد التي بلغت بضعة عشر ألفاً نجدها تمثل أربعة أقسام:

- الشعر وقضاياه في الأدب الغربي والعربي.
 - الفلسفة ومذاهبها.
 - السياسة ودراساتها.
- الدراسات الإسلامية وكتب السيرة والتراث.

وهذا التقسيم نفسه هو تقسيم حياة العقاد واهتهاماته فقد بدأ حياته

بالشعر ودراساته ونقده ثم اتصل بالفلسفة والسيباسة، ثم أولى الـدراسا الإسلامية في السنوات العشر الأخيرة من حياته اهتياماً واسعاً.

وكذلك نرى مختلف المكتبات الخاصة، التي تغلب عليها طابع ؟ كاتب ومزاجه والدراسات التي يشغل بها، والدكتور صبري السربوني مثلا الذ يعمل مند خمس سنوات في دراسة الحضارة العربية في أفريقيا تضم مكتبته يزيد على ألف مرجع في هذا الموضوع.

ومن هنا يمكن القول أن هناك مكتبة الصحفي ومكتبة الأديب ومكا الموسوعي ومكتبة الباحث التاريخي أو اللغوي ولكل منها طابع خاص، و تشكل المكتبات الخاصة إنما يتم وفق طبيعة فكر الكاتب وعمله، وهمس الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية.



الفصل الرابع

تجربة العمل الأدبي

إن تجربة العمل الأدبي تكشف عن كثير من المشقة والمعاناة فليس هي من اليسر بحيث يمكن أن يقال إنها قدرة على الصياغة وبناء الدراسة.

ذلك أن الحقل الأدبي ليس مفتوحاً على النحو الذي يحقق العمل ببساطة. وبالرغم من كل ما قدم إليه من دراسات فإن هناك جوانب ما تزال غامضة، ومعقدة وفي حاجة إلى مجهود ضخم للكشف عنها ذلك أن أغلب الأعمال الأدبية والفكرية قد بدأت على أيدي أصحابها دراسات أو كلمات نشرت في الصحف، ثم استطاع عدد قليل من الكتاب جمع أثارهم وإبرازها على هيئة مؤلفات أو كتب أو دراسات حتى أنه يمكن القول بأن آثار أغلب الكتاب الكبار أمثال طه حسين والعقاد والمازني والزيات وجبران وميخائيل نعيمة وهيكل وسلامة موسى قد بدأت في هيئة مقالات نشرت في الصحف والمجلات ثم جمعت في كتب ولذلك أمكن لبعض الباحثين أن يقول إن أدب الثلاثينات وما بعدها كان أدب مقالات مجمعة. وربما امتدت هذه الظاهرة إلى اليوم وإنه فيها عدا الدراسات الجامعية والرسائل الأكاديمية فإن كل أثارنا الأدبية مقالات مجمعة وإن كان بعض الكتاب قد استطاع في ذكاء أن يربط بين المقالات المنوعة وأن يبرزها في وحدة وانسجام، وإن بعضهم الأخر عجز عن هذه المحاولة. هذا رأى قريب من الحق فيها أعتقـد عن تجربـة، وهو موصل إلى الحقية التي أردت أن أكشف عنها، بأنه فيما سوى عشرة أو عشرين أو ثلاثين من الكتاب على الأكثر جمعوا أثارهم، فإن هذه الأثار ما نزال مدفونه في بطون الصحف والمجلات وإن في هذه المرحلة التي انتعشت

فيها المقالة الأدبية والسياسية والاجتماعية يمكن أن يقال إنه في خلال ستين عاماً (١٨٧١ - ١٩٣٩) باستثناء فترة الحرب العالمية الأولى عندما نــوقفت الصحف أو انقطعت قد كتب ما لا يقل عن مائتي كاتب ممن لم يجمع أحد منهم آثاره، وإن كل كاتب من هؤلاء قد كتب فى عشر موضوعات منوعة، فإننا إذ ذاك، أمام حصيلة لا حد لها تضم الفي بحث أو الفي كتاب.

هذا بالإضافة إلى عشرات الكتب الملخصة، والمترجمة، وذلك باستثناء المقالات الصحفية السياسية ذات الموضوع المحدود أو مقال الساعة أو الفكرة العارضة.

وإذا ظن بعض الكتاب أن في ذلك شيء من المبالغة فإني أذكر بالإضافة إلى ذلك أن هناك أكثر من خمين كماتباً قد كتبوا خلال سنوات بلغت العشرين والثلاثين، كل يوم، أمثال داود بركات وفارس نم وعبدالقادر همزة وأمين الرافعي، وهيكل والعقاد وطه حسين وحافظ عوض وعباس حافظ وأحمد وفيق وخليل ثابت ومحمد مسعود وسيد علي ومحمود عزمي وأحمد نجيب وإذا أردنا أن نجتزى، بمثال واحد أو اثنين قلنا مثلاً إن داود بركات رأس تحمير الأهرام ٤٠٠ عاماً وفقح مثل تعتب افتتاحية الأهرام ٣٠ عاماً بواقع تحمرات كل ٤ أيام) فهاذا تحمد؟ نجد أنه كتب ١٠٩٨٠ مقالاً وهناك مثال المقاد أو طه حسين أو المازني أو هيكل ١٩٢٧ ـ ١٩٥٢ المازني (١٩٣٧ ـ ١٩٤٧ هيكل (١٩٨٠ مقال لكل منهم ضاعت في بطون الصحف وهي غبر المقالات الأدبية التي جمعت.

وبعد هذا الاستطراد نعود فنقول إن صحفاً كالمقطم واللواء والمؤيد والأهرام والسياسة والمنبر وكوكب الشرق والوادي والبلاغ والجريدة، وبحلات كالنار والضياء والمقتطف والجوائب والنهور والبيان والجامعة والعصور والمشرق والزهراء والسياسة الأسبوعية والعصور وأبولو والفجر والنهضة الفكرية والرسالة والثقافة (وهذا في مصر وحدها) قد أعطت عصولاً ضخاً لا حد لضخامته من الأبحاث والدراسات المنثورة المضيعة، ولذلك فإن بجال العمل الأدبي الحقيقي فيا اعتقد للكشف عن حقائق التطور الأدبي في العالم العربي في العصر الحديث مرتبطة إلى أبعد حد بالكشف عن هذه الأثار التي حاولت أن أصور أهميتها وخطورتها. ومن هنا فإن تجربة العمل الأدبي كها قلت تكشف عن كثير من المشقة والمعاناة، لمن يريد أن يرسم صورة كاملة أو قريبة من الكيال للفكر العربي المعاصر في جوانبه المختلفة (الأدب. التاريخ. الاجتماع. الدين، السياسة، الاقتصاد) فليس هناك فهارس كاملة لهذه الصحف والمجلات. وليس من اليسير أن يراجع الباحث في موضوع واحد كل هذه الصحف والمجلات.

وإنه لابد من أن تعد فهارس كاملة (1 ــ للصحف اليومية) للأهرام والمقطم واللواء والمؤيد والبلاغ وكوكب الشرق والسياسة والجريدة و (٢ ــ للمجلات كالهلال والمقتطف والرسالة والثقافة والسياسة الأسبوعية والمنار وهي أطول هذه الصحف والمجلات عمراً.

* * *

هذا جانب من تجربة العمل الأدي، أما التجربة الأخرى فهي في مجال دراسة أعلام الفكر العربي المعاصر. فإن كتابة التراجم فن مجتاج إلى حصيلة ضخمة من الخامات التي تمكن من فهم نفسية الشخصية التي تدرس وآثارها وأعالها. وهناك بضع عشر شخصية هي التي تستأثر بكتابات الكتاب وقد صدر عن إحداهما كتاب وخمسة بل وعشرة... مشال ذلك جمال الدين الافغاني وعمد عبده وقاسم أمين وشوقي وجبران ورفاعة الطهطاوي والشدياق ومي ولطفى السيد وطه حسين والعقاد والمتفلوطي.

أما باقي شخصيات فكرنا العربي المعاصر فإن الكتاب يتحامونها مع تقديرهم لفضلها وأثرها، أما السبب فهو أن المادة الخام الموجودة عنهم قليلة، في مجال الكتب المؤلفة، والحق أن المادة الخام كثيرة وكثيرة جداً ولكنها مدفونة في بطون الصحف والمجلات كها ذكرت.

وإن لدينا كها قلت أكثر من مائتي شخصية كـاتبة نشرت آثارهـا في الصحف وتركت أثرها في السياسة أو الاجتماع أو الأدب أو الشعر أو الدين وفي مجال الرحلة أو الترجمة أو الرسالة أو البحث، غير أن عجزنا عن العه المجهد من أجل الحصول على هذه الأثار هو الذي يقف بنا دون العمل.

ولقد نظرت فرأيت مثلًا أحد زكي باشا وله أكثر من ألف مقال الصحف خلال أربعين عاماً أو أكثر منثورة في الأهرام والمؤيد واللواء والمقط والهذال والمقطف، وهو بدون ترجمة شاملة، وكذلك عبدالعزيز جاويش وفر، وجدي وأحمد وفيق واحمد تيمور، وحافظ عوض، والصحافي العجوز صاحد ألهامش (توفيق حبيب) الذي كتب هامشاً يومياً لمدة لا تقل عن سبعة أعوا لها أكثر من ألفي خاطرة يمكن أن تصور خلاصة تجاربه وذكرياته رسم . (صورة المجتمع) في عصره.

وكذلك هناك عشرات آخرون جديرون بالدراسة والترجمة، آثارهم . نزال في بطون الصحف.

وإذا كان الكشف عن هذه الأثار قد يصبح يسيراً بالمعانـــاة والعما الشاق بين أضابير دار الكتب بالقلعة وبين صحف قد علاها النراب الذي

يدخل في الخياشيم، وبين صحف قد تأكلت لأن لها أكثر من ٧٠ عاماً مثلًا تقلب، فإن المشقة الكبرى والمعاناة الضخمة هي في البحث عن «أسر المترجم له» وهذا أمر بالغ القسوة.

وأستطيع أن أقول إن كثيراً من كتابنا الذين عاشوا هذه الفترة والذير ماتوا في السنوات العشرين الأخيرة، قد خلفوا مكتبات ضخمة عامرة، تفس من ١٠ إلى ٣٠ ألف مجلد فأين هذه المكتبات، إن أغلب هذه المكتبات قا ضاعت وبيعت وصفيت بطريقة مؤلة للنفس، وقدياً كان المرحومان أحما تيمور وأحمد زكي يقرآن كل يوم عامود الوفيات بالصحف اليومية فإذا قرء نعياً لعالم أو أديب أسرعا فاشتريا مكتبته، أما الآن فقد أصبح اعتباد النامر على المكتبات العامة. ومن هنا ضاعت مكتبات كثيرة بالتسرب ولو أن هذ التسرب بلغ إلى (سور الأزبكية) فإنه يكون نافعاً، ولكن المظنون أن بعض هذه الكتب تبيعها الخادمات إلى بائع البقول والترمس والبطاطا مع الأسف بثمن بخس.

وإذا كان بعض أدباتنا قد تنبهوا لذلك اليوم وأخذوا في التوصية كمكتبات لدار الكتب أو الجامعة أو الأزهر، فإن الأمر الشاق هو والأوراق الحاصة، فإن هذه الأوراق قلها يعثر عليها الباحث. وإني لأذكر أنني أوليت الهناماً كبيراً لشخصية غامضة مجهولة في تاريخنا هي شخصية وإبراهيم اللقاني، كان الرجل من تلاميذ جال الدين الأفغاني حتى وصفه الشيخ رشيد رضا بأنه النلميذ الثاني بعد محمد عبده لموقظ الشرف، وقد أحببت أن أكتب عنه دراسة فلم أجد إلا بعض كتاباته في جريدة ومرأة الشرق، عامي ١٨٧٨ و ١٨٧٨ و ١٨٧٨ و وقبل هذا، وبعد هذا لا شيء إلا مقال في رئائه لصاحب المنار، وكنت أعرف أن نجله وسني اللقاني، قد توفي منذ أمد، فأردت الاتصال بأهله، فهاذا علمت! علمت أن مكتبة إبراهيم اللقاني لها أكثر من أربعين عاماً في وبدوم، إحدى البيوت القديمة، وإن هذا البدوم يغرق كل عام، وما تزال أوراقه هناك!

أما فريد وجدي فقد حاولت أن أحصل على بعض كتاباته أو رسائله أو مذكراته أو أصول مقالاته فلم أعثر عند أهله على شيء مطلقاً، أما (كامل كيلاني، فقد تفضل رحمه الله فأوصى لي قبل موته بهذه القصاصات والرسائل التي انتفعت بها وأذعتها في دراسة عنه كشفت كثيراً من الجوانب الغامضة في عصره وأدب رصفائه.

وكذلك عجزت عن الحصول على بعض آثار «عبدالعزيز جاويش» عند أهله ما عدا قصيدة واحدة ورسالة إلى أحد أصهاره.

وهناك نوع آخر من هذه المشقة، واجهتني في دراسة وأحمد زكي باشا، فقد كنت أعرف أن له آثاراً وملفات وقصاصات وغرفة كاملة لأثاره عند أحد معارف، ولقد قصدته في ذلك وظللت أتردد عليه أكثر من ثلاثة أعوام آملاً في أن أستكمل صورة الرجل ببعض كتاباته وخطاباته ومذكراته، والرجل يراوغني على نحو عجيب، حتى صدر كتابي، وهنالك اتصل بي معتذراً باعذار واهية، رسائل الباحثين التي تصل إلى معارفهم، وإذاعتها هو عمل بعيد الأثر في إغناء حصيلة العمل الأدبي وكذلك التوسع في إعداد الفهارس عن الصحف والمجلات الكبرى والشخصيات البارزة، ولا شك أن العمل الذي قدمه الاستاذان كحالة وداغر في كتابيها معجم المؤلفين، ومصادر الدراسة الأدبية، نافع إلى أبعد حد، وإن كنا ما نزال نترقب أن يفي الاستاذ يوسف أسعد داغر بوعده بإصدار الاجزاء الأخرى من موسوعته وهي معدة فعلاً وجاهزة للنش

وهكذا إما أن تضيع هذه الآثار أو يبخل بها أصحابها، ولذلك فإن إسراز



الفصل الخامس

تجربة القراءة وصحبة الكتاب

إن نظرة واحدة إلى الكتاب في حياة أي باحث، إنما تمثل خيطاً طويلاً ممتداً، له مصاعده ومهابطه، وله تعرجه واستقامته، وله انحناءاته المتعددة، وجريانه شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً دون أن يتوقف.

كنت في هذا الأسبوع من عام 19۷۱ أراجع دائرة معارف فريد وجدي مادة مادة، فعادت بي الذكرى إلى عام 1۹۳۱ عندما قرآت في دائرة وجدي لأول مرة، وبينها تاريخ طويل وعمر طويل. كانت تلك المدة لشاب في مطالع الصبا، يخرج من دارتهم، فيمضي إلى اليمين طويلاً حتى يجد قصر الدكتور محمد أمين إسراهيم، وهناك كانت أضخم مكتبة مفتوحة، وكان الطبيب رقيقاً، يعطيني بجلداً بعد بجلد، وكنت أقرأ وأحاول أن أفهم ولكني الأن وأنا جالس على مقعدي في دار الكتب في باب الحلق، أنظر فإذا هذه الموسوعة وكاتبها وبعض موادها له في نفسي تاريخ تكون مع الزمن وتشكل، وهو خيط من خيوط المعرفة المشابكة نتيجة تجربة واسعة مع المراجع ودوائر المادف المحدلة المحتلفة.

كانت دائرة معارف فريد وجدي في مقدمة قراءاتي منذ مطالع الصبا، وكذلك مقدمة ابن خلدون بين عديد من مراجع وأعيال كبرى منذ أربعين عاماً، أما اليوم فإنني حين أحصي قراءاتي فإنها قد اتسعت وتعمقت وامتدت، ولم يكفها شيء، ولم نقف عند حد، لا عبرة بالعدد أو الأرقام وإنما العبرة بأن يكون الكاتب يعرف أغلب المصادر العالمية وأساء المؤلفات الكبيرة، وأن يكون قد نظر في ذلك وشكل له حصيلة تعينه على البحث في أي المراجع

ليجد حاجته في الوقت المناسب ولقد كان ذلك من أهم ما عنيت به، قرآم بطاقات دار الكتب وهي تربو على مليوني بطاقة وأحصيت في كراريس بعض أسيائها، راجعت فهارس المجلات الكبرى كالهلال والمقتطف والمشرق والمذ والرسالة والثقافة وأحصيت منها بعض رؤوس موضوعات. راجعت جريا الأهرام على مدى عشرين عاماً بين الحربين، وراجعت المقطم والمؤيد واللو والبلاغ وكوكب الشرق والجهاد وغيرها من الصحف وعشرات من المجلاء العديدة والدوريات التي عرفتها بلادنا في خلال هذا القرن، كل ذلك م أجل تقدير موقف القدرة على التعرف على (موضوع) معين في وقت ما.

كان بجواري أمس أستاذ جليل يبحث عن فيلسوف غربي هو هميجا وكنت أعرف أن هناك كتاب لعبدالرحمن بدوي وبحثنا عنه في مكتبة كبن النظفر به، وشعرت أن صاحبي في حاجة إلى أن يلم إلماماً سريعاً بقا له علمين من المقتطف في كل منها بحث عن هيجل وكانوا في الثلاثينا، له مجلدين من المقتطف في كل منها بحث عن هيجل وكانوا في الثلاثينا، يقولون (هيكل) ودهش الرجل ولكني لم أدهش فقد قدرت حاجتي في أن يقولون (هيكل) ودهش الرجل عن «موضوع ما» أن صحبة الكتاب في سبيل المقافة، أو في سبيل القراءة، أو في سبيل المراجع والبحث أمر يكلف كثر من القدرة على الاستيعاب، وهناك من إخواننا من يفوقني في هذا المجال كثر وما ذلك أذكر هلال ناجي ومحمد عبدالغني حسن ووديع فلسطين وخيرم العجيبة في حفظ مئات من أسهاء الكتب في موضوعات غتلفة.

صغيراً تحت عنوان (الأخلاق) للأستاذ صادق... وكان أجل ما يشغلني فيه الباب الناسع عن (المثل الأعلى) لم أكن يوم قد عرفت شيئاً عن فلسفة الأخلاق، ولم أكن قد وصلت إلى مغومي اليوم ف وأنا أجد المؤلفين يتقلون مفاهيم اليونان وآراء أرسطو، بينها للفكر الإسلام العربي مفهوم في الأخلاق جد مختلف.

ومشقةٍ في آن فإذا ذهبت أبحث في مكتبتي عن أقدم كتاب وجدته، كتاب



الفصل السادس

تعلمت من قوائم الكتب

من ألطف ما يكان يلفت النظر في سن السابعة عشرة لجيئنا سطر صغير في اسم مكتبة من الكتبات وقد كتب تحته «ترسل قائمة الكتبة بجاناً لمن يطابها» إذن فليس هناك بيني وبين الحصول على كتاب ضخم في أربعهائة صفحة من أن أرسل خطاباً في البريد يحقق في هذا الأمل. ومادام الريف لا يقدم لننا إلا تلك الحزائن التي تحوي الكتب الصفراء ولم نكن نعرف قيمتها وما فيها من جواهر وذخائر هي سر عظمة أمتنا وخلاصة فكرها، وبعد أيام قليلة برد البريد إلى قريتنا وفيه هذا الكتاب الضخم «قائمة مكتبة». وقد أصبحت عادة، ما أن تعلن مكتبة عن نفسها حتى نسارع بالارسال طالبين القائمة

ومن حق، لقد كانت مطالعة هذه القائمة في هذه السن في الثلاثينات من هذا القرن متعة لا حد لها. وهي عوض مسعد عن مطالعة هذه الكتب أو رؤيتها في رفوفها الزجاجية بألوانها الخلابة وأغلفتها المنوعة.

كانت هذه القوائم تبدأ دائماً بالتعريف بالمكتبة وحسن معاملتها واستعدادها لتلبية رغبات عملائها، عددة أسعار العملة وطريقة التحويل وخصم الجملة للمكتبات والمدارس وطلبات الجملة. وهناك نص أساسي هو أن جميع الطلبات يجب أن تكون مصحوبة بعربون لا يقل عن ثلث الثمن.

وكانت هذه القوائم مقسمة إلى أبواب تبدأ بالقرآن الكريم وطبعات المصاحف المختلفة على الورق الأبيض والورق الأصفر، والمجلدة تجليداً مذهباً وتجليداً عادياً، والأحجام الكبيرة والأحجام المتوسطة والصغيرة، ثم يليها كتب التفسير والحديث النبوي والفقه ثم التصوف والزهد والعقائد والمواعظ، ثم يلي ذلك التاريخ والسير والتراجم ودواوين الشعر واللغة بقواميسها العربية ومعاجمها ثم دوائر المعارف والموسوعات والقصص، والفلك والرياضيات، والهندسة، والزراعة، والمنطق، والاجتماع، والأخلاق، والعلوم، ثم التربية، وعلم النفس، والمحاسبة، والاقتصاد.

وكان يلفت نظري بوجه خاص كتب التراجم والسير والتاريخ ثم كتب الأدب، وأتمزز ببطء تلك السطور القليلة المكتبوبة تحت اسم كمل كتاب، تصف مضمونه وما يحويه من أبواب وفنون، وكنت أعاود قراءة هذه الكلهات بين حين وحين، رغبة في الحصول على أكبر قدر من المعلومات التي عجزت عن الحصول عليها بقراءة الكتاب نفسه.

ومن الحق أن هذه القوائم وأنا لازلت طالباً في أول الشوط، قد أمدتني بكثير من المعلومات العامة إن لم تكن عميقة فإنها على الأقل متسعة تنصل بفنون مختلفة من الثقافة العربية والفكر الإسلامي العربيق. وإذا كان لي أن أحدد اليوم و وبعد حوالي أربعين عاماً والانطباع الأساسي الذي انعكس من بعد على كتاباتي وانتاجي، فإنني أقول بحق أن الإدمان على قراءة قوائم الكتب في مطالع الصبا قد أعطاني طابع التكامل والشمول في بحال الثقافة والفكر، فلم يعد تقديري قائماً على لون واحد هو «الأدب» ولكني أصبحت أحس بأن الأدب ليس إلا قطاعاً من الفكر العربي الإسلامي الواسع الأفاق والذي يضم الاجتماع والاقتصاد، والسياسة، واللدين، والادب، والعلم، والذي يضم الاجتماع والاتفاقة العربية منفصلة أو مجزأة، ولكنها تتكامل وتنداخل ولا يأتي التخصص فيها إلا في المراحل العليا، أما القيم الأساسية فيها فإنها كثال كياناً متكاملاً يدور حول الإنسان والكون والمجتمع وبحاول أن يحقق له العلم العلم العلمي العربي في تكامله حيث يشمل النقافة الإنساني: الروح والمادة.

وإني الأذكر كيف كانت مطالعة قوائم الكتب تجعلني في مقدمة زملاثي الطلاب في الصفوف المختلفة، وكيف كانت موضوعات الإنشاء تتسم بطابع يلفت النظر.

وقد هداني ذلك إلى أن ألقي عاضرة عام ١٩٣٧ في المدرسة الإبتدائية عن «الأدب العربي الحديث» أعرض فيه للعقاد، والمازي، والزيات، وطله حسين، وهيكل، وشبوقي، وحافظ، وأحمد محرم، وأتحدث عن مؤلفاتهم وموضوعاتهم وخاصة كتاب «ساعات بين الكتب» للعقاد، و «قبض الربح» للهازي، و «روفائيل وآلام فرتر» للزيات، و «الأيام» لمطه حسين، و «في أوقات الفراغ» لهيكل. ويومها عدت إلى درجي في الفصل فوجدته مقلوباً مضطرباً، فقد عن لبعض الأساتذة أن يبحث عن كراسة الإنشاء ليقارن بين ما ذكرته في المحاضرة وما أكتبه في هذه الكراسة ظناً منه أنني «سرقت» هذه المحاضرة من بعض المجلات.

وما زلت أذكر كيف أنني دعيت لمرافقة بعض الفلاحين يبوم قطع الفيضان جسر بلدتنا حيث أقيم لي عريش صغير في أحد الحقول لنقل الحطب إلى الجسر لحيايته، وكيف أن هؤلاء الفلاحين قد ذهبوا يجنون بقايا الأقطان من الحطب ويضمونها إلى عبوبهم، ثم رأوا في آخر اليبوم أن يشركوني في حصيلة ما جمعوه فقدموا لي مبلغاً من المال، وقد رفضته على الفور، غير أن بعضهم كان يعرف هوايتي في قراءة قوائم الكتب، فأسرع وقد عرف عنوان هذه المكتبة، فاشترى حوالة بريد باسمي بالمبلغ الذي رفضته، قائلاً: «إنك تجب الكتب ولذلك فإن هديتنا إليك ستكون بعض هذه المؤلفات، وما زلت أذكر كيف تلقيت بعد أيام «ربطة» ضخمة كانت تحوي بعض مؤلفات هؤلاء جتى الكتاب. وقد فرحت بها فرحاً لا حد له وكانت هي نواة مكتبتي، ولا تزال بهاحتى اليوم.

وما زلت أذكر إلى اليوم عن ذلك الكاتب الأديب المجهول الذي كان يكتب في قوائم المكتبات تلك السطور القليلة تحت كل كتاب في التعريف به، ويبدو أنه كان أحد رجال الأزهر الذين يعملون في هذه المكتبة أو تلك، غير أن هذا الفن، فن التعريف بالكتب، قد تقدم في السنوات الأخيرة تقد باهراً، وأصبح يقوم به رجال متخصصون، أذكر منهم اليوم الأستاذ محم عبدالغني حسن الذي أشرف عل قوائم عدد من دور الكتب الكبرى، ول أعد نوعاً من فريداً من القوائم السريعة الشبيهة بالمجلات تحت اسم وبر الكتاب».

ولقد كانت تجارة الكتب في العقود الأولى من هذا القرن عملاً مربر للناشرين وأصحاب المكتبات بينها كان إيرادها ضيئلاً جداً بالنسبة للمؤلفين ولقد كان أمثال العقاد والمازني بيبعون مؤلفاتهم للناشرين لقاء جنبهات قلم لا تتجاوز أحياناً أصابع اليد الواحدة ويحصلون عليها قروشاً وأنصا ريالات. ويشترط الناشر أن يكون له حق طبع هذه الكتب وإعادة طبع مدى الحياة.

فضلاً عن ذلك، فقد تنبه أصحاب المكتبات إلى طبع الكتب التي ليد لاحد حق فيها، فطبعوا عشرات الكتب القديمة في وقت كانت أسعار الور زهيدة جداً، وإنني لأذكر كيف سافرت من بلدي في الريف إلى القاهرة، و يحمع لي بعض الجنبهات، في سبيل الحصول على مجموعة من الكتب، ف ذهبت إلى الكتبة المرموقة في مكانها المعروف في قلب القاهرة، قال لي البا فهذه الكتب ليست عنده ولكتها في المخازن الموجودة قريباً من الأزهر، ف ذهبت إلى هناك إذ بي أجد قبواً مهيباً مظلماً تحت الأرض وقد علا عليه نظ الشوارع الجديد فاختفى وأصبح يضاء بالفوانيس والكهرباء، وإذا بي أم مدينة كاملة تحت الأرض تتكدس فيها الكتب على اختلافها بأعداد ضخ مدينة كاملة تحت الأرض تتكدس فيها الكتب على اختلافها بأعداد ضخ مثل هذه وصواصل عديدة. وذكرت كيف تنبه هؤلاء الناشرون إلى مثل هذه الكتب ستصبح فيا بعد ثروة ضخمة لهم ولأبنائهم وقد كان.

وهكذا كان شغفي بقوائم الكتب مقدمة لخط واضح ما زلت أسير ا إلى اليوم، هو خط الكتب والتأليف والطبع والنشر، وما زلت كلما وقعت يدي قائمة من قوائم المكتبات أذكر مطالع حياتي الادبية منذ اربعين عاماً و قابع في الريف، أحلم برفوف الكتب وواجهات المكتبات التي لم تكن زجاج في ذلك الوقت، وكان يمر بخاطري يوماً أن يكون في كتاب معروض، فلها قدمت القاهرة وأقمت بها، قرأت عشرات من هذه الكتب، وأصبح في منذ بضع وعشرين سنة موقعاً في دار الكتب لا أغيب عنه إلا لماماً، وقد قرأت به مئات من الكتب، بل لقد اضطررت، وأنا أعد «الموسوعة الإسلامية العربية» الجامعة، أن تكون في فائمة تضم أسها، الكتب التي تلزمني وأرقامها، حتى لا يضيع الوقت كل يوم في البحث عن هذه الأرقام. ومن ثم عكفت على دراسة ما يزيد على نصف مليون بطاقة أخذت من الوقت أكثر من خمة أشهر راجعت فيها بطاقات يحويها أكثر من ١٨٠ صندوقاً، وأعددت من خلال ذلك بعلماً ضخمة يحوي أكثر من خمة آلاف كتاب، هذا، بالإضافة إلى فهارس ضخمة للصحف والمجلات التي صدرت منذ ١٨٧٧ حتى اليوم، ومنها فهرس ضخمة للصحف والمجلات التي صدرت في الفترة الممتلة ما ين الحربين الحربين الحربين عوي مواد الأهرام الأدبية والفكرية والاجتماعية والاحداث التريخية.

وقد علمتني قوائم الكتب كثيراً، علمتني حاجة الباحث الملحة إلى متابعة كل ما يصدر من مؤلفات، فكل يوم يصدر كتاب جديد، ولعل كتاباً يصدر في موضوع، أو عن شخصية ما، يغنينا عن ساعات طويلة من البحث قد تكفل لها هذا الباحث.

ولقد ظهرت في السنوات الأخيرة بعض المؤلفات الجامعة التي تعين البحث على الوصول إلى المراجع التي تحتاج إليها وفي مقدمتها وقوائم الكتبات العامة»، وقدائه ومعجم المؤلفين، للباحث العلامة عمر رضا كحالة، ووالمصادر الأدبية، للباحث المكتبي يوسف أسعد داغر، بالإضافة إلى الأعلام للزركلي.

ومن حق، أن قوائم الكتب، كانت ولا تزال، نافذة ثرة تطل على عالم الفكر العربي الإسلامي وتعطينا أول ما تعطينا انطباع التكامل والشمول الذي يتمثل به هذا الفكر جامعاً بين العلوم والفنون والأداب في سمت واحد متصل لا ينفصل.



الفصل السابع

العقيدة الفكرية للكاتب المسلم

تتمثل عقيدة الكاتب المسلم الفكرية في إيمان صادق عميق بتكامل المواجهة، ليس الإسلام وقصور المفهوم الوطني والقومي والأدبي، وبتكامل المواجهة، ليس إزاء الماركسية وحدها ولكن الفكر الواقد جملة وتقرر هذه النظرة خطر المفهوم الجزئي والانشطاري الذي تنطلق منه النظريات الوافدة وكل منها يتوقف عند بعد من الأبعاد لا يتعداه بينا يستقطب المفهوم الإسلامي جميع الابعاد؛ من حيث الزمن وأحواله ومن حيث البيئة وتنوعها ومن حيث جمع العناصر كلها في منطوق واحد متكامل.

كذلك فإن مهمة الكاتب المسلم: هي جزء من مهمة الدعاة إلى الله عليهم أن يحرروا الشخصية الإسلامية من التبعية بكل صورها وألوانها للتوصل إلى تأسيس وتأصيل مدارس واتجاهات إسلامية تسعى وتستوعب العلوم الحديثة وتفرغها في إطار إسلامي، وتعمل على تأصيل الفنون والآداب والعلوم الاجتباعية والسياسية والاقتصادية.

ومن عقيدة الكاتب المسلم الإيمان بأن حركات التحرر من الاستمار في العصر الحديث لم تنجح إلا عندما ارتكزت على الإسلام، وقد انتصر المسلمون في كل معارك الغزو بالمفهوم الإسلامي لا بالمعنى القومي وكل قضاياهم الني عالجوها بالمفهوم المقومي لم تحقق نجاحاً.

ومن عقيدة الكاتب المسلم: الإيمان بأن: لانهيار الأمم أسباباً كثيرة من أخطرها قطع الصلة بالماضي (التاريخ)، أو قطع الصلة بما وراء الطبيعة (الغيب) أو قطع الصلة بالمجتمع، فإذا انقطعت الصلة بواحدة من هذه جاء الخوف والقلق والتمزق. وإن علاقات الإنسان بربه وينفسه وبالكون وبالناس هي مضدر قوته وأصالته.

ومن عقيدة الكاتب المسلم: الإيمان بأن الحياة ليست منفعة أو مادة ولكنها جرية غير ولكنها جراة طرة طرة ولكنها حرية غير مطلقة لأنها تتحرك داخل إرادة الله. وإن للكون قوانين ثابتة وسننا طبيعية ولكنها نخضع للمعجزة الإلهية وأن الله تبارك وتعالى قادر على نقض هذه القوانين متى شاء وإيقافها متى أراد. وأن في الفكر الإسلامي عقلانية ولكنها ليست هي كل شيء فهناك الوجدان، وأن هناك مادية ولكنها ليست كل شيء فهناك الروح، وأن حرية الإنسان مقيدة بالضوابط الأخلاقية والمسئولية الفردية التي أقامها الدين وهناك ضوابط وحدود والاقتصاد عامل مؤثر في مجرى التاريخ ولكن ليس الأكبر أو النهائي أو الوحيد.

ومن عقيدة الكاتب المسلم أن الفكر الغربي قد سيطرت عليه الفلسفة المادية فأصبح لا يعنى بالروح أو المعنويات وأصبح انشطارياً غير متكامل، وأن حضارة الغرب تمر الآن بجرحلة الأزمة فقد عجزت عن أن تعطي سكينة النفس وأن الفكر التلمودي أصبح الآن مصوغاً في مناهج وفلسفات منها الوجودية والفرويدية والماركسية ومدرسة العلوم الاجتهاعية وأن فرويد ودوركايم وسارتر وماركس يمثلون سيطرة التلمودية على الفكر البشري.

ومن عقيدة الكاتب المسلم التفرقة بين الشريعة الإسلامية وتداريخ الإسلام فهذه هي رسالة السهاء وتلك هي تجربة الإنسان في عداولة إقدامة المجتمع الرباني على الأرض، والتفرقة أيضاً بين التقاليد والأخلاق، فالأخلاق جزء من العقيدة المنزلة. والتفرقة بين الأصيل والوافد، بين الفكر المرباني والفكر البشرى الوالغ في الوثنية والمادية والإباحية.

ومن عقيدة الكاتب المسلم أن يواجه ثلاثة تحديات خطيرة في المجتمع الإسلامي:

الأول: التحدي المنبعث من واقع المسلمين، الجمود والجبرية وكبت البدع والخرافات. الثاني: التحدي المنبعث من الغزو الفكري والتغريب والشعوبية.

الثالث: التحدي المنبعث من الهزيمة النفسية إزاء إباحيات الحضارة.

وأن يؤمن بأن هدف التغريب (في خدمة النفرذ الاجنبي والشبوعية والصهيونية) هو هزيمة العقل الإسلامي بإذاعة الإلحاد وتعريض المجتمع والأسرة بنشر الإباحية وتكوين مركب نقص في أعهاقنا يشعرنا بالهزيمة إزاء حضارته المادية.

وأن نتمشل أنفسـنا كأمـة لهـا تراثها وتاريخها وعقيدتها التي تتميز على كل العقائد والقيم بأنها ربانية وأنها سبيل الرشاد والهدى إلى الحق.

ومن عقيدة الكاتب المسلم: رفض التطور على حساب الأصالة ورفض التحدم على حساب التفريط في الجذور والقيم الإسلامية، كما رفض تضحية القيم العليا في سبيل التقدم المادي وأن الإسلام لم يخضع مفاهيمه للحضارات وأهواء الأمم ذلك أنه ليس في المناهج والدعوات والإيدلوجيات المطروحة من شيء إلا وعند المسلمين في ميرائهم وتراثهم نظيره أو خير منه وهو في الغرب مقطوع الصلة بالله ولكنه في الإسلام متصل بالحلقات، هو في الغرب انشطاري ولكنه في الإسلام جامع متكامل.

ومن عقيدة الكاتب المسلم أن كلا من التجربين الغربية والشيوعية مرفض في أفق المجتمع الإسلامي وأن التجربتين كاننا لمجتمعين مختلفين عن عجتم الإسلام وأن الماركسية ما هي إلا جزء من نظام غربي وأنها رد فعل لواقع الرأسيالية الغربية التي عجزت عن إقامة مجتمع سليم وأن كلاً من الرأسيالية والماركسية من مصدر واحد قواصه سيطرة الربا على الاقتصاد العلى.

وأن الفكر الغربي عاصر الآن بثلاث نظريات: هي الننظرة المادية والدوافع الاقتصادية والدوافع الجنسية وأهواء الوجودية وكلها تحتقر الإنسان احتقاراً شديداً، وهناك الجبرية التي تريد أن تخلي الإنسان من المسئولية الفردية وتلقى هذه المسئولية على المجتمعات وتلقي هذه النظريات على المجتمعات الغربية طوابع المتع الحسية والقسوة والحقد والبغض والاهتهام بالكم وتضحية النوع والكيف وأن ذلك كله يقوم في نظام مفهوم مادي خالص.

على المفكر المسلم أن يكون على احساس راع بالنوافذ واالبراب الحارجية وما يهب على المسلمين منها من رياح وتيارات وأن لا يغلق الباب على المسلمين منها من رياح وتيارات وأن لا يغلق الباب عليه ويظن أنه أصبح في مأمن وأن لا يمنعه قضاء أو رأي ارتآه في يومه ثم المدب الإسلام الجامع، واقعياً في دراسة المشكلات والقضايا متكامل النظرة في علاجها يجمع بين المثالة والتجربية، بين خطرة الفكر ونفثة الروح بين المقلانية والوجدان ويجب أن يعي بأن هناك أخطاراً دخلت على المسلمين من شأنها أن تحطم الشخصية أو تدمر الأسرة؛ هي أخطار عبادة الحياة واللذة والصور المعلقة فوق السرر وليعلم أن أعلى درجات الرقي والثراء والغني هي أعلى درجات التموق والإلحاد والغربة وأن المجتمع المتحضر الأن في ذروته ليحكف على المويقات والمخدرات أو الانتحار ويواجه أزمة النهاية ليفسح مكانه لتجربة أخرى.

وعلى المفكر المسلم أن يؤمن بأنه لم يخلق ليندفع مع التيار ويساير الركب البشري حيث سار بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والحضارة ويفرض عليها مفهوم لا إله إلا الله وأن يوقن بأن النظرة الإسلامية هي النظرة الجامعة التي لا تقف عند الجانب المادي أو الدنيوي في أي من تجارب الحياة فهي تجمع العصر والعلم والتحضر والأخلاقيات بمقياس ذلك كله وأن يعلم بأن الجسم الإسلامي مازال يرفض العضو الغريب وأن الكيان الإسلامي مازال يرفض الجسم الغريب الخيب وأن الكيان الإسلامي مازال

وعلى المفكر المسلم أن يؤمن بأن من أخطر المحاولات التي تجري هي ضرب الإسلام بالإسلام أو ضربه من الداخل أي ضرب الإسلام الأصيل ببعض الفرق الضالة والطوائف الدخيلة مثل القاديانية والبهائية وكلها تتلقى التوجيه والمعونة من المستعصرين والمبشرين واليهود هذه الفرق التي تشرع الأتباعها من الدين ما لم يأذن به الله مستغلة اسم الإسلام لهدم الإسلام ولقد خدعت هذه الفرق بعض كتاب الإسلام وظنوها أنها من علامــات اليقظة والنهضة.

وبعد: فإن هناك قدراً ضخاً من المعلومات والأخطار والأخبار يطرح يوماً في أفق المجتمع الإسلامي عن طريق الصحافة والإذاعة والكتب المترجمة أو وسائل الإعلام المختلفة، هي وجهات نظر متراكمة لمجتمعات أخرى فيها مادة نافعة قليلة وفيها زيف كثير فكيف يكون موقفنا منها نحن كتاب المسلمين والصحفيين المسلمين وهي تمثل وجهات نظر تختلف في الأغلب وتتعارض في الأكثر مع مفاهيمنا الأساسية وقيمنا الثابتة، ذلك لأن كل ما يطرح من خبر أو فكر إنحا يشتمل على جزئين متداخلين: حقيقة ما: هي عبارة عن خبر ووجهة نظر أو تعليق أو تحليل لهذه الحقيقة تمثل رؤية الذين بثوا هذا الخبر. ونحن نعرف أن هناك غرابيل دقيقة جداً لا تنفذ منها الأخبار حين تبث في العالم الثاث إلا وهي مطعمة بوجهة نظر الصهيونية أو النهوذ الأجني أو الشيوعية الشائم يكون موقفنا نحن المسلمين من هذا الإعصار الضخم المدمر الدائم المستمر يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة.

لقد علمنا الإسلام أن نقف من المعرفة المعروضة علينا موقف اليقظة والحذر: وأن نتعرف عليها في ضوء قيمنا وعقيدتنا وأن نفرق بين العلوم ويبن الثقافات وبين المعارف النافعة والمعارف الضارة من لهو الحديث ليضل الناس بغير علم.

ونعرف أن هذه المحاولة في طرح معلومات علينا بوجهات نظر تختلف عن وجهة نظرنا إنما يهدف إلى احتوائنا والسيطرة علينا وإدخالنا في دائرة الأمجية. ومن أجل هذا فإن علينا أن نفرق تفرقة واعبة ودقيقة وعميقة بين وجهة نظر الفرس الغربي بشقيه على أساس أصيل ثابت: هو أننا نقوم على أمانة الفكر الرباني القائم على الترحيد الخالص والرحمة والعدل والإنحاء الإنساني وأن ذلك الإعصار الجائح الذي يتحرك نحونا هو من الفكر البشري القائم على المادية والعلمانية والوثنية.

هذا وبالله التوفيق.

الفصل الثامن

عندما يكون الإسلام منهج الحياة

أعطانا فهمنا للإسلام على أنه نظام مجتمع ومنهج حياة تفسيرا واسعا ومختلفاً لكل معطيات الفكر المطروحة في الساحة، ولكل قضايا الثقافة والأدب والاجتماع، أنه يكاد يكون عاملًا خطيراً يفرق بين الحق والبـاطل ويكشف زيف تلك المسلمات المطروحة والتي أصبحت وكأنما هي حقائق لكثرة ما رددتها أقلام التغريبين، لقد كانت هذه الدعوة، بمثابة الضوء الكاشف للحقائق والنور الهادي إلى الطريق الصحيح والصراط المستقيم، ذلك لأنها استمدت هذا المفهوم من منطلق القرآن الكريم ففرقت به بين طريقين مختلفين جد الاختلاف، طريق الله تبارك وتعالى الرباني الأصيل وطريق الفكر البشري، ولما كانت هذه الدعوة قد جاءت لتصحيح طريق الفكر الإسلامي أولاً والمجتمع الإسلامي ثانياً، بعد فترة طويلة استشرت فيها فكرة أن الإسلام دين عبادة وصلاة ومساجد، وقد مضى النفوذ الغربي يُوصـل هذه الفكـرة الضالة ويذيعها فلا يجد أحد تصحيحاً لها، لا من كتب المدارس التي يقرأها الشباب ولا في الصحف التي يكتبها التغريبيون ولا في الكتب والمؤلفات المترجمـة من الغرب، و لما مضى الأمر على هذا النحو طويلًا فقد جاءت هذه الصبحة لتغير العقول والقلوب وتثير ذلك السؤال الخالد الذي لا يتوقف عند التردد: ما هو موقف الإسلام من هذه القضية.

لقد حاولوا أن يقولوا: إن الإسلام هو الدين والعقيدة، وأن قضايا المجتمع والسياسة والاقتصاد أشياء أخرى وجاء المبعوشون من غرب البحر ليقولوا لنا على لسان طه حسين ومحمود عزمي وغيرهم أن الـدين شيء والاقتصاد شيء آخر، وأن المسلمين لم تكن لهم نظرية سياسية وأن الأدر العربي لم يكن إلا ممثلًا في أبي نواس وبشار وأن الفكـر الإسلامي مـأخو ومترجم من الفكر اليوناني وأن وسيلة التحرر والاستقلال لا تتحقق إلا بأه نأخذ هذه الحضارة الغربية (اللعينة) خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يجما منها وما يعاب، وهكذا مضى (التغريب) يصبغ كل شيء بصبغته، ويـرمـٍ الوجه الإسلامي الناصع الأصيل بالجمود والضعف والتخلف والرجعية حتم في بناء العيارة وفي لغة القرآن وفي مفاهيم التاريخ والتراث، هنالك كـانــــ الدعوة الإسلامية في انبثاقها، ضوءاً جديداً كاشفاً يختلف عن السياق فهو من حلقة جديدة ولكنها حلقة زائدة غنية خصبة، أضافت الشيء الكثير وغيرت الشيء الكثير وكانت بمثابة التحول الخطير والمنحني الواسع لحركة التطور التي كان معلوماً بالضرورة أنها بدأت قبل ذلك بكثير وأنها بدأت بتحرير العقيد الإسلامية من قيد التقليد منذ دعا الإمام محمد بن عبدالوهاب ثم تبعه الروا المصلحون وإذا كانت كل مرحلة من مراحل اليقظة الإسلامية لها طابعها فإد طابع هذه المرحلة التي قادها الإمام الشهيد حسن البنا كان هو بناء الجيا المسلم القادر على حمل الأمانة والمؤمن بأن يبذل روحه في سبيل حماية الوطن والعقيدة.

ولم تلبث أن وجدت الدعوة على طريقها تلك الغشاوة السوداء التي ظهرت بعد سقوط الحلافة الإسلامية في تركيا وهي دعوة التغريب التي قادها العلمانيون في تركيا بعد أن خلعوا رداء الإسلام ووضعهم النفرذ الأجنبي صورة ومثلاً أمام البلاد العربية ومصر بالذات حتى يخوضوا نفس التجربة أو يواجهوا هذا التحدي.

وكان أن حملت الدعوة لواء المواجهة بالتحدي وكشف هذا الزيف

وكنت قد قرأت ما كتبه هاملتون جب في كتابه الخطير (وجهة الإسلام) منذ ۱۹۳۳ تقريباً وكان صدمة شديدة لي قد أطلعني على حقيقة خطيرة أشد خطراً من الاحتلال البريطاني الذي كان جائباً على بلادنا، ذلك الشيء الخطير الذي كان يريد لنا ولامتنا في خفاء شديد، وهو تحويلنا إلى أمة أخرى وصيغنا بصبغة أخرى غير صبغة الله تبارك وتعالى، وهو ما كشف عنه هاملتون جب في كتابه هذا الذي لخصه الدكتور محمد حسين هيكل، كان ذلك وأنا في سن السابعة عشرة لم أعرف بعد كيف تجري هذه المؤامرة الواسعة الخطيرة التي بدأت منذ أعلن لويس حرب الكلمة على الإسلام بعد هزيمته في الحملة الصليبية السابعة في المنصورة.

وعندما نرجع إلى تداريخ الغزوة الثقافية في بلاد الإسلام نجد أن الكتاب الخطير الذي سبق هذا الكتاب هو (الغارة على العالم الإسلامي) الذي ترجمه السيد محب الدين الخطيب قبل ذلك بأكثر من عشرين عاماً والذي كشف عن خطط التبشير الغربي لإخراج المسلمين من الإسلام عن طريق الإرساليات التبشيرية، والمعاهد والمناهج التعليمية.

أما هذا الكتاب فإنه يتحدث عن مخطط آخر أوسع وأعمق، وأكثر غموضاً وخفاء، ولكنه تبارك وتعالى شاء أن يكشف أصحاب ليعدّ الله له رجالًا يقفون حياتهم عليه، وأشهد أنني عشت أفكر في هذا الأمر، وأحاول أن أفهمه، ولم تكن الصحافة ـ وهي النافذة الوحيدة المفتوحة لي ـ تستطيع أن تلقي الضوء على هذا التحدي الخطير فظل هذا السؤال يعتمل في نفسي إلى أن لقيت الأستاذ البنا عام ١٩٤٠ ومنه فهمت الإجابة التي كنت أنا مهيأ لها حقيقة حتى جعلتها من أوائل ما كتبت في صحف الأخوان عام ١٩٤٦ عندما عملت في الصحافة، لقد انفتح أمامي باب واسع خطير ما زلت أقتحم فيه، حتى يومنا هذا، أكتب فيه هذه الكلمات خلال أربعين عاماً كاملة لم أتوقف يوماً عن أن أجعل قلمي في اتجاه القذيفة المسددة إلى التغريب والغزو الثقافي في كل ميدان من مصادر الكتابة؛ ولقد أراني على طريق هذا الجيل من الدعاة الكرام البررة العاملين في هذا الميدان أشبه بذلك الجيل الذي واجه ترجمة الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية في القرن الثالث الذين وجهوا مخاطر الفلسفة اليونانية وعلم الأصنام والباطنية والوثنية والمادية، فقد طرح الفكر الغربي في أفق الفكر الإسلامي في هذه السنوات عشرات من السموم والأضاليل والأكاذيب التي أراد بها أن يصبغ فكرنا بلون غير لونه وأن يخرجه

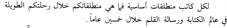
من إطاره ومساره وهدفه، وأن يجاول أن يفرض عليه طريقاً غير أسلو الرباني الحالص، ليحتويه ويصهره في بوتقة الأعية، وكان علينا أن نكش وأن ندل وأن ندل أجيالاً متوالية عليه حتى لا تقع في شرك الصيد البارع بإخ الشباك وراء رقائق مضللة وتزاويق بارعة، كان الفكر الغربي والتغريب يهد الشبري. وكنان التغريب يهدف إلى طرح مسلمات أراد أن يجعل قضو ورياً موقناً بأن المتصدرين من رجاله سيقبلون بها ويلنيعونها في النام الدعاة الحق فلن يستطيعوا أن يجدوا لها حلاً أو غرجاً. وبذلك يصبر حسين وغيره هم مشايخ الإسلام وقادته الذين يرجع إليهم الأمر، ولك تبارك وتعالى رحمة منه بهذه الأمة كشف هذه المؤامرة وعجز هؤلاء التغر أن يشتوا فكشفوا أنفسهم بحياقتهم وظلمهم فنبذتهم الأمة ولم يستمع إن يشرعا الطريق أمام المد الإس

وبعد أن كانت دعوتهم (إعادة النظر في القيم الإنسانية في ضوء الواقع ا تصحح المسار وأصبح (إعادة النظر في المجتمات في ضوء القيم الربانية ولقد وقف رجال الدعوة الإسلامية أمام التيارات الجديدة وقفة كما وقف أسلافهم أمام غنوص الشرق (فارسياً وهندياً) وكما وقف أمام . الغرب (الأفلاطونية المحدثة) موقف العداء والبغضاء يجالدها أشد . ويجاهدها أعنف جهاد ولما ركز التغريب على استخدام الأساطير والفكر ا (العطار والسهروردي والحلاج) كشفوا زيف ذلك كله، وتطوع أعلامه على ما قدمه التغريبيون وكشفوا زيف عبدائة بن سبأ وابن المقفع والا وإخوان الصفا والباطنية والحلاج وابن عربي وتناولنا ذلك في بعض مؤا

ومن ثم كانت صيحة الدفاع عن العقيدة في وجه الحرافات والا التي نشرتها البهائية والفاديـائية والبهرة ورواسب الاتجاه العلماني والما والوجودية والماسونية التي تآزرت كلها على الفكر الإسلامي لتهوينها أو منها.







نقول وبالله التوفيق ﴿ رَبُّنَا لَا تُتُؤَاخِذُنَآ إِن نُسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأْنَا ۚ ﴾ .

بدأت كما يبدأ أي متطلع إلى التعبير عن النفس بالكتابة في الريف في المنقة الحافلة بأعلام الكتابة (الشلائينات من القرن الميلادي) حيث كانت تطالعنا كتابات العقاد وهيكل والريات والمازني، وكانت الصحف طاقات ضخمة في الأدب والكتابة وكانت هناك موجات ضخمة من التغريب يحمل لواثها طه حسين وسلامة موسى وعلي عبدالرزاق ولم نكن بعد نعرف الفاصل العميق، فإن دراستنا الدينية كانت قاصرة على الصلاة والخلق، وقد جرينا عنه الدكتور هيكل عام ١٩٣٣ وبقي السؤال بلا إجابة حتى عرفنا مفهوم عنه الدكتور هيكل عام ١٩٣٣ وبقي السؤال بلا إجابة حتى عرفنا مفهوم إلى دعائها وقائدها ووجدنا أن هناك تياراً قوياً تحمل لوائه حركة الإصلاح التي استمدت من دعوة التوحيد، وغث في صحف المنار والفتح وكتابات أعلام المدعوة الإسلام ليس ديناً فحسب ولكنه إلى ذلك نظام مجتمع ومنهج حياة ومن وراء الألك تحول كبير في كل المجالات، في الأدب وفي الصحافة وفي مفاهيم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية، هذا هو التحول الخفيفي الذي طرأ

على كثير من أبناء جيلنا فصاغ نفوسنا من جديد ودفعنا إلى أن يكون للقلم رسالة حقيقية وأن نجد الإجابة على الشساؤل الذي أثاره الدكتور هيكل، حين ترجم ولخص كتاب المستشرق هاملتون جب (وجهة الإسلام) الذي كشف فيه لأول مرة أن الغرب يسعى من أجل وتغريب الإسلام، هذا الخطر الراحف من وراء الاستشراق والتبشير واحتواء مصادر الثقافة والتعليم والصحافة. ومن ثم فقد بان الصباح لكل ذي عينين.

المنطلق الأول: الأدب العربي:

ولقد كانَ منطلقي الأول هو الأدب، التعبير عن النفس وقد كان الأدب في هذه المرحلة «شيء ضخم» قائم بذاته يقول دعاته أنهم أحرار في أن يعبروا عها يريدون ولا يخضعون لأحد فقد هداهم عميدهم إلى أن الأدب العربي يحب أن ينفصل عن الفكر الإسلامي، وأن يتخوض في كل مجالات الحياة حراً لا يستطيع أحد أن يوقفه، وأن يدعو إلى الحرية والكشف وإحياء ذلك التراث السخيف من شعر أبي النـواس والضحاك وغـيرهم من الزنـادقة في العصر العباسي، وأنه يترجم من الأدب الفرنسي روايات الجنس المكشوف وأنه يجعل ألف ليلة وكتاب الأغاني مصادر لدراسة الحياة الاجتماعية الإسلامية وكان مما توصل له طه حسين أن القرن الثاني للهجرة كان عصر زندقة ومجون وامتد العمل إلى إحياء تراث إخوان الصفا والحلاج وكمل فاسق وملحد وزائف وإنكار فضل الأعلام أمثال (الغزالي) الذي يعالجه زكى مبارك في أطروحة دكتوراه، وابن خلدون الذي هاجمه طه حسين في أطروحة فرنسية، وهكذا تكشف لنا أن هناك محاولة ضخمة لإفساد الفكر الإسلامي وإشباعة روح الزندقة والإباحية خاصة بعد أن أعلن طه حسين «نظرية الشك» في كل الحقائق القائمة في الفكر والحياة العربية الإسلامية فأنكر نزول الـدين من السهاء ووجود إبراهيم وإسهاعيل عليهها السلام وأنكر الشعر الجاهلي وقال إنه منحول وضع بعد الإسلام، وأنكر عروبة مصر وقال أن العرب فاتحون كالرومان والفرس، إلخ.

وهكذا فقد كان لا بد من إعادة النظر في جميع قضايا الأدب العربي في

ضوه الإسلام وخاصة بالنسبة للمنهج الغربي في نقد الأدب وتاريخه وهو مذهب وافد يستمد مفاهيمه من نظرية دارون وفرويد وأوجست كونت و دوركايم، وهي تقوم على المادية المطلقة وعلى أن الإنسان حيوان خاضع لشهوي الطعام والجنس وهي المفاهيم التي صاغها تين وبرونتير والتي ما نزال تدرس في كليات الأدب في العالم العربي.

كذلك فقد كان الأدب يدرس على أنه أدب إقليمي خاضع لتيارات قديمة كانت قبل الإسلام كالفرعونية في مصر والفينيقية في لبنان والأشورية والبابلية في العراق وكان علينا أن ندرس الأدب العربي المعاصر: أدب أمة عربية دينها الإسلام وكتابها القرآن من المحيط إلى الخليج ومن منطلق عربي وليس من منطلق الإقليمية وكان أبرز ما قدمت في هذه الناحية: «خصائص الأدب العربي في مواجهة مذاهب النقد الوافد».

المنطلق الثاني: التراجم:

كان المنطلق الثاني هو دراسة أعلام العرب والمسلمين في المرحلة المعتدة من جمال الدين الأفغاني (مطالع اليقظة) إلى الحرب العالمية الثانية. وكنت أرى أن هذا العمل من أضخم الواجبات الملقاة على عاتق الكاتبين وذلك لإحياء تراث هذه المرحلة الذي كاد يضيع في دوريات الصحف التي تأكلت في دار الكتب، وفيهم أعلام كبار قدموا لأمتهم في مرحلة المقاومة وفي مجال الوطنية والعلم والثقافة الكثير وقد تبلور هذا المفهوم إلى دراسة جوانب المجتمع العربي كله في مجالات الطب والمحاماة والاقتصاد والجامعة والأزهر وكان أبرز ما قدمت في هذه الناحية (تراجم أعلام القرن الرابع عشر الهجري) وتضم أكثر من مائتي شخصية (وذلك غير أعلام الأدب من شعر وقصة ونثر

المنطلق الثالث: الصحافة:

وكان لي في مجال الصحافة تجربة ضخمة واسعة امتدت أكثر من أربعين عامًا وكان على أن أدرس موقف الصحافة في مرحلتين: في ظل الاحتلال وفي ظل الاستقلال دراسة كاملة. ولكن صحافة مصر خلال سنوات ١٨٧٥ إلى اليوم تمثل تجربة ضخمة _ تصل إلى قرابة قرن كامل، تكشفت فيها تيارات ومخططات بعيدة المدى، وقد وضعت في هذا الباب دراستين:

تطور الصحافة العربية، الصحافة السياسية في مصر.

وحاولت أن أدرس صحافة النكسة خلال الفترة من ١٩٤٨. ١٩٦٨ (من سقوط فلسطين إلى سقوط القدس) في دراسة خاصة تحت عنوان (الصحافة والأقلام المسمومة).

المنطلق الرابع: التحديات التي تواجه الفكر الإسلامي:

وكان هذا هو المنطلق الحقيقي بعد أن تنازعت بلادنا العربية الإسلامية أخطار النفوذ الغربي والنفوذ الماركسي والنفوذ الصهيبوني. وخاصة الفكر الماركسي في عقد الستينات اللعين على حد تعير الدكتور عبدالعزيز الدسوقي.

وفي هذا المجال حاولت دراسة الأخطار التي واجهت الفكر الإسلامي عن طريق مؤسسات التبشير والاستشراق والإرساليات ومضاهيم النعليم والصحافة والثقافة كالديمقراطية والاشتراكية والماركسية والوجودية والفرويدية وغيرها.

المنطلق الخامس: دراسة الفكر الإسلامي الأصيل:

وكان لا بد بعد ذلك من تقديم الفكر الإسلامي الأصيل من منطلق مفهوم السنّة الجامعة والتوحيد الحالص وذلك عن طريق «معلمة الإسلام» التي أخرجت خسون حلقة صغيرة إلى الآن وقد استكملت إلى مائة وذلك لإضاءة الطريق أمام المنهج الإسلامي الجامع في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية.

* * *

ولا أعتقد أنني من خلال هذا العمل الممتد الذي بدأ بصورة عامة منذ أربعين عامًا ويصورة صحيحة في إطار التحدي الحقيقي الذي واجـه الأمة العربية في الستينات، حتى اليوم على النحو الذي يجعلها نـافعة للمسلمـين مقبولة عندالله.

من هذا يمكن القول بأن التحدي بدا فعلاً في مطالع الشباب عمثلاً في كلمة والتغريب، وكان رد الفعل بفهم الإسلام مفهوماً جامعاً: هذا المفهوم الذي غير طريقي تماماً وكشف لي عيوب الفكر الواقد وأخطائه، فقد كنت لولا ذلك أراه كما رآه الكثيرون وأسير في نطاقه دون أن أتين مدى الخطر الذي بجمله، ولكن الجولة الحاسمة في حياتي حقاً كانت بعد سقوط القدس وانتشار الماركسية وتغلغلها. فقد أعادت أمام نظري الحساب، والتقدير، وبدا لي أنه من الضروري العمل في مواجهة هذا الفكر الغربي الوافد وكان هذا كله من تقدير الله تبارك وتعالى وهدايته.

من هنا بدأت تلك النقطة المضيئة التي دفعتني إلى وإعادة النظره في كل المطروح في مجال الفكر الإسلامي إيماناً مني بأن أي منهج من مناهج الفكر سواء أكانت الأدب أم الفلسفة أم التاريخ، لابد أن يبدأ منطلقاً من النظرة الإسلامية الجامعة الأساسية القائمة على أنه منهج حياة ونظام مجتمع وبذلك تبين لي مدى عمق الفارق بين فكر جامع كالفكر الإسلامي الذي كون هذه الأمة خلال أربعة عشر قرناً وبين الفكر الغربي بشقيه وهو فكر الشطاري يقوم أساساً على مفهوم المذهب المادي الذي الذي لا يؤمن إلا بالمحسوس والذي فقد من أجل ذلك شطراً ضخاً من تشكيل النفس الإنسانية القائمة على جماع الروح والمادة والعقل والقلب والمحسوس والغيب والدنيا والآخرة.

من هنا بدا لي أن المفهوم الإسلامي أو التصور الإسلامي بجمل تحفظات كثيرة على ما كتب ويكتب في صحفنا وكتبنا في العصر الحديث من مفاهيم، وكان لا بد من النظر في تلك المفاهيم المطروحة والقضايا المسلمة الحاطئة مثل نظرية ارتباط الفكر الإسلامي بالفلسفة اليونانية، ومحاولات تمزيق جبهة الأمة الإسلامية القائمة على الوحدة والتوحيد إلى فكر فارمي وفكر تركي وفكر هندي بينها صاغ الإسلام عقليات البيروني والغزالي والزغشري وعشرات من كتاب الإسلام وأخرجهم من ضيق العنصريات والسدماء وعصيبتها إلى ساحة الإسلام ووحدته فهو الذي صنع هذه العقليات وغذاها الإمسلامية بعد أن بسط النفوذ الأجنبي سلطانه على بلادنا واستهدف القضاء الإسلامية بعد أن بسط النفوذ الأجنبي سلطانه على بلادنا واستهدف القضاء على الوحدة الجامعة الممثلة في الحلاقة الإسلامية والدولة العثانية التي تجمع العرب والترك وسائر المسلمين خارج نطاق الدولة ومن هنا كان لابد من تصحيح تاريخ الإسلام الحديث والمعاصر إزاء عشرات الشبهات والكتابة الزائفة له التي قام بها خصوم الإسلام عمن تولوا أمر الصحافة العربية في إبان الإختلال البريطاني والفرنسي وخصوم الدولة العثمانية وخاصة فيها يتصل بموقف السلطان عبدالحميد عن قضية فلسطين وصموده في مواجهة اليهود وتقر البهود عليه وخلعه وما تبع ذلك من خطوات حول الاتحادين والماسون وغيرهم في سبيل تمزيق الوحدة الإسلامية بالدعوات الإقليمية والقومية الفيقة لها وبدأ بالنكبة وانتهى بالهزية والنكسة.

كذلك لابد من مواجهة أخطار الاستشراق في موقفه من مفهوم الإسلام ومحاولة إثارة دعوى (عبادية الإسلام) وفق مفهوم العلمانية والماركسية وما يتصل بقضايا الفكر النفسي يتصل بقضايا الفكر النفسي والاجتماعي والاختلاقي ومفاهيم فرويد وسارتر ودوركايم وغيرها كل هذا كان مطروحاً في أفق الفكر الإسلامي على أنه علم خالص بينا لم يكن أكثر من نظريات فلسفة لا علمية قبابلة للخطأ والصواب وفروض قدمها علماء الغرب الماديين في غيبة المنهج الرباني الجامع الذي عرفه الإسلام.

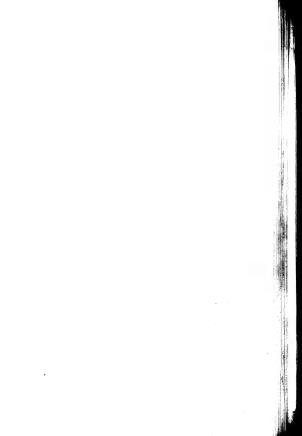
وهكذا كانت هذه النقطة المضيئة في فهم الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع جديرة بأن تفرض تصوراً كالملاً لكل نواحي الحياة والفكر ونقدم منظومة صحيحة جامعة، صحيح أنني لم أكن في كل هذا إلا أحد العاملين في حقل يضم عشرات الباحين المسلمين الأبرار، ومانزال كتاباتي مدينة بالفضل للرجال الأبرار الذين رسموا لنا الطريق ومايزال عملنا هو جزء قليل من تراث ضخم قام عليه أصحاب حركة البقظة الإسلامية ونرجو أن يكون الحديث عن ذلك بعيد عن الاستطالة أو الاستعلاء ونستغفر الله من الدعاوى الباطلة ومن الإسراف ولا نعد عملنا هذا إلا تجيطاً أو رمزاً لهذا الانجاه الجامع الضخم الذي تمكنت جذوره في التربة الإسلامية وأصبح قادراً على أن يمد العشرات بل المثات من العاملين والله ولي التوفيق.

تحفظ حول التخصص:

لعل بعض المثقفين ينظر فيرى أن الكاتب الذي يكتب في كل شيء لا يتعدى الأوليات والحقيقة أن مفهوم الإسلام مختلف فهو لا يرى التخصص مانعاً من معرفة الأصول الجامعة وفهمها والتبريز فيها، ولقد كان المفكرون متخصصين بينها كان الدعاة إلى الله جامعين لعناصر التخصص، وإلا فيها قيمة التخصص إلا إذا انفصل عن القاعدة ومن يستفيد به، إن الإسلام لا يقبـل الأديب أو الفيلسوف أو المؤرخ المستقـل في وجهته أو بـاحث النفس والاجتماع الذي يدعي كل منهم في تخصصه أنه هو المفكر، وأنه يستطيع من هذا الفرع أن يتقدم بقاعدة عامة للبشرية وكان هذا هو الخطأ الـذي أخطأه مـاركس في دراسته للاقتصاد بأن جعل منه منهجاً عاماً أوحين تخصص فرويد في النفس واستطاع في السنوات الأخيرة من حياته أن يقدم منهجاً عاماً، أو تلك الدعاوى التي عرضت عن بعض الأدباء في بعض الفترات الماضية من استباحة الحديث عن كل شيء، والادعاء بأن الأدب حر مستقل عن الفكر الإسلامي، الحقيقة أن فروع الفكر الإسلامي القائمة في مجال التخصص يجب أن تصب في أيدي الدعاة الإسلاميين ليستطيعوا أن يقدموا نظرة جامعة للإنسان بوصف الإسلام منهجاً جامعاً يرسم للإنسان طريقاً متكاملاً، لا تعارض فيه بين الأخلاق والفن ولا بـين العقيدة والفقـه، ولا بين الـتربية والتعليم. ومن هنا كان لابد للباحث المسلم أن يكون دارساً جامعياً على قاعدة واسعة للإسلام كله في مختلف قضاياه الاجتهاعية والاقتصادية والتربوية، وأن يكون هناك في كل فن من هذه الفنون متخصصون يـزودون الدعـاة بالتفاصيل والجزئيات في مجالاتها الفرعية، دون أن يخل ذلك بالنظرة الكامل الجامعة أو دون أن يكون لفرع من هذه الفروع طابع الاستعلاء على النح الذي عرف للفلاسفة أو للمتصوفة أو للمعتزلة بادعاء أن مفهومهم هو مفهو الإسلام ومن خلال ذلك تقلص التوازن وعلت صيحة الاستعلاء العقلاني أ الوجداني بينها الإسلام جامع متكامل.

الباب الخاس

تجربة القِراءة والرّحلّة ولقك وْالْعِظْمَاء



تمتد أبعاد الشخصية الإنسانية للكاتب في مجالات عديدة وتتمثل هذه المصادر في أربع مكونات أساسية:

- ١ القراءة.
- ٢ ــ الرحلة .
- ٣ _ لقاء العظاء.
- إلى الندوات والمؤتمرات العالمية.

كانت نشأة الريف عاملاً من عوامل الانصراف إلى القراءة حيث لا توجد أي وسائل أخرى لاستغلال الوقت وخاصة بعد أن انتهت فترة التعليم وبدأت مشاغل العمل القليلة الجهد مع الحرص الشديد على نصيحة أهديت إلى من الدكتور زكي مبارك وهي قواءة كل ما يقع تحت يدي من الكتب والصحف، وفي الريف وخلال عشر سنوات أو أكثر قبل رحيلي إلى القاهرة تنوعت القراءات وكانت في أول الأمر سائبة غير موجهة ثم غلب عليها الأدب والتراجم ثم أخذت ترمي إلى تصور لأدب عربي من المحيط إلى الخليج برجاله وأبطاله وأعلامه وأعلام الكفاح الوطني المطالين بالجلاء والحربة والاستقلال وكان الإسلام وتاريخه يمثل مرحلة من المراحل ولكن بالمفهوم التقليدي الأول.

غير أن اللحظة الحاسمة لم تلبث أن أقبلت عندما تعرفت على مفاهيم الدعوة الإسلامية أو بتعبير تلك المرحلة: «صححت إسلامي»، هناك تولد تصور واسع عميق بمفهوم جديد لم يلبث أن نتج عنه عمل كبير ذي ثلا شعب:

أ**ولاً**: انهيار الحضارة الغربية.

ثانياً: الإسلام يزحف.

ثالثاً: قضية التغريب.

وكانت قضية التغريب قد أخذت تشغلني قبل الاتصال بالدع الإسلامية ولكني كنت حائراً في التعرف على طريقة معالجتها حتى تكشف مفهوم الإسلام الذي كان يصر الاستشراق على حجبه وتجاهله وهو أنه: ود عبادة وحكم ونظام مجتمع إلى جانب العلاقة بالله تبارك وتعالى.

لقد بدأت دراسة قضية التعريب منذ اليوم الأول الذي قرأت ملخص كتاب (هاملتون جب وجماعة المستشرقين): (وجهة الإسلام) ال لخصه الدكتور محمد حسين هيكل في ملحق السياسة الأسبوعية وشغلت حتى جاء الوقت الذي كان علي أن أقدم دراسة شاملة عنه تحت ع: (الإسلام يزحف).

ومن خلال تفهمي لحركة الدعوة الإسلامية عرفت كيف أخذ الإس يزحف سلمياً ويحقق انتصارات في مواقع كثيرة في نفس الوقت الذي ك يواجه فيه تحديات كبرى من خمالال حركة التنار وحركة الصليبيين وأ الإسلام على امتصاص القوى الكبرى كالتنار الذين دخلوا في الإسا وكيف اتسع نطاق الإسلام سلماً في قلب أفريقيا وجنوب شرق آسيا في الأوقات التي كمان يواجه فيها هزائمه في الأندلس وغيرها.

أما الحضارة الغربية فقد كان الإمام حسن البنا هو أول قادة الف الإسلامي في العصر الحديث الذين أعلنوا في صراحة كاملة أننا نرفض الحضارة لأنها تتعارض مع مفهوم التوحيد ومع قيم الأخلاق التي جاءت الأديان وجاء بها الدين الحق.

غير أن مهمتي كباحث إســـلامي انفتحت له آفـــاق الفهم الصح

للإسلام دفعتني أن أواجه أخطر ما كان يمثل في هذه المرحلة وهو (الحزبية السياسية) التي نشأت بعد الحرب العالمية الأولى والتي سيطرت على نظام الحكم والتمست لها منطلقاً من الديمقراطية الضربية والتي أقامها النفوذ الاستعهاري بديلًا عن حركة المقاومة الوطنمية ذات الطابع الإسلامي التي كانت تواجهه من قبل فكانت كتاباتي الواسعة والمفصلة عن الحزبية السياسية في مصر.

وقد جاء كتابي (اخرجوا من بلادنا) مقدمة لهذا الاتجاه والذي أثار القوى الحاكمة والسلطات الإنجليزية التي كانت لا تزال في قلب القاهرة وتوالت الدراسات في هذا المجال تكشف زيف هذه البطولات السياسية والحزبية المتصارعة والتي كانت تسيطر على السلطة منذ أفرغ الاستعار البريطاني البلاد من قادتها الوطنية محمد فريد وعبدالعزيز جاويش وحجب هذا التيار بالسياسين المحترفين الذين قادهم سعد زغلول وعدلي وثروت وغيرهم والذين تصارعوا على الحكم وورثوه لاحزابهم حتى جاءت حركة الجيش فانهته تماماً

* * *

كان توجهي أول الأمر إلى الأدب وتاريخ الأدب ثم إلى أعلام العصر وفي ظل الدعوة إلى الوحدة الجامعة حرصت على دراسة الأدب العربي وأعلامه من الدار البيضاء إلى العراق ثم وسعت الدائرة إلى قادة الفكر الإسلامي عامة في مختلف المجالات ومن خلال العالم الإسلامي كله.

ثم جماءت المهمة الكبرى وهي: [محاولة بناء منهج كـامـل للفكـر الإسلامي] يضم كل فروعه ومعطياته من خلال المفهـوم الجامـع للإسـلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع.

وتصحيح المفاهيم في مختلف مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية وكشف زيف المقررات الفلسفية والعلمانية والباطنية والشعوبيـة التي حاول النفوذ الأجنبي إحيائها وترجمتها وتقديمها للمسلمين من جديد من أجل تفريق وحدتهم ومن أجل ردهم إلى تصور الإسلام على نحو تصور اليهودية والمسيحية.
والمسيحية.
ولقد تبين من خلال الدراسة الموسوعية كم هي خطيرة تلك المؤامرة التي رسمها التغريب والاستشراق والتبشير والغزو النقاقي من أجل تربيف مفهوم الإسلام واحتوائه وتفريغه من قيمه ومنهجه في دائرة الفكر البشري للحيلولة بينه وبين العطاء الحقيقي وتبليغ رسالة الله تبارك وتعالى إلى العلين بوصفه الدين العالمي الحاتم.

تواصلت قراءاتي على مدى العمر الطويل لم تتوقف، وهي مطالعة موجهة في سبيل خدمة أهدافي في الدعوة الإسلامية أسباساً وفي مواجهة التغريب والغزو الثقافي.

ولقـد عكفت سنوات في دار الكتب في سبيـل حصر صورة الثقـافـة والفكر خلال فترة ما بين الحربين العالميتين من ١٩٦٨ إلى ١٩٣٨.

ولعلي قد قلبت أوراق جريدة الأهرام خلال هذه الفترة وفرغت موادها في كشوف لتعينني على دراسة جوانب متعددة.

ولعلي انتفعت بده الفهرس في إخراج دراستي عن تباريخ الصحافة العربية، وصورة المجتمع (الشرق في فجر البقظة) وكان جل المجهود مركزاً على عملي (الفكر العربي في معركة التغريب والتبعية الثقافية) المذي صدر 197۷ والذي أعدنا طبعه في السنوات الإخيرة تحت عنوان:

> (تاريخ الغزو الفكري والتغريب). خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين ١٩٢٠ ـ ١٩٤٠

كذلك فقد أعانتني هـذه الحصيلة في إعداد دراستي (معـالم تاريـخ الإسلام المعاصر).

ومما يذكر أنني أجريت إحصاء ومراجعة للكتاب العربي في دار الكتب (باب الخلق) فراجعت حوالي ٥٠ ألف كتاب واستخرجت منها ثبت لما يلزمني قراءته فبلغ حوالي ألف كتاب لا بـد للمثقف أن يقرأهـا وبالرغم من أن مكتبتي تحوي أكثر من ثلاثة آلاف كتاب في ذلك الوقت (الآن ضعف هذا المحدد) وبالرغم من أنني قرأت في دار الكتب خلال عشرين عاماً منذ المحدد) وبالرغم من أنني قرأت في دار الكتب خلال عشرين عاماً منذ بدمن قراءتها. بد من قراءتها.

وقد وجدت أن بحثي عن القيم الأساسية للثقافة العربية يتطلب مني مراجعة عشرات الكتب في أبواب الفلسفة والتشريع والحضارة والأدب، والدين والتاريخ وعلم النفس، والتصوف والاجتماع والاقتصاد والعلم.

وقد كانت هذه الدراسة مقدمة لموسوعة (معلمة الإسلام) التي حوت مائة مصطلح إسلامي.

ولعله لما يذكر في هذا الصدد أن نكسة ١٩٦٧ قد غيرت اتجاهي تمامًا من الدراسات الإسلامية الحرة إلى التركيز على قضايا الغزو الفكري والتغريب من خلال الاستشراق الماركسي والصهيوني والغربي فتوقف العمل في دراسات ما بين الحربين.

وربما لا أكون مبالغاً إذا قلت أنني قرأت كل ما كتب بدون استثناء عن الإسلام والمسلمين والعرب في الغرب من مختلف كتابه الجائرين والمتصفين.

ما دفعني أن أجعل القضية الأولى والكبرى التي اعتبر نفسي بجنداً لها مدى الحياة هي تصحيح المفاهيم وتحرير القيم في مواجهة شبهات التغريب والمغزو الثقافي والإفصاح عن دخائل الاوضاع والمفاهيم المعروضة في أفق الفكر الإسلامي والمطروحة من الثقافات الغربية والشرقية المختلفة ومواجعة النظريات والقضايا الفكرية سياسية واجتماعية وثقافية في ضوء الإسلام وصولاً إلى بناء منهج إسلامي متكامل وتقديم إطار واضح ومقدمة أساسية للمناهج الثقافية تكشف عن دور الإسلام في بناء علوم السياسة والاجتماع والتربية مع كشف مفهوم الإسلام فيها ومدو البديل الأصيل عنها.

(ومن هـذا المنطلق تم بعـون الله إنشاء) مـوسوعـة مقـدمـات العلوم والمناهج في عشر مجلدات:

١ - الفكر الإسلامي.

٢ ـ تاريخ الإسلام.

٣ ـ العالم الإسلامي.

الأدب والثقافة واللغة العربية.

التبشير والاستشراق.

٦ - المجتمع الإسلامي.

٧ ــ العلوم والحضارة.

٨ = الإسلام وموقفه من الفلسفات والأديان.

٩ - المنهج الغربي: أخطاؤه وشبهاته.

١٠ ــ حركة اليقظة الإسلامية.

فغي مجلد الأدب حققت لأول مرة مفهوم الإسلام وإبراز الأعلام الأبرار الذين لم يلمعوا في أفق الصحافة السياسية والذين قاموا بدور كبير في مواجهة التحدي الخطير الذي قام به التغريب والاستشراق والتبشير.

كذلك فقد أحلنا مفاهيم الفكر الإسلامي إلى الأدب العربي وكان قد سبقني في ذلك _ إحقاقاً للحق _ السيد أبـو الحسن الندوي والشيخ محمد بهجت الأثرى. (٢) الرحلة من رباط الفتح إلى جاكارتا⁽⁾

كانت أمنية عزيزة ملات نفىي أن أرحل فيها بين المحيط الأطلبي على شواطىء رباط الفتح إلى أندونيسيا في أرخبيل الملايو، باحثاً أمور المسلمين، دارساً لقضاياهم، متحدثاً مع أعلام فكرهم، محاوراً مع مثقفيهم تملؤني فكرة مدارسة الإسلام في مواقعه وعلى الطبيعة كها يقولون، وكانت من خلف هذه الرحلة ذكريات أصيلة جمعها وقائع التاريخ ورحلات السابقين، ومواقف كرية ما نزال تملأ نفس المسلم وتهز وجدانه، كيف عبر طارق بن زياد إلى الأندلس من الزقاق، وكيف دفع عقبة بن نافع حوافر فرسه في المحيط الأندلس عند مدينة (أسفى) على قول الأستاذ حسن السابع بعد رحلته من الطبووان حتى وصل إلى حيث وجد الماء يجيط به من كل مكان وقال كلمته المشهورة (والله لو أعلم أن وراءك أرضاً لذهبت إليها غازياً في سبيل الله).

(١) كنان الالتقاء في أقصى المشرق بعلياء المسلمين هذه المرة (شوال ١٤٠٠) في ثالث رحلة خلال هذا العام (عوم: الدوحة مارس: الرياض - أغسطس: جاكارتا) كان اللقاء ساراً وشائقاً وكريماً. وأبرز ما فيه هو الشوة التي أنبتها الشجرة بعد طول العمل من أجل غرسها وسقياها

وأبرز ما فيه هو الشورة التي أنبتها الشجرة بعد طول العمل من أجل غرسها وصفياها فقد وجدت في هذا المكان البحيد من لا بزال يذكر ولا بزال يقرأ ما كتبناه منذ أكثر من عشرين عاماً، ووجدت من الأعضاء وعلى غتلف بلاد القارات الحسس من قرب بعض الرسائل ووعى بعض الاراء التي كانت كلها خالصة لوجهه تمال منذ بداية الكلام عن التخريب في سنوات 1917 وربما من قبل ذلك عندما التقيب بذلك النبع الكلام 1910 وتوجهت الغس إلى العمل تحت لواء الحنيفية السمحاء.

وفي الناحية الأخرى كانت لنا مواقف مع ابن بطوطة الذي كان من أواثل الرحالة الذين كتبوا عن جاوه ودخول الإسلام إليها؛ جاءت رحلة رباط الفتح بعد أكثر من عشرين عاماً من رحلات متعددة إلى مكة المكرمة والرياض وقطر ودولة الإمارات وتونس والجزائر والمدينة المنورة والسودان قابلت فيها عشرات من الباحثين والعلماء والمفكرين، وحضرت عدداً من المؤتمرات التي تدارست قضايا الإسلام والفكر الإسلامي وإذا كنت قد قطعت هذه الجولة الواسعة في القارة الإسلامية من مطلع الشمس في أرخبيل الملايو إلى غروب الشمس في المحيط الأطلسي على حدود رباط الفتح فها زلت أطمح إلى أن تتسع الجولة إلى الهند وتركيا وأفريقيا فقـد وصلت إلى تمرنست في جنوب الجزائر على حدود مالي حيث تعيش قبائل الطوارق، فإني تأخرت كثيراً في تلبية دعوات أخوتنا في ندوة العلماء في لكهنؤ حيث يقيم شيخنا الجليل السيد أبو الحسن الندوي، أو أصل إلى قلب باكستان لأحدث خلفاء الداعية الكبير الشيخ المودودي وإن كنت قد قابلت هؤلاء وهؤلاء في مكة المكرمة والسودان والقاهرة وتحدثت إليهم وما أظنني خرجت من بلد إسلامي ضيق الصدر حزيناً كما حدث لي في زيارة أنـدونيسيا حيث رأيت تيـار التبشير والتنصير المسيحي يوغل في جوانبها وحيث ترى الكنائس الشاهقة في قلب عاصمتها وحيث يجري الحديث عن دين جديد تجرى القوى التغريبية فرضه على المسلمين وهو دين الباطنية الوثني حيث ترى تماثيل بوذا في كل مكان حتى على أبواب القصر الذي عقد فيه ملتقى الأعلام الإسلامي وحيث دق جرس كبير إعلاناً بافتتاح هذا المؤتمر.

وفي جوار البيت العتيق جاورت شهوراً في عامين متتالين والفت في ظلال الكعبة، وعشت أياماً مسعدة للنفس حيث كنت أصلي وأطوف كل صباح ومساء، فضلاً عن إقامي داخل مكتبة الحرم فضلاً عن العمرة والحج وصعود جبل عرفات منذ الجولة الأولى عام ١٩٤٦ برفقة الأستاذ حسن البنا رضوان الله عليه وكانت أولى رحلاتي خارج مصر، ومن ثم توالت رحلاتي مرتبطة بمؤتمرات إسلامية عقدت هنا وهناك، وما أحسست بجيال بلد كها

وجدت حين زرت تلمسان وبجاية والجزائر العاصمة، حيث النقيت بالكثير من العلماء والباحثين وحيث دحضنا كثيراً من شبهات المستشرقين الذين جاءوا واستمعوا بأنفسهم.

أما في قطر فقد حدث أضخم تجمع للعلماء المسلمين من العالم كله عندما احتفل بعقد مؤتمر السنة والسيرة الثالث (بعد أن عقد في تركيا وباكستان) حيث وقفنا على مساحل الحليج ننظر في الأفق إلى حيث تمر الناقلات العملاقة، وقد حدث مثل الشيء في زيارتنا لأبي ظبي التي استضافتنا جامعتها في العين وحيث اقتحم نزلنا شاب طموح يعمل في الإذاعة المرتبة ومعه كتب كنا قد الفناها منذ عشر سنوات يطالبنا بأن نجري مناقشات حولها وقد غاب عن الذهن كثيراً من معالمها بعد أن تنابعت أعمالنا في موسوعة (مقدمات العلوم والمناهج) وقد وفقنا الله تبارك وتعالى إلى تقديم عدد من المحاضرات والمساجلات.

وفي الرياض عـاصمة الملكمة العربية السعودية حضرنا عـدداً من المؤتمرات: مؤتمر الفقه، مؤتمر الشيخ عمد بن عبدالوهاب، مؤتمر الأدب الإسلامي.

وقد تحقق لنا أن نزور مكة والمدينة المنورة في رحلتين منهـا وأن نتم العمرة ونأنس بزيارة مسجد الرسولﷺ.

وفي هذه الجولات المتعددة والرحلات المتوالية شرقاً وغرباً النقينا بعشرات الرجال الأعلام الذين يقبضون بأيديهم على ناصية الفكر الإسلامي وجلست إليهم خارج الندوات، وتحدثنا طويلاً عن الأعطار التي تواجه امتنا الإسلامية والتحديات التي فرضها النفوذ الأجنبي، جلست طويلاً إلى محمد المبارك والمهدي بن عبود ومحمود شبت خطاب ومصطفى الزرقا، ومصطفى السباعي وعمر الأميري، وأحمد عبدالعزيز المبارك والشلائي بلقاضي والشاذلي النيفر ومالك بن نهي وإبراهيم القطان ومحمد المجذوب وطفيل بن محمد وعبدالله الانصاري وعلال الفامي وعشيان الكعاك ومولود قداسم والمنتصر الكتاني.

وقابلنا نجم الدين أربكان موقظ الإسلام في تركيا ومن إيران وأفغانستان

وباكستان قابلنا الكثيرين وتحدثنا معهم فضلًا عن أناس كان لهم دور في حماية اللغة العربية جاؤوا إلى مصر وقابلناهم في مؤتمرات كثيرة خارجها أمثال أحمد توفيق المدني والشيبخ بهجت الأثري والدكتور عمر فروخ والسيد عبدالله كنسون وعبدالله التل والصواف وفي ملتقيات الجزائر سجريد هونكه وموريس بوكاي.

ومع كل هؤلاء الأعلام تحدثنا عن قضيتنا الأولى والكبرى: التغريب والغزو الفكري وأخذنا وأعطينا كثيراً وفتحت الرحلة أسامنا آفاقاً جديدة وأوحت بكتابات كثيرة في المجلات الإسلامية الخصبة فكل كان له دوره في العمل الإسلامي وإضافته الواضحة.

وأينها ذهبت مشرقاً أو مغرباً فإنك واجد آثار دعوة التوحيد: التي حملت لواء اليقظة الإسلامية والحزوج من التبعية وجبرية التصوف والعودة إلى المنابع فكل هؤلاء الذين أعلنوا قومهم قد ذهبوا إلى مكة واستمعوا إلى دعوة الشيخ عمد بن عبدالوهاب وقادوا قومهم إلى التحرر من النفوذ الأجنبي: محمد بن عبدالوهاب وقادوا قومهم إلى التحرر من النفوذ الأجنبي: محمد بن عبد السودان وأحمد بن عرفان في الهند.

ثم جاء الشيخ رشيد رضا فنثر (المنار) بجمل مفهوم السلفية الصحيح فوصل إلى قلب (جاوه) وكان له أثره في إنشاء (حزب ماشوهي) ثم كان له أثره في قطر حيث واجه المصلحون مؤامرة المبشر المقتحم (صمويل زويم) فإذا ذهبت إلى الجزائر وجدت آثار المنار وكان الشيخ عمد عبده قد زارها عام الع.و وخطب فيها وتحدث إلى الطاعين في الإصلاح، ومن هناك ظهرت الصادقية في الزيتونة وظهر عمد بن العربي في القرويين ومعه شعيب الدكالي ثم ظهر في الجزائر عملاق هو الشيخ عبدالحميد بن باديس ثم ظهر عالال الفاسي ومالك بن نبي والطاهر بن عاشور ووالده الصادق بن عاشور في مراكش والجزائر وتونس على التولي وبقيت آثار السنوسية تعمل ليس في طرابلس الغرب وما حولها بل امتدت إلى قلب أفريقيا.

وفي كل هذه الأقطار كان اسم ابن خلدون هو علمهم الاكبر وقدوتهم وكانت مقدمته علامة اليقظة الصحيحة، وعليها تعلم خير الدين السونسي المصلح الـذي ذهب إلى الغرب في نفس الوقت الذي ذهب فيه رفاعة الطهطهـاوي، كل هؤلاء رأينا آثارهم وتحدثنا مع تلاميذهم في كل بلد ذهبنا إليه.

ثم جاءت آثار اليقطة وتطورت الفكرة الإسلامية حتى تبلورت في التربية وبناء الأجبال وفق مفهوم القرآن إيماناً بالإسلام منهج حياة ونظام مجتمع في هذه الصحوة التي تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية وإقامة المجتمع الرباني في هذه القارة الإسلامية (من رباط الفتح إلى جاكارتا) وهو المحور الإسلامي المواجه لمحور الغرب (باريس نيويورك) على حد تعبير مالك بن نبي، إن هذه المنطقة الإسلامية تمور اليوم موراً وهي تتطلع إلى الأصالة والعودة إلى المنابع وإقامة منهج الله على الأرض مرة أخرى مزيحة من طريقها التبعية والتغريب الذين سيطرا عليها قرناً كاملاً والآن قد طلع الفجر.

(٣)وقفة أمام الكعبة في بيت الله الحرام

عندما وقع البصر على الكعبة المشرفة خفق القلب ودمعت العين، وانطوى التاريخ كله في صورة وتجمع الماضي كله في لمحة، كانت الفرحة غامرة ولم تكن هناك فرحة في الحياة كلها يمكن أن تصل في الدرجة والعمق إلى مثل ما كانت فرحة لقاء بيت الله الحرام. ولم تكن هذه هي المرة الأولى ولا الثانية، خلال أكثر من ثلاثين عاماً، ولكنها كانت هذه المرة غتلفة كل الاختلاف: فقد زادها تقدم العمر عمقاً، وزادتها الثقافة والفهم قوة، وزادها الإيمان فيضاً، وزادتها المحافة والنهم قوة، وزادها يدلف مسلم إلى الكعبة ومعه أمه وزوجه وابنته وابنه وحفيدته، في موكب واحد وقد استظلوا بظل هذا اللواء، وقطعوا الطريق إلى الله قاصدين وجهه الكريم، أي حلم أو خيال بمكن أن يصل إلى مثل هذا الواقع، حين يرى المسلم أربعة أجيال في موكب:

يرى هذه الأم العجوز التي تدلف إلى النائين وهي تسير بين الإعمدة وقد احتواها البيت الحرام، منطلقة نحو الكعبة في فرحة سن العشرين، وكأنما أعطيت الدنيا كلها، وقد اختصرت سنوات حياتها فلم تجد في هذه الأعوام النائين لحنظة أشرف أو أعظم أو أبقى على الدهر من هذه الساعة التي أذن الله فيها بأن تطوف حول الكعبة، وتصلي في المقام وتشرب من زمزم وتقف في الملتزم، وتدعو في الحجر، هذه الأم التي تعبت وشقيت، وقد أجزل الله لها العطاء، لقاء ما حملت وولدت وجهدت، بعد أن مرت سنوات العماء،

وتلك هي الزوجة أعانت وخدمت وأصلحت وأقامت في بيت زوجها ترعاه وكان حلم حياتها أن تقف عند الحجر الأسود وتزاحم عليه لتلثمه وهي في ثبابها البيضاء، والبسمة تملأ وجهها وقلبها، ومن حولها زوجها وابنتها وحفيدتها، أي عطاء ذلك العطاء الذي أنعم به الله على هذه الأسرة؟! فأرسل بها إلى مكة تطالع فيها الكعبة الغراء كل صباح وتصلي في جوانبها الأربع، وتتعلق بأستارها، وتذهب وتجيء بين الصفا والمروة، ويذكرون ذلك التاريخ الحافل، يوم بناها إبراهيم وإساعيل، ويوم جاءها عمد فاتحاً يحمل معه عطاء الدين ورحمة النبوة.

وإني لأسائل نفسي كيف لا يسعى إلى هذا الحرم الأمن، كل مسلم أتاه الله القدرة إليه؟ وكيف يكتمل إيمان مسلم لا يرى ويشاهد تلك المآثر الحية من عقيدته ودينه، وهذه الحقائق القائمة التي تزكي إيمانه وتدفعه صادقاً إلى العمل خالصاً لخلصاً لوجه الله الكريم؟!.

إن الإسلام: تلك العقيدة التي قامت على التوحيد الخالص لله، والتي ورشها المسلم عن أبويه، وقرأ دستورها القرآن وبرهانها السنة النبوية، وعايش سيرة الرسول الكريم، وأقام فرائضها وسننها، لتجد في زيارة ببت الله الحرام زاداً جديداً يضاعف الإيمان ويوطده في أعماق النفس، ويكشف أمام الحائرين طريق الهدى، ويعطي للمترددين طابع الثقة ويرفع عن العيون غشاوة، ويمحو من القلوب سحابة، ويفتح الأفاق أمام النفس الإنسانية لتجد الطريق الحق: الطريق المستقيم.

ولقد يتكالب الناس على مطامع الحياة، ولقد يتزاحمون على موارد الطعام والشراب، ويذهبون مذاهبهم في الطموح وراء المال أو الشهـرة أو اللذات، وهم ينسون حقيقة الإنسان، ورسالته وهدفه الأصيل.

ولكن الطريق إلى بيت الله الحرام يستطيع أن يضيء هـذه النفوس، ويكشف لها حقائق الأمور، وبيين لها أن مطامع الحياة كلهـا ليست يسيرة وقليلة، وضئيلة، أمام طمأنينة النفس إلى الإيمان.

فيا ليت هذا الشباب قبل أن يرتفع العمر، يستطيع أن يقبل على

بيت الله الحرام، ويقف في هذا الرحاب المقدس، وينظر، ويعتبر، ويرى هؤلاء الذين قالوا: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له: محمد رسول الله حقاً وصدقاً). قد جاؤوا من كل مكان، من أجل الاستجابة لدعوة سيدهم ومولاهم الذي ناداهم.

فهم يرددون يريتفون بقلوب ملؤها الإيمان: لبيك اللهم لبيك. وها هم يطوفون بالكعبة، وقد تركوا ألسنتهم المختلفة يناجون الله من حول الكعبة بلغة القرآن وحده وقد جمعتهم كلمته فأزالت فرقة الألسنة، وجمعهم دينه فأزال خلاف الأجناس والعناصر، فأصبحوا أمة واحدة. كل مسلم ينظر إلى أخيه المسلم في حب وحنان، فتمتلء النفس طمأنينة ورضاً وسعادة وشرفاً، أن جعلنا الله من أمة محمد ﷺ.

فإذا أذن للصلاة اصطف المسلمون من حول البيت العتيق صفوفاً مستدبرة وامتلاً ذلك الصحن الواسع بهم فإذا أمنوا سمع لصوتهم هـدير، يقف المسلم لينظر فيرى ذلك كله، ويرى ذلك الزحام بالمناكب فيقول:

والحمد لله الذي جعلني من أمة الإسلام».

أي شرف وأي عز وأي فضل، لله سبحانه وتعالى، أن كرم هذا المسلم بالإسلام، فهداه إليه وضمه إلى هذه الأمة الخاتمة، أمة الفرآن التي جاءت من كل فع عميق داعية ملبية متطلعة إلى رحمة من الله ومغفرة.

جاءت والشوق يملاً القلوب لترى هذا البيت الحرام، أول بيت وضع للناس، حيث علت فيه كلمة التوحيد منذ أكثر من سبعة آلاف عام عندما بني إساعيل هذا البيت، وأذن إبراهيم بالحج، ومنذ ذلك البيوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والبيت قائم زاخر بالصلاة، عامر بالدعاء، ما زادته الأيام والسنوات إلا عزاً وتعظياً ومهابة.

ما أبهى منظر الحرم في المساء وقد أضاء نوره فطغى على كل نور!! ما أبمى منظر الحرم في صلاة الجمعة، وقد جاءت سحابات بيضاء تسعى لنظل المصلين على الحصباء، وجاء حمام لينطلق هنا وهناك فلا يعدو الكعبة ولا يمر فوقها، وجاء المسلمون من كل مكان ومعهم أكفانهم، يغسلونها بماء زمزم، ما أجمل هذا المحقف أمام الكعبة في الصباح والمساء!! بـالتسبيح والعبادة والصلاة، والتأمل الطويل، واستيعاب السنن والمناسك، بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم وحجر إساعيل وزمزم والحطيم!!

(٤) مؤتمر في مرسى مطروح

1977/10/10

في أحد الفنادق أكتب هذا على شاطىء البحر الأبيض في مرسى مطروح على الشاطى" (لوكاندة ريم) البحر أصامي تميد إلى ما لا نهاية، أصواجه تصطخب، لونه اللازردي، يفتن البصر، هذه الايام الجميلة التي انتزعتنا من دوامة العمل في القاهرة، لنعيش هنا، حيث ينطلق الفكر بعيداً محلفاً في الأفاق، السهاء والبحر، والرمال البيضاء.

وهذه الصورة من حياة البدو في قلب الصحراء، هنا البحر الممتد إلى ما لا نباية، والصحراء الممتدة إلى ما لا نباية، ومن حولنا علم كثير، ومؤتمر يزخر بالكفايات والعلماء والباحثين حقاً؛ إن النفس قد غيرت من بيئتها المثنابة، في عيط أكثر العمل فيه للفكر، إلى مجال جديد، فيه أيضاً فكر وبحث، ولكنه على نحو آخر، نحو أكثر تحرراً، لا شيء هنا يحد الفكر من الإنطلاق، والاسترسال.

هذه الأيام الممتعة تمد النفس بزاد جديد، أواسط شهر أكتوبر في مرسى مطروح، لا يزال الجو رقيقاً ناعاً، الوجوه الكثيرة، المتعددة، تجمد عندها الحيرة والعلم والتجربة.

ما أجمل أن يخرج الإنسان بين حين وحين من واقعه المتجمد على صورة عمل منظم دقيق، هناك حيث نلتقي في الساعة السادسة بالعمل، ثم نعود إليه في الساعة الرابعة، كأنما هو حد السيف الذي لا يتخلف، لا زيارات ولا اتصالات تحول دون الاستمرار، أحياناً نجد النفس في هذا التنظيم شقوة، لا بد من النجد، وإن كان الكشف في مجال البحث العلمي تجدداً روحيًا. ومتعة لا حد لها، كان يصفها الأمام أبو حنيفة حين يقول: لو علم الملوك ما نحن فيه من لذة العلم لقاتلونا عليه.

ولكن إلى أي حد.

إن القراءة والثقافة امتداد إنساني لا حد له. وهو لا يكتفي ولا يتوقف وخاصة عند من يأخذون الفكر الإنساني بمفهوم الشمول، فلا يتوقفون عند التخصص إلا بعد استيعاب واسم.

هذا الباحثون يتخصصون مبكرين، ويقفون عند حدود تخصصهم، ولكن الثقافة الإنسانية واسعة عميقة في مجالات متعددة، هذا الشمول؛ هر طابع الفكر العربي الإسلامي أساساً، والنظرة الشاملة نظرة أكثر عمقاً وطلاقة، من النظرة الجزئية التي يفرضها التخصص والتخصص ارتقاء نوعي، ولكن الشمول توسع أفقي، هذا على الأعماق وهذا على الإبعاد.

ولا تضيق النفس قدر طبيعتها بالحدود، والجزئيات تقف عندها، فلا بد من نقطة ارتكاز وتوسع على الأطراف.

وقد اعتاد الباحثون المتخصصون أن يأخذوا لأبحاثهم، من القطاعات الأخرى، وعندي أن النظرة الكلية، الشاملة، ادعى إلى صدق الرأي.

هكذا كنت أتحدث مع بعض الزملاء هنا، لا بد من التخصص حقيقة، ولا بد من التوسع والتعمق، ولكن على أساس أن هناك نظرة شاملة كاملة للإنسان والمجتمع يخدم كل متخصص فيها بكفايته، فلا يقول باحث الاجتماع هذا ليس من اختصاصي ولكنه من شأن عالم التربية، أو الاقتصاد، أو الدين، أو الأدب، ولا يكون هناك من التعارض أو التصادم ما يضار به الإنسان والمجتمع أصلاً. فالنظرة الشاملة الأساسية تكون مدخلاً إلى النظرات الجزئية مرتبطة بها أساساً وخادمة لها.

وفي الرحلة لا ينسَى الباحث المفكر صناعته، وإن ابتعد عنها، في داخل المكتبات ومع المراجع والأوراق. وهنا التقيت بالدكتور مصطفى فهمي، الدكتور عهاد الـدين سلطان، الدكتور كاظم، والأستاذ عبدالمنعم خلاف، الدكتور شبانة.

ومن ثم استأنف الباحث عمله بين البحر والصحراء، كانت العربة البولمان تشق طريقها في الصحراء ومن حولنا الرسال البيضاء، والخيام، وشاطىء البحر الابيض اللازردي، هذه المنطقة تبدو لماماً، ونحن نتحدث، لم يجد العقل فرصة لينطلق بعيداً عن قضايا الإنسان والمجتمع والحياة.

ولكنها هنا تعالج على نحو مفتوح، أحاديث ومحاورات، من غير ورق، ولا أحبار، ولا كتابة .

في هذه الرحلة تجد الشخصية الإنسانية امتداداتها في التأمل والنظرة، حيث تتراخى النفس بلا حدود، ولا قيود،..

والتعارف وإضافة صداقات جديدة، امتداد الابعاد الشخصية الإنسانية وتوسيع الأفاق الحياة، فكل إنسان لديه جديد يضيفه، تجربة أو علم، إن الحديث نفسه يتشقق، وتتكشف من وراءه تجارب، وتبرز نفسيات الناس، وهنا حيث البحر والصحراء، يتكشف النفوس على طبيعتها الأصلية، حيث يذهب زيد الزيف والتكلف الذي يضفيه الإنسان في المدينة على شخصيته...

هنما تبدو النفوس عارية، أو شبه عارية، وتبدو دوافع الحياة في النفوس، وغاياتها، ويجد الإنسان طوابع غتلفة، وأخلاق ومشارب وعادات، تستطيع أن تزيد العقل معرفة، والتجربة عمقاً، والنفس إجابة على تساؤلات الحياة نفسها.

هذه الحياة ما غايتها، إلى أي هدف نحن نسعى فيها.

والبحر هنا عار، رواده قليلون، إنه بعيد منقطع، أما الصحراء فهي مجتمع آخر يختلف اختلافاً جذرياً عن مجتمع وادي النيل والبدو، لهم حياة أخرى، حيث الدنيا بطيئة الحركة، صامتة، تطلع الشمس وتغرب على رمال، وخيام فقيرة، وأغنام ترعى، ومن حول الأبار تتجمع القبائل، أين نحن في المدينة من هذا، حيث السرعة العاصفة تطاردنا وتدفعنا، كأنما نحن مسوة إلى غاية ليست واضحة تماماً أمام أعيننا. ولكن الحضارة تزحف، ولا تترده أن تنغو الصحراء، بالآلة والمعمل، تريد أن تنقب عما في بطنها من بترو وما في أرضها من كنوز مدفونة، ولقد هزت الحف الزاحفة الأوضاع في الصحراء، وزلزلت قوائم المجتمعات القديمة، واطلاحية جديدة باهرة، لم تدع الفرصة لتطور بطيء أو سريع، وإنما كان النامفاجئاً، هناك في أجزاء كثيرة من العالم العربي، تحولت الصحراء في سنو إلى جنان، وقذفت الأرض البابسة الصاء الجافة التي عاشت ألوف الساكة تسقى عليها الرمال، وترهقها أشعة الشمس، عادت فانفجرت اعاقها حياة، وبترول ومال كثير، فتحولت الحياة تحولاً خطيراً لم يكن لأهله

وما يزال الإنسان في رحلة الحياة ينقب عن المدفون، ويخرج ك الأرض بعد أن دانت له الطبيعة وذللت بقوة الله القادر المقتدر، فقد أصالاً الإنسان بالعلم والحضارة والآلمة والتكنيك قادراً على مغالبة الطبيع واستغلالها، ففي قلب هذه الصخور والجبال استطاع أن يبني السدود، واستغلالها، ففي قلب هذه الصخور والجبال استطاع أن يبني السدود، وينشيء الطرق، وأن يحفر القنوات والأنضاق. . ويجول الأرض الجرداء .

كل هذه المعاني تتدفق على النفس، ونحن نشق قلب الصحواء واحة وادعة، قد أقيمت فيها خيمة حمراء جميلة وبسط فيها (سهاط» بدو حُمل باللحوم والأرز والنمر. وجاء القامون من المدينة يأكلون (بايديهم، ه غير تلك الأدوات المستحدثة، هذه هي الصورة التقليدية التي نسعى إليا لنعيشها، ولكنا نصل إليها في جوف السيارات لا على ظهور الجال.

ومن خلال الصورتين المتلاقيتين: البحر والصحراء، تتجدد ذكريا، ممتدة عبر سنوات طويلة، في البحر الأحمر، والعريش، والطور، وواحا. الداخلة والخارجة تضاف إلى مرسى مطروح.. وعلى البحر الأبيض يلتة فيها البحر والصحراء، أو الماء والصخر، من خلال وقفات طويلة وجلسا. متعددة على الرمال، وتطلعات إلى ما وراء الأفق، أو صيد للأسماك أو أحاديث تروى عن حياة البدو وتقاليدهم ومجتمعهم، الذي بدأت الحضارة نغروه، فتتحول الخيمة إلى مسكن، والجمل إلى سيارة، والمراعي إلى مزارع، حيث يستخرج الماء من جوف الأرض فإذا به يتحول إلى فيض غزير، أو محمل المياه الملحة إلى مياه عذبة...

لقاءات مع الأعلام

عندما التقيت بالشيخ عبدالقادر المغربي قبل وفاته بسنوات، أحسست أن وجودي قد امتد حتى شهد (جمال الدين الأفغائي) فقد كان المغربي هو آخر هذا الجيل الذي رأى السيد والذي كان يجمل تلك الذكريات عن الأفغاني قبل أن يعبر إلى الشاطىء الآخر عام ١٨٩٧ ومن هذا الجيل لطفي السيد وسعد زغلول ومحمد عبده وشكيب أرسلان.

ولكل هؤلاء ذكريات مكتوبة عن الرجل الذي أطلق عليه لقب (موقظ الشرق) وعن لقاءات تمت بينهم وبينه في مصروفي إستانبول.

ولعل لطفي السيد هو آخر من رآه، وربما كان ذلك: هو خليل ثابت (رئيس تحرير جريدة المقطم الذي عاش بعد المغربي ولطفي السيد).

ولقد كنت حفياً بأن أجد رجلًا عايش جمال الدين واستمع إليه لاتحقق من كثير من وقائع حياته وقد وجدت ذلك وحققت هذه الرغبة بلقائي للشيخ عبدالقادر المغربي في ندوة المرحوم محمد علي الطاهر في القاهرة عام ١٩٥٢.

وفي نفس الوقت التقيت برجل يرسم بحياته تباريخ عصر كمامل في الجزائر هو البشير الإبراهيمي الذي شارك الإمام عبدالحميد بباديس حركة الإصلاح والتعليم إبان الاحتلال في الثلاثينات من هذا القرن.

وبعد أن توفي فريد وجدي ١٩٥٣ ولطفي السيد ١٩٥٤ وعبدالقادر المغربي ١٩٥٦ لا أعتقد أن رجلًا من الأعلام المعمرين شهد مطالع القرن العشرين سوى الدكتور أحمد غلوش فقد أنشأ جمعية منع المسكرات عام١٩٠٥ وهو من القلة الذين شهدوا عهد الاحتلال البريطاني وتحدث مع كرومر. هذا في مصر، أما في الشام فإن واحداً من هؤلاء المعمرين الأعلام ما زال حياً، ذلك هو (إحسان الجابري) الذي شهد عهد السلطان عبدالحميد وكان من كبار رجال القصر الهابوني (أطال الله حياته).

وقد تحدثت معه طويلًا عن ذكريات ما قبل ١٩٠٨ وعن إنشاء مجلة الأمير أمدرها في جنيف بالاشتراك مع الأمير شكيب إرسلان بعد الحرب الأولى. أما خليل ثابت فقد التقيت به في أوائل الستينات (قبل وفاته بقليل) وكان في التسعين من العمر رأس تحرير جريدة المقطم منذ ١٩٩٣ وقد حدثني عن صفحات متعددة من تاريخ الاحتلال والأحزاب السياسية وتاريخ الصحافة في مصر والسودان وقصة جريدة المقطم.

وفي مجال الرواة عرفنا عدداً من حفظة الشعر القديم من هؤلاء كامل كبلاني وعلي الجندي، وكان كل منها يحفظ أكثر من خسة آلاف بيت، وكذلك كان زكي مبارك، غير أن أحداً لم يكن أقدر في الاستشهاد في اللحظة والتو إزاء أي موقف من المواقف بالشعر القديم على النحو الذي عرف لكامل كبلاني حتى أنه ما من نظرية مستحدثة في النفس أو الأخلاق أو الاجتماع إلا ويسارع بإيراد شعر من حفظه يمثل هذه النظريات والظواهر.

ولقد كانت مكتبات فريد وجدي وأحمد تيمور وأحمد زكي شيخ العروبة والعقاد من المكتبات التي يضرب بها المثل في سعة الحجم وفي تنوع الفنون. ولقد زاد على ذلك أحمد تيمور باشا أن كمانت له «كناشة» في أكثر من أربعهائة صفحة بحجم الصحف اليومية تحمل قصاصات فترة لا تقل عن خمسين عاماً مما كان يقتطعه من الصحف ويضمه.

وما يزال من جيل طه حسين والعقاد والمازني يعيش اليوم الدكتور محمد صبري (أطال الله حياته) وهو قريب الأن من سن التسعين وله مكتبة حافلة وقد جمع أكثر من أربعة آلاف بيت من شعر شوقي المدفون في الصحف والدوريات القديمة وطبعه ونشره تحت عنوان «الشوقيات المجهولة».

ولقد انقضى جيل الزجل الذي كان يتزعمه بديع خيري وبيرم التونسي ويونس القاضي، كذلك انقضى جيل الشعراء الذين كانوا يقومون بإعداد قصائد من الشعر الفكاهي على أوزان الشعر القديم من أمثال حسين شفيق المصري ومحمد مصطفى حمام.

وفي مجال المخطوطات ما يزال إبرهيم الأبيــاري وأبو الفضل إبراهيم وعبدالسلام هارون من أبرز العاملين في هذا المجال.

ومنذ أن توفي أحمد زكي شيخ العروبة ١٩٣٤ ومن قبله أحمد تيمور العجم وهما من عرفها الناس، فرسا رهان في شراء الكتب لم نر كثيراً مثل طموحها إلى جمع الكتب، ما عدا ما أثر عن محمد مسعود وكان ينافس زكي باشا في جمع القصاصات والجذاذات والوثائق، وكانت له مكتبة من هذا النوع رائعة، حتى قبل إنه كان يوظف لها رجلًا يرعاها، وقد أفادت جذاذات أحمد زكي وتيمور عشرات الباحثين وقدمت لهم مراجع سريعة سهلة أغنت عن طول بحث وراء مادة الأبحاث.

ولكن قصاصات محمد مسعود اختفت بعد موته ولم تظهر إلى اليوم وقد دفنت في (بدروم) يغرق كل عام بفيضان النيل، وحالت القضايا بين الورثة دون بروزها، حتى إذا انتهت هذه القضايا كانت هذه الثروة قد ضاعت. ومنذ أن توقف (المقتطف) الذي كان يطلقون عليه شيخ المجلات العربية بعد اكثر من ٧٥ عاماً اختفى مع جيل آخر من مراجع الكتب والمعلقين عليها وهو عمود هام في البحث العلمي ولم يبق من هذه المدرسة سوى محمد عبدالغني في مصر والشيخ العامودي في مكة وهلال ناجي في بغداد وعمر كحالة في دمشق ورحمة الله على عثمان الكماك في تونس.

أما الأستاذ عبدالغني حسن فها زال المرجع الاول في القاهرة للكتاب العرب وما تزال تستطيع أن تسأل أحدهم عن أي مرجع أو باحث أو كتاب مطبوع وكان أحمد تيمور يفعل مثل ذلك وله كناشة ضخمة في دار الكتب تحت رقم ٣٣ أرشد إليها من يريد، تضم أكثر من أربعائة صفحة بعجم الصحف اليومية، عبارة عن قصاصات صغيرة عن أحداث وأساء ووفيات خلال حياته الطويلة العامرة حتى عام ١٩٣٠ تقريباً وقد وجدت فيها عشرات

من القضايا والمعارك والمساجلات التي دارت منذ أواخر القرن التاسع عشر حق نهاية أيامها.

وفي مجال المكتبات كان المرحوم عباس محمود العقاد، صاحب أضخم مكتبة، وما نزال مكتبة الدكتور محمد صبري أطال الله عمره، مثلاً على المكتبات الحافلة، وكذلك كانت مكتبة الدكتور زكي مبارك وفريد وجدي وأحمد أمين وعشرات من مكاتب الأدباء التي تبددت من بعدهم وضاعت.

ولا يزال الأستاذ علي أدهم هو أكبر قارى، في مصر بعد العقاد وما تزال مكتبته الحافلة تحوي أحدث الدراسات التاريخية والأدبية والفكرية من أنحاء العالم، وهو قارى، رصين وباحث أصيل وما تزال كتاباته بمتدة في مراجعات الأدب والفكر والفن منذ قرأت له أولها عام ١٩٣٧ في جريدة الدستور الني كان يصدرها فريد وجدى وربما له آثار تسبق هذا.

وما أظن أن في العالم العربي من يضاهيه في هذه المزية. وقد كان الأستاذ على الجندي الذي ولي عهادة دار العلم سنوات هو بقية الرواة والحفاظ للشعر العربي القديم وشيخ الشعراء الغزليين في عصرنا وهو بقية جيل انقضى كان من أبرزه كامل كيلاني الذي كان يجفظ أكثر من خمسة آلاف بيت أغلبها للمعرى.

وما يزال الدكتور محمد صبري هو أكبر أدباء الجيل القديم (الزيات، العقاد، طه حسين، هيكل، المازي) وهو الآن على أبواب التسمين وما يزال مشغولاً بدراسة عن الحضارة العربية في قلب أفريقيا، وذلك بعد أن أنقذ } آلاف بيت من شعر شوقي كانت مندشرة في بطون الصحف استطاع أن يخرجها وإن كان شوقي لم يوقعها باسمه وكان يصعد معنا إلى مكتبة القلعة في طريق منحدر، في نشاط وجوية لا تجدها في الشباب.

وفي مجال المخطوطات وتحقيقها ما يزال الثالوث العصري المنتشل في إبراهيم الأبياري وأبو الفضل إبراهيم وعبدالسلام هارون يعمل في نشاط وقوة وحيوية وما يزال الشيخ عبدالجليل عيسى وقد بلغ التسعين الآن يعمل في تفسير القرآن ويجلس في قهوة في شارع الألفي ومعه معاونوه. وقد التف حوله عبو، وأصدقاؤه (١٩٦٥).

عبدالقادر المغربي، زكي مبارك، كامل كيلاني، بيرم التونسي، البشير الإبراهيمي:

هؤلاء الأعلام قابلتهم وعايشت المراحل الأخيرة من حياتهم، وأفدت من تجاربهم، وكتبت عنهم في مجالات التراجم والبحث الأدبي. ولكن هنا أكشف جانباً جديداً غضاً من «الذكريات الـذاتية» التي حجبتها عن تلك الدراسات، لتكون خالصة للحقيقة التاريخية.

أما وكاصل كيلاني، فقد عرفني به أستاذ جليل في رحاب الجمعية الجغرافية في وعصرية، طيبة، وقفت فيها مبهوتاً وأنا أستمع إلى رجل قصير القامة عذب النبرات يروي ما شاء الله له من الشعر ومن المأثور، كأنما قد احتوى الأدب العربي كله في خاطره أو في متناول يده، وهو لا يروي ذلك عفواً ولكنه يروي منه ما يتصل بالأحداث والمناسبات والمواقف، كأنما التاريخ يعيد نفسه، وكأنما كل ما نعيش فيه قد عايشه الشعراء من قبل ونظموا فيه كنت أعرف عنه أنه «كاتب قصص الطفل»، تلك كانت شهرته عام ١٩٤٦ عندما التقيت به بعد أن أوغل في هذا العمل وتفرغ له وانقطع - أو كاد - عن العمل الأدبي الذي عرف به منذ مطالع حياته وخاصة تحقيقه لرسالة الغفران لأبي العلاء ودراسته لابن الرومي.

كان شعر أبي العلاء يجري على لسانه في كل مناسبة شجياً معبراً، وكان شعر البحتري وأبي تمام والمتنبي وغيرهم، ولكن المعري كان دائمًا سيد الموقف، وهو الحبيب الأول. ثم اتصلت بالرجل وجلست معه في ندوته العذبة، التي كان يتحلق فيها حوله عدد من عميه فزادت معرفتي به، وعمقت، هذا الرجل الفصير الذي قال عنه أحمد شوقي أمير الشعراء أنه كعقرب الثواني، ليس إلا طاقة حية لا تنفذ من الأدب والذكاء والفهم، طلي الحديث إلى أبعد حد، نافذ البصيرة إلى غير ما مدى.

وكتبت عنه في جريدة الزمان فصلاً قصيراً، ثم توالت دراستي لجوانيه وأعماله، وعمقت محبتي له، وصداقتي به فقد وجدت فيه ملاذاً نفسيًا بعد أن فقدت الصديق الذي عرفني به، وكنت في تلك المرحلة في حاجة إلى من أبثه نجواي وأستمع إليه، وآخذ بنصيحته وأنفع بتجربته، وكان عنده الكثير، مما يعطيه لامثالنا.

كانت حصيلته من تجربة الحياة الأدبية ضخمة، ولكنها حصيلة مربرة. فقد واجه كثيراً من العقوق، ولقي كثيراً من المتاعب، وكان حفياً أن بيثني نجواه، وأن يكاشفني بسره، ويذكر لي بعض ما وجه إليه من كيد، فقد كانت الحياة الأدبية في هذه الفترة تذخر بالصراع، وبالجماعات، وبالخصومات، التي تؤرثها الأحزاب، والحياة السياسية المضطربة.

كان صديقاً للمقاد في أول الأمر، فلها عرف شوقي وأحبه، صار خصاً للمقاد، وكان صديقاً لأبي شادي ثم اختلفا بعد أن قال عنه صاحب (أبولو) أروع شعره، وكان طالباً في الجامعة القديمة وكاد أن يسافر في بعثة إلى فرنسا، لولا أن شطب اسمه في آخر لحظة، نتيجة دس أو وشاية واش.

وكان أحب الناس إليه صديقه كاتب الخط البـارع: الأستاذ سيـد إبراهيم أطال الله حيـاته، وكـانا معـاً ينشدان الشعـر القديم، وكـانت لهما جلسات طويلة وقراءات لا تنتهي.

وزاد اتصالي بكامل كيلاني، وكنت أجد عنده المحبة والتجربة. وكان ينصحني كثيراً ويقول لي لا تدخل معارك النقد وحاذر أن يشدك الكتاب إلى الصراع والسجال فإنه يضني القلب ويفني العمر واحرص على أن تسير في الشارع الواسع وإياك والأزقة واعمل عملاً كبيراً في مجال لم يعمل فيه أحد. وإني لأذكر ذات ليلة وقد استفاض الحديث عن حمار الحكيم وحمار الكاتب الإسباني، وذهبت إليه لاحقق الأمر، فوجدت عنده علماً غزيـراً، وتراثاً كبيراً مما كتب عن الحمير في الأداب الاوروبية وفي الأدب العربي، على نحو عجزت إزائه عن تقدير مدى عمق مطالعات الرجل في الأداب العالمية.

ولقد كان ثابتاً أمام الأهواء لا يلين، فلقد قالوا له أن ابن الـرومي يصيب بشؤمه من يتناوله بالرحث، فالعقاد عندما تناوله بالبحث دخل السجن، والمازني حين كتب عنه كسرت ساقه فضحك في سخرية وقال: ذاك ابن الرومي، إنما شؤمه على نفسه.

وإني لأذكر كيف كان بجي ابنتي كل عام ويتحفها بهديه، وهي تلميذة على قصصه، وكيف يسأل عنها فإذا كانت أيامه الأخيرة، جاء يزورني في عربة ابنه الأنيقة ورفض أن يترجل، أو يقبل أي تحية، وهمو يسأل عن ابنتي الصغيرة في لهفة، فلما جاءت أركبها إلى جواره، ومضينا بعربته حتى صعدنا إلى طريق الهرم...

وهناك في الغروب حيث جلال الزمن يعانق جمال الطبيعة قال لي:

يا أخي: لقد جئت أودعك الرداع الأخير، وإني ربما لا ألقاك بعد اليوم، فاسألني عها تريد أن تعرف من أمري حتى تكون على بينة، ومضى يقص على قصته مع خصومه، من قلب مليء بالحزن والحسرة ويكشف عن بعض حقائق الحياة الأدبية، ومواقف الأدباء إزاء مغريات الحياة وأخطائهم ولا يسترسل إلا ليدلني على مرجع من الصحف وشاهد من الناس، عها هو بسبيل الإنضاء به إلى مما لا يزال مستوراً في حجب الغيب.

ثم مضى إلى ربه بعد قليل وترك في قلبي جرحاً عميقاً.

كنت أحب فيه ذلك البشر وتلك السياحة، وهذه الطلاقة النفسية، وذلك الحديث الممتع، في كل شيء، وما زلت أذكر كيف كنا نقطع الطريق بين بيته في شمارع حسن الاكبر والمكتبة في شارع البستان يتموكما علي، ويتحدث، وأنا أستمع مشوقاً، كم كشف لي من آفاق في الأدب العربي ثرة خصبة، لم تعالج بعد، ما من مذهب علمي أو نظرية في النفس أو الاجتماع حدثته عنهـا إلا وكشف لي عن أصلها وجـذورها في أدبنـا العربي وتـراثنا الإسلامي .

وعجبت لذلك، وقلت: أما الشعر والاستشهاد به فذلك أمر عرفناه، رحل يحفظ عشرة آلاف بيت من الشعر استطاع أن ينسقها في ذهنه ويستشهد بها في كل موقف ومناسبة.

ولكن هذا الأمر الغريب، ما باله، وكيف جاء به.

وكشف لي عن السر فقال: كان ذلك، أستاذنا في الجامعة القديمة فرنسياً متعصباً للأدب الغربي يطالعنا كل يوم بقصيدة لامثال لامرتين أو هوجو أو جيته أو هيني ثم يقول متحدياً: هذا المعنى لم يطرقه شاعر عربي، أنا أتحداكم أن تجدوا مثله عندكم. وتموج نفسي بالغضب والحزن، وأذهب فأنكب ليلي كله على دواوين الشعراء العرب على اللمبة نمرة خمسة.

ثم أعود إلى الجامعة في الصباح مقرح العينين، فأقول له إني قد وجدت مثله وخير منه عند شاعرنا: البحتري أو المتنبي، أو أبو تمام، أو ذو الرمة الخ. فإذا به يجبهني بشعر آخر وأعود مرة أخرى إلى البحث، هكذا حتى تجمع لدي أكثر من بضح وصائتين مقابلة، ثم شاه الله أن أجد أكثر من أربعين معنى عربياً لم يطرقه شاعر غربي.

واليوم أسأل: أين مثل هذا العمل العتيد، واجده مدفوناً في أضابير الغوفة التي كان بمضي فيها لياليه وأيامه، رحمه الله، في الدور الأول من منزله بشارع حسن الأكبر وأسأل أخي رشاد كيـلاني لماذا لا يـطبع هـذا الكتاب وينشره في الناس.

ومن الحق أن نقول إن مكتبة الكيلاني الخاصة كانت حافلة، وكان فيها أدب عربي وفرنسي وإسباني ريوناني، وإن الرجل كان منهوماً لقراءة أساطير الأمم وقصص آدابها وكان إلى ذلك عريقاً في العربية، وثيقاً بها، غيوراً عليها، لما رأى البيوت في الثلاثينات قد هجرتها إلى الفرنسية تحت ضغط عليها، لما رأى البيوت في الثلاثينات قد هجرتها إلى الفرنسية تحت ضغط «التفرنع» الوافد بدأ معركته الصامتة في حرب العامية ولغة البيت الفرنسية بكتابة (القصة للطفل) وجعل من ابنه مصطفى حقل تجاربه فمضى معه في سنه ودراسته عاماً بعد عام، يكتب القصة للطفل مرحلة بعد مرحلة.

وكان يجمل هذه القصص الملونة المطبوعة على الورق (الكونية) اللامع، فيذهب إلى بيت هذا اللباشا أو ذاك، ويقدمها له، ويقول هذه هدية إلى ابنك فلان، فيفرح بها أطفال البيت ويقرأون لغتهم ويستقيم نطقهم. ثحت مغريات قصص الجن والعفاريت والسندباد، ولم تكن أمانته للغة وحده هي المقصد، ولكن كانت هناك أمانته للعقل العربي فهو يروي الاسطورة ألقصة ليخرج الطفل منها مؤمناً بالواقع ساخراً من الحزافة، وإن انطبع قصصه كلها التي نشرها في حياته بطابع المترجم من الاداب الاوروبية ولك هكذا كان يفهم واجبه وبعد موته ظهرت قضصه الإسلامية وما تزال قصعه مكذا كان يفهم واجبه وبعد موته ظهرت قضصه الإسلامية وما تزال قصعة ترى فقد كتب رحمه الله ألف قصة ولم يطبع منها في خلال حياته أكثر، خمين ومائة من القصص، والباقي في الطريق.

ولقد كنت أزوره فجأة فأجده خارجاً إلي وفي يـده مجلد ضخم دة الحـروف الإفرنجيـة، وهو ينـوء بحمله، ومعه نـظارتيه الكـبرى والصغر فأعجب لهذا الصمود العجيب، وأقول له: أما تستريح، فيقول: هذه ملها وراحتي وسعادتي كلها، العمل!

ولقد فقد بصره فجأة، واحتمل الصدمة في عزيمة الأبرار، فلم يط عليها أحداً حتى أقرب الناس إليه، وكان يمثي في البيت يستعمل بديه، و كشف الله عنه الغمة وعاد إليه بصره بعد عملية جراحية خفيفة، وقال: بقي من عمري سأهبه للعلم ولن أتوقف. وكانت له ذكريات عن الحي الأدبية في مصر تحتاج إلى من يتلقاها عنه، وكنت أحياناً أحدثه في الهاة ساعة وبضع ساعة وأنا جالس إلى مكتبي ومعي أوراقي أكتب وكأغا يمإ وأساله عن هذا الأمر وذاك فأجد لديه حصيلة انتفعت بها في دراس

. .

ولقد أبقاه الله حتى أراه ثمرة عمله، فأعطاه في أبنائه الخلق والنضارة وموفور الرزق، كان يتطلع إلى الجائزة واللقب تطلع شوقي إلى الباشوية، ولكن عطاء الله يأتي بصورة أو بأخرى، ولقد عاش حتى أوسع الله لأبنائه المهندس والمقاول والناشر، ورأينا مطابع الكيلاني الصغير تدور، والمباني تعلو، وربط الله على قلب الرجل بالنعمة الزاخرة.

ولكنه ظل حتى أنفاسه الأخيره يشكو دهره، ويتحدث عن غبن جيله، ولكن تقدير التاريخ لعمله الكبير كان كبيراً. وما يزال يذكره الأدب كرائد لأدب الطفل في العربية، وقد رأى تلاميذه من كل مكان في العالم العربي عمن نشأوا على قصصه، وقد كبروا وتولوا المناصب، وجاؤوا إلى مكتبته زائرين، وزاده ذلك قوة على العمل فكتب القصة بالفرنسية والإسجليزية لتصل إلى أقصى بلاد العربية والإسلام حيث كانت اللغتان تفرضان على أبناء العربية والإسلام ومات والدنيا تلهج باسمه وتذكر عمله وفضله.

وما تزال نوادي الأدب تذكر هذا الجيل من حفظة الشعر العربي والتراث العربي، هذا الجيل الذي كاد أن ينقرض ولم يبق منه إلا القليل، ولكنه كان جيلًا يتراسل بالشعر، ويتبادل المصارضات، ويعرف للعربية الفصحى فضلها وللجزيل من الموزون جاله، وكان لكامل كيلاني شعر قليل، وأبلغه قصيدة في رئاء نفسه.

لقد كانت جلسات كامل كيلاني معطرة بالشعر الرصين والفكاهة الحلوة والنادرة البارعة، كأنما هو ضمير الأدب العربي كله، في كل ما تحمل لفظة البيان، من دعابة أو سخرية أو تهكم أو إيماء، كان يعرف أسرار الشعر في هذا كله ويشير إليه كأنما عاش مع هؤلاء جميعاً وحضر مجالسهم ووقف في عكاظهم ومربدهم، لا تفوته بادرة ولا إشارة، ولا إيماءة، يعرف هذا كله في دقة وبساطة ويرويه في طلاقة تذهل وتروع وتأسر القلوب.

رحمه الله رحمة واسعة.

(٧) حول التراجم

لقيت دراسات الأعلام عندى اهتاماً كبيراً فقد كان البحث عن شخصيات بارزة لها تأثيرها ومع ذلك فقد جهل الجيل ما قامت به فقد كان اسم شيخ العروبة مدوياً ولم يكن له من المؤلفات إلا رسالة صغيرة، وكان كل تراثه ما يزال مدفوناً في الصحف وخاصة في المؤيد والأهرام منذ ١٨٩٠ نقريباً إلى ١٩٣٢ حين وفاته وكانت مكتبته محبوسة في غرفـة معلقة في دار الكتب بالقلعة وكان على الباحث أن يتصل بورثته وأهله للسؤال عن ما لديهم من رسائل وخطابات وكان ذلك أمراً شاقاً ومثيراً فقد ظن البعض أن المحاولة ترمي إلى بيع بعض هذه الأثار أو المتاجرة بها وبالرغم من كل المحاولات لم نحصل إلا على القليل وقد أشرت إلى هذه الواقعة في ختام الدراسة بعد أن انفقت من الجهد الكثير في الحصول على أهم عناصر فكره ومفاهيمه، وكذلك كان الأمر بالنسبة للشيخ عبدالعزيز جاويش فقد لقيني أحد المستشرقين في دار الكتب بـالقلعة وأطلعني عـلى ثبت بعض مقـالاتـه في اللواء أو العلمـ لا أدري ـ وكان يصورها وقد أشار إلى أن هذا الكاتب المجاهـد لم يلق من العناية في بلاده ما يكافىء جهده وجهاده، ومن ثم فقد انطلقت أبحث الأمر، وأخذت في إعداد الدراسة، لولا أن وقفت أمامي مرحلة هجرته إلى أوروبا ولم يكن هناك مصدر مكتوب عنها غير أن توفيق الله تبارك وتعالى أعانني بأن عرفت أن له خالًا شيخاً كبيراً ما يزال حياً هو الدكتور الفولي الذي زودني بما احتجت إليه ووجهني إلى المصادر.

ولقد كان جاويش على رأس مدرسة مخالفة للمدرسة التي يكونها حزب الأمة (لطفي السيد) وكان في وجهته مع الحزب الوطني يقاوم النفوذ البريطاني

ويمارضه وهو الذي تعلم في أكسفررد فكان أشد عليهم من غيره من الوطنين. وحين احتفلنا بعرض كتاب جاويش الذي نشرته في سلسلة أعلام العرب قام (أو قامت) من يقلل من شأن الرجل ويصفه بأنه لا يستحق أن يكن من المدرسة الحديثة مع تجاهل صموده ومجافاته لأي من علولات الإغراء والاحتواء وقد دفعني هذا إلى أن أقدم نجله. . . وكان حاضراً معنا في الندوة وقلت له قم حدث الناس عن ما لقي والدك ولقيتم في هجرتكم في ألمانيا فقال: كانت أمي ترسلنا إلى الحقول مع سلة من السلال لنجمع أي شيء أخضر لنأكله. وذلك لأن أبي رفض أن يقبل عودته إلى مصر وولاحه للنفوذ الأجنبي لنعيش في رخاء.

أما كتابي عن زكي مبارك فقد أعجب أهله من أهالي سنتريس ولكنه لم يعجب الدكتور محمد أحمد الغمراوي ـ الذي عاتبني عندما زرته ـ وقال كيف إن حجبت عن القراء هجوم زكي مبارك على الإسلام والقرآن وخاصة ما كتبه في (النثر الغني) وما كتبه في (التصوف الإسلامي) من إعجابه بفكر معارض لمفهوم التوجيد: كوحدة الوجود والحلول والاتحاد.

الندوات والمؤتمرات العالمية

ندوات كثيرة أتيحت لي فرصة الاشتراك فيها تعرفت فيها على أعلام كثيرين... في القاهرة حضرت ندوات الباقوري وأحمد حسين وأحمد عبده الشرباصي وأحمد عطية الله.

وكنا نلتقي في خلالها بعشرات من رجال الفكر والدعوة والقانون وكان الكلام يتشقق عن موضوعات وأبحاث وقضايا لا حصر لها.

وكانت ندوة أحمد عطية الله (رحمه الله) تعقد في ظلال الأشجار العالية وبين النخيل والموز والورد، فالجو كله معطر بالأربيع والعين لا تنتقل إلا من الخضرة المورقة إلى الزهر الفواح إلى أصوات العصافير، والمساء يقبل في هدوء ودعة.

وقد تحلق هؤلاء الأعلام وتجمعوا حول صاحب القاموس الإسلامي وصاحبه الدكتور إبراهيم اللبان وهناك ذكريات لندن حين كانـا معاً إبـان الدراسة.

والاستاذ عطية الله رجل سمح كريم يغمر زواره بفيض من النحايا لا يتوقف بين شاي ياتي في إناء زجاجي لامع، وبين مثلجات وبين مسليـات وأحياناً تقدم الفطائر والحلوى.

وبين هذا وذاك يدور الحديث عن الأدب والتاريخ.

كانت هذه الندوات بالنسبة لي مجامع علمية تضاف إلى تجربتي الصحفية وتزداد بها الخبرة والفهم. ثم جاء دور الملتقيات الإسلامية التي كنت أدعى إليهـا في العواصم العربية والإسلامية.

وكانت الجزائر هي الرائدة حيث دعاني الأستاذ مولود قاسم وزير الشئون الدينية للائزاك في الملتقى الإسلامي الذي كمان يعقد كمل عام في حاضرة من حواضر الجزائر واشترك فيه العشرات من أعلام تركيا والهند وباكستان والسودان ومحبرها.

حضرت أولاً مؤتمر بجاية ـ ثم مؤتمر تمرنست، ثم مؤتمر الجزائر العاصمة، ثم مؤتمر تلمسان وحضرت بعد ذلك مؤتمر سطيف ١٩٧٣ -١٩٧٠ ـ ١٩٧٩ ـ ١٩٨٧ -.

وفي مكة دعيت إلى الندوة العالمية ١٩٧٤ التي أقيامتها رابطة العالم الإسلامي ثم دعتني جامعة الإمام محمد بن سعود إلى مؤتمر الفقه الإسلامي ١٩٧٦ ـ فمؤتمر الشيخ محمد بن عبدالوهاب ١٩٧٩ .

ودعيت للمحاضرة في جامعة العين بالدوحة ١٩٧٩.

وحضرت مؤتمر السنة والسيرة العالمي في قطر.

أما في جاكارتا فقد حضرت مؤتمر الإعلام الإسلامي الأول. ثم زرت الخرطوم وعيان والأردن.

حول الملتقى الإسلامي في الجزائر

ارتبط الحديث عن التصوف في الملتقى الإسلامي في الجزائر بأنسياء كثيرة متضاربة أهمها ما أشار إليه جارودي من دعوة إلى الإعجاب بالتصوف وابن عربي بالذات مما أثار ثائرة الجزائريين الذين لهم موقف من المتصوفة الذين كانوا مؤيدين للنفوذ الاستعهاري.

كذلك فإن طائفة من المسلمين الفرنسيين الذين حضروا المؤتمر كاتوا يبدون امتعاضهم من الهجوم على التصوف الفلسفي وكان (رشيد بن عيسى) قد صحب مجموعة منهم من أسلم ومن لم يسلم وقد الفي أحدهم محاضرة تحدث فيها عن مفهوم في التصوف الفلسفي وقال إن جمال المرأة والإعجاب بها موصل إلى الله (جل في علاه) هذه دعواه الباطلة وقد انفتح الحديث عن التصوف الفلسفي وخاصة ما يسمى التصوف الفارسي الذي أولاه المستشرقون اهتاماً كبيراً وحاولوا الاستفادة منه في الإساءة إلى الإسلام.

وكنت قد قرأت طويلًا في هذا وحاولت فهمه وقد تبين أن الحملة التي ديرت على فارس لإدخالها في التشيع على يد زعيمها عباس الصفوي عام ١٩٠٠ كانت تهدف ضرب الدولة العثمانية دولة الخلافية والسنة في ذلك الوقت.

ولدى بحث مطول في هذا لم تتأكد بعض معلوماته وقد أكد ذلك ما كتبه علي شريعتي بالتأكيد على هذا الدور.

ومنذ ذلك الوقت حملت إيران مفهوم الشيعة ولقد تبين أن بين التصوف

الفلسفي وبعض فرق الباطنية وبعض علاقات عميقة وأن هناك رسالة عن هذا الموضوع يجب دراستها.

وقد حاول البعض أن يتحدث عن دور خفي يقوم به البعض في وسط السنة اليوم في هذا المجال وأن هناك محاولة لجذب المسلمين في الغرب إلى التصوف عن طريق الرقص والغناء الذي تتميز به مفاهيم بعض الفرق والذي هو بالطبيعة خارج عن مفهوم التصوف الإسلامي، أسجل هذا حتى تنكشف الأمور.

جاء جاوردي إلى الجزائر لحضور الملتقى وقد سبقته أحاديث نشرت حول دعوته إلى إنشاء المركز الإسلامي في قرطبة وكنت قد تحدثت إلى الدكتور عمود أبو السعود الذي كان وزوجه شبه مرافقين له ولزوجه والذي اتضح أن بينها صداقة ومعرفة وقد أيد محمود أبو السعود الدعوة وحاول الدفاع عنها وعندما قرأت كتابه ميثاق إشبيلة ووجدت من الفقرات ما لا يجوز أن تنسب إلى الرسول الله كلله أخذ أبو السعود يدافع عنه، وكان ذلك مقدمة لمحاضرته التي أثارت عليه مثقفي المؤتمر جميعاً وأحدثت ضجة لا حد لها وتصدى للرد عليه الكثيرون وفي مقدمتهم الشيخان الغزالي والقرضاوي واضطرت زوجته يعد ذلك أن تذهب إلى الغرف لتصلح ما أساء زوجها في محاولة لاسترداد مكانته التي هوت تماماً خاصة عندما رد على التساؤلات في مراوغة دون أن يستحضر شخصية المسلم الحقيقي عندما يعرف الحق فيرجع إليه.

وقد كان موضوع المركز في قرطبة الذي سمح له به القسيس وأعطاه تلك القامة والذي ذهب هو إلى جمع الأموال عنه موضع تساؤل الكثيرين، وفي اعتقادي أنه خطوة تالية لخطوات الحوار التي بدأت منذ أكثر من عشر سنين، واشتركت فيها جهات كثيرة إسلامية، وها هي ذي ننتقل إلى حوار يهودي مسيحي عن طريق رجل منتسب إلى الإسلام وهو في نفس الوقت من الغرب وله صلاته مع المسيحية ومع الشيوعية جمعاً.

وقد حدثني أمس الـدكتور حسـين فوزي النجـار الذي كــان مرافقًـاً لجارودي خلال رحلته الأخيرة إلى القاهرة في اجتهاعاته التي عقدها من أجل الحصول على موافقة على مشروعه بإنشاء مركز إسلامي في قرطبة يضم علماء مسلمين وقسس وأحبار يهود وقال إنه من خلال حواره معه داخله الشك وخاصة عندما تحدث عن (المير بارجر) الذي أنشأ منلذ عام ١٩٤٨ جمعية الصداقة مع الشرق الأوسط والذي يدعو إلى الحوار بين الأدبان، ويرى وجماعته من اليهود أنهم ليسوا صهيونيون وإنما هم يهود لا علاقة لهم بالصهونية.

وقد عرفت منه على حد تعبيره واعتقاده أن القوى الأجنبية استطاعت تجنيد (جارودي) الذي دخل الإسلام بشيء غير قليل من الطبول لخدمة هذا الهذف

وكان الدكتور عبدالصبور شاهين قد أشار في مقدمته إلى قدم هذه الدعوة وإلى اضطرابها لأنها من الدعوات المشبوهة التي حملت لواء ما يسمى بالدين الإبراهيمي لإرضاء اليهود والنصاري.

وقد أشار الدكتور عبدالله عبدالشكور الذي يؤيد الدعوة عن الذين نشأوا في أحضان الفاتيكان وله صلة بهم منذ قديم، وقد كان عبدالله عبدالشكور يتحدث في اللجنة عن أخذ جارودي بالترفق بحكم أنه أصبح مسلماً له علينا هذا الحق.

هزيمة الاستشراق في مؤتمر الإسلام

في ملتقى الإسلام:

كان من أبرز منجزات الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي ـ الذي عقد في (تامرنست) بالجزائر في المدة من ٢٩ أغسطس إلى ٩ سبتمبر ١٩٧٩ ـ هو كشف زيف مجموعة كبيرة من المستشرقين، وكتاب الغرب اللدين شاركوا فيه، فقد عرضوا وجهات نظرهم في كثير من القضايا الإسلامية، من منطلق الفكر الاستشراقي المنحرف المضلل، فتصدى لهم كثير من علماء المسلمين أمثال: محمد المبارك ومعروف الدواليبي وفاضل الجمالي ومحمد سعيد البوطي وكاتب هذه السطور بالرد والمعارضة والتعليق والتعقيب.

ومن العجيب أنهم فروا كالبطير الخائف المرتجف أمام كلمة الحق، وتبراجعوا ولفوا في إجاباتهم، ولكنهم، أحسوا- وريما لأول مرة ـ بتلك المعارضة القوية التي أبداها كتاب الإسلام وعلماؤه وذلك الأسلوب العلمي الصحيح الذي قدموا به ردودهم، وكشفوا به زيف دعاوي الاستشراق.

حديث معاد وحجج باطلة:

ولم تكن كليات هؤلاء الكتاب في الحفيقة إلا ترديداً لما قرآناه كثيراً، وما نشر من كتابات جولد زيهر ومرجليوث وشاخت وماسينيون وجب، وغيرهم من متعصبة الاستشراق، وجاء اليـوم روجيه جـارودي ومونتجـمـري وات وأتباعهم من أمثال جوردن نيف وإدوارد شويرتر وغيرهم من تلامذة المبشرين ليردوها، وقد تبين من حصيلة ما قدم المستشرقون ما يلي: أولاً: أنهم لا يتابعون النهضة الإسلامية الحديثة، ولا يقرأون ما قدمه في السنوات الاخيرة كتاب مسلمون متفتحون يستمدون فكرهم من المصادر الأصيلة، ومن المنابع الأولى، وهم الذين عرفوا برجال حركة اليقظة الإسلامية

ثانياً: أنهم يتجاهلون هذا التيار الضخم من الأصالة والعودة إلى الإسلام والأبحاث العلمية الجادة، التي قننت الشريعة الإسلاءية، أو قدمت إجابات عصرية واضحة لمفاهيم الإسلام.

ثالثاً: أنهم ما زالوا يلوكون تلك الشبهات القديمة ويرددونها، فهم مثلاً لم يتقبلوا بعد وما زالوا يتجاهلون ـ تلك الوثائق الصحيحة التي كشفت عنها الدراسات، خاصة بشأن السلطان عبدالحميد والدولة العثمانية، وبروتوكولات صهيون ومخططات المؤامرة الثلاثية للنفوذ الاجنبي والشيوعية والصهيونية، وما يتصل بالماسونية، ودورها في الثورة الفرنسية وإسقاط الدولة العثمانية.

رابعاً: أنهم ما زالوا يرفعون من أقدار الشعوبية وأبحاث الباطنية والمجوسية، التي تلتحق بالتصوف الفلسفي وعلم الكلام، والمعتزلة والفلاسفة المشافين، المتابعين للفكر اليوناني أمثال الفارابي وابن سينا (وقد تبين أخيراً أنها من الباطنية أتباع القرامطة وغيرهم).

خامساً: أنهم ما زالوا بحجبون تماماً ذلك العطاء الإسلامي السخي الذي قدمه ابن تيمية وابن حنبل وابن القيم والشافعي والماوردي وابن حزم، ويشيحون عنه في كراهية وحقد، ويقفون عند تلك الأبحاث التي تتصل بابن الراوندي والحلاج وابن عربي ومن تابع الفلسفة اليونانية، حتى إذا عرضوا للإمام الغزالي لم يقدموه إلا في صورة تابع للفلسفة اليونانية.

سادساً: لقد كشفوا عن أنهم لا يملكون شيئاً إيجابياً أو صالحاً ـ في هذه الفترة ـ يمكن أن يقدموه للمسلمين في مجال الحاجة إلى وجهة نظوهم، فإ زالت أهواؤهم تسيطر على عطائهم فهم يقدمون السموم والاساطير والاراء الضالة أو على الاقل يقدمون تجربة مجتمعاتهم الفاسدة، وليست لهم قدرة حقيقية على أن يستوعبوا أحوال مجتمعات المسلمين، ليقدموا لها شيئاً ينفع، كما أن عطاءهم قليل وغير مجد، وغير إيجابي ويمكن الاستغناء عنه.

ولذلك فإن استدعاءهم إلى الملتقيات الإسلامية، يجب أن يكون محوطاً يقدر كبير من الحدار، وخاصة إذا كانت هناك مجموعات من الشباب لم يستوعب بعد ثقافة إسلامية عميقة، تعصمهم من شبهات المستشرقين التي قدموها وأعلنوا صراحة أنهم يقدمونها للشباب.

سابعاً: أن تعاولة مناقشة آراء المستشرقين بتقديمهم في هده الملتقيات قد كشف زيفهم، وبين أن المنهج (العلمي!) الذي يعتمدون عليه في البحث مضلل وقائم على الأهواء، وهم يستعملونه في المغالطة بتحريف النصوص أو تأويلها، أو المراوغة في شرحها، أو التضليل في التعليق عليها وإثارة الشبهات منها، وليست لديهم القدرة الحقيقية على الرجوع إلى الحق، إذا تبين هم أو إذا علموه، وهم يصرون على باطلهم ويراوغون؛ إما بالتغاضي عن التعقيبات التي توجه إليهم وإما بالتمويه بالتعلق بأذيال خيوط باهتة لتبرير آوائهم.

دور الإسلام في القرن الخامس عشر:

كانت أبرز الموضوعات التي قدمت في الملتقى عن أفاق المستقبل، ميناسبة قرب قدوم القرن الخامس عشر، ودور الحضارة الإسلامية ومعطياتها، وقد تحدث كثير من الباحثين في هذه النقطة وفي هذه النقطة جاءت أغلب شبهات المستشرقين فقد عرض الدكتور أرجند كورات لمفهوم العصرانية، كصامل من عوامل النهضة الإسلامية وقدم جملة أفكار مما كان يبرده، المستشرقون في الثلاثينات من هذا القرن، وقد كشفنا له أن هذه الأفكار لم تعد ذات موضوع، بعد أن ظهرت حقائق كثيرة، تكشف عن أن هذه الأفكار لم تعد تمثل منطق التاريخ الإسلامي الصحيح، وخاصة فيها يتعلق بالسلطان عبدالحميد، وجاعة الاتحاد والترقي، والدعوة التي حملها خيرالدين التونسي وغيره ضمن مفهوم العصرانية.

اتهام بريء:

أما بالنسبة للسلطان عبدالحميد، فقد كشفت الوثائق عن أنه لم يكن أوتوقراطياً ولم يكن ديكتاتوراً ظالماً بجارب دعاة الحرية، بل على المكس من ذلك كان من أكبر العاملين لجمع وحدة العالم الإسلامي. ولقاومة ذلك التيار الحبيث الذي تخفى وراءه الاتحاديون، وتركيا الفتاة ومدحت وغيرهم، وهم الجياعة الذين عوفوا بولائهم للدوغة (١) من ناحية، ولانصهارهم في المحافل المسونية التي أقامها اليهود من ناحية أخرى، والذين كانوا يعملون في خدمة غطط الصهيونية الذي كان يستهدف الوصول إلى فلسطين: ذلك المخطط الذي جندوا له كل القوى لإغراء السلطان عبدالحميد، حين عرضوا عليه خمين مليوناً من الجنبهات على حد عبارة هرتزل في مذكراته والذي رفض كل عاولات إغرائهم، فكان أن عمدوا إلى تهديده وإسقاطه على النحو الذي كل حدث سنة ١٩٠٩م بتلك المؤامرة الحبيئة التي حمل لواءها قرة صو اليهودي

وهذه الحقائق التي ظهرت أخيراً، تكشف فساد الصورة التي حاول الغرب رسمها - كراهية منه في الدولة العثيانية - والتي لم تعد تصلح لأن تقدم للمسلمين والعرب اليوم مرة أخرى، بعد أن أصبحت خارج التباريخ الصحيح.

مؤامرة العصرانية:

ولقد حاول هذا الباحث أن يسمي هذه المؤامرة خطوة في طريق العصرانية ونسبها إلى الثورة الفرنسية، التي تعرف أن اليهودية العالمية هي التي قامت بها لإسقاط الوحدة المسيحية الأوربية، ولقد كمانت هناك حقاً محاولة من مستنيري الشرق للخروج من مأزق التخلف، وذلك بإعادة النظر

⁽١) الدوغة: هم اليهود الذين خرجوا من الاندلس بعد سقوطها في يد الإسبان وهاجروا لل تركبا العنبائية الإسلامية واقاموا على حدود سالوئيك وكانوا ٥٠ ألفاً وهم خمرة المخطط الصهيون في إسقاط الدولة الإسلامية.

في الفكر الأوربي الحديث إذ ذاك، وكان خيرالدين ورفاعة الطهطاوي، يربان أن هذا الفكر الذي يحمل لواء الحرية والشورى، إنما هو في الأساس فكر إسلامي نقل من مصادرنا، ولكتهم لم يكونوا بعيدي النظر، في تقدير أن هذا الفكر قد انصهر في بوتقة الفكر اليوناني والروماني، وأنه لم يعد يصلح لنا، وقد تنبه إلى ذلك المسلمون بعد ذلك وعرفوا أن مفهوم العصرانية الأوربي هذا، ليس إلا محاولة من محاولات الاحتواء والتغريب والغزو الثقافي، وذلك بعد أن سقطت البلاد العربية أسيرة النفوذ الأجنبي. وفرض عليها التخلي عن تطبيق الشريعة الإسلامية، التي استبدلت بالقانون الوضعي وإقامة نظام الربا الاقتصادي، كما حجبت التربية الإسلامية.

العصرانية تعنى النكسة:

واليوم يرى المسلمون أن مفهوم (العصرانية) هذا لم يحقق لهم إلا الهزيمة والنكبة والنكسة، وأن كل ما حل بهم منذ عام 191۸ هو من نتائج احتوائهم داخل العصرانية، وأن هذه المحاولة قد استهدفت فصل عناصر المسلمين: عرباً وتركاً، وغيرهم وأوقعت الخلاف بينهم، وأسقطت خلافتهم ومهدت لوضعهم في قوالب الإقليمية والعلمانية والقومية الوافدة.

كذلك فإن المسلمين اليوم يعلمون أن اتخاذ أسلوب الغرب في التسلح، وتقليدهم في العسكرية الأوربية لم يكن ليحقق شيئًا دون أن يقيموا المنهج الإسلامي أولاً.

أما المرحلة الجديدة التي أشار إليها الباحث والتي بدأت عام 19.9 فهي مرحلة ضياع طرابلس الغرب ودخول اليهود إلى فلسطين، والصراع بين الترك والعرب، وقد خدع العرب بالاتحاديين أولاً، ولكنهم عرفوا حقيقتهم اخيراً.

هذا ما ووجه به دعاة العصرانية والمتهجمين على السلطان عبدالحميد والدولة العثمانية ووصف التيار القومي الوافد بأنه تيار النهضة.

المجتمع والحضارة:

كذلك ووجه الدكتور جوردن في بحثه عن «الاحتكاكات بين المجتمع والحضارة الغربية» وما أورده من مفاهيم منحرفة، بردود قوية دحضت أخطاءه، فقد ظل يتحدث عن معركة القديم والجديد والتقليد والمعاصرة في الفكر الإسلامي الحديث، وذلك في محاولة للقول بأنه توجد الآن ولا تزال: هوة واسعة وصراع شديد بين التقليد والمعاصرة، وهذه نغمة قديمة يردهما البحثون الغربيون وعملاؤهم وقد لفتنا أنظارهم إلى أنها لم تعد موجودة البوع، بعد أن ظهر التيار الجديد من الأصالة واليقظة الإسلامية، الذي أقام البوم، بعد أن ظهر التيار الجديد من الأصالة واليقظة الإسلامية، الذي أقام فعم واختيار التراث والوافد على السواء، وعاكمته على مفهوم التوحيد فهم واختيار التراث والوافد على السواء، وعاكمته على مفهوم التوحيد الخالص، وأنه لم تعد هناك فجوة بعد أن كشفت حركة اليقظة الإسلامية، عن أن المنبح الإسلامي القرآني هو الأساس، وهو منهج لا يمكن أن يوصف بالجمود، لأنه يقوم على أصول عامة واطر واسعة تستطيع أن تستوعب التقام المادي دون أن تنصهر فيه.

ثوابت الإسلام:

فالإسلام يؤمن بإقامة إطار من الثوابت والضوابط التي لا تنفير ولا تتفير ولا تتحير الأمسل، أمام تبطور المجتمعات أو تغير الزمن، هذه الثوابت هي الأصل الأصيل، الذي تحاكم إليه معطيات الأسم والعصور والحضارات، فتقبل منها وترفض، وتسيغ ما تقبله وتصهره في بوتقة فكرها، حتى لا يكون المسلمون به نسخاً متشابة من الأسم وقد كانت هذه القاعدة قائمة وموجودة، إبان نهضاً الفكر الإسلامي في القرن الثالث فقيد واجهت كل ما ترجم عن اليونان والفرس والهند من تراث، فعرضته على مقاييس التوجيد الخالص، وقبلت منه ما كان صالحاً ثم صهرته في يوتقتها، وواجهت في حزم وقوة كل سموم الفكر البشري والوثني والمجوسي واليوناني والغنوصي، الذي تسرب إلى علم الكلام والفلسفة والتصوف، ثم كشفت زيفه وأعادت بناء مفهوم فكر السنة الجامع المصادر.

كذلك نحن اليوم بعد أن اجتاحت الفكر الإسلامي، عواصف الفكر الغربي والماركسي والباطني والوجودي وغيره، فإننا نؤمن بوجود قاعدة أساسية هي والمنهج القرآن، الذي نحاكم إليه كل ما يقدم إلينا.

هذه القاعدة الحقيقية التي قامت بأيدي مجموعة عظيمة، من أعلام فكرنا الإسلامي المعاصر، أمثال إقبال وابن باديس والمودودي والندوي وحسن البنا ومالك بن نبي ومحمد المبارك وغيرهم، قد انتهت إلى غير رجعة تلك الصورة التي يحاول كتاب الغرب رسمها على أنها تمثل معسكرين متصارعين، والحقيقة أن المسلمين اليوم لم يعودوا يقبلون الحضوع لفكرة مسبقة تفرض عليهم الاختيار، بين الأصالة والمعاصرة أو بين النراث الإسلامي والفكر الوفد أو يوضعوا موضع الامتحان على هذا النحو.

منهج القرآن:

فالمسلمون لن يضحوا بأصالتهم مطلقاً، في سبيل العصرانية أو الحداثة، ويرون أن منهجهم القرآني الأصيل هو أسلوب العيش الوحيد، الذي يقبلونه، وإن كل العلوم والمعطيات الحديثة هي (مواد خام) يجب أن تضهر في بوتقة فكرهم لبناء حضارة الإسلام المتجددة التي تقوم على التوحيد والعدل والرحمة والرخاء البشري، وإن فكرهم الإسلامي القرآني هو وحده الذي يستطيع أن يضعهم على طريق التقدم الحقيقي الجامع للمعنويات والمادات.

ولقد دعونا المستشرقين وكتاب الغرب أن يدرسوا بإنصاف ذلك التيار الجديد من الأصالة واليقظة الإسلامية، لقد كان المستشرقون في مطلع هذا القرن يتتلمذون على علماء المسلمين أمشال أحمد زكي بساشا وأحمد تبمور ويسألونهم عن الحقائق. وإذا أخطأوا زجرهم هؤلاء الرجال ولكنهم لم يلبشوا أن كونوا أجيالاً تدين لهم وتخضع لفكرهم وتنشر أفكارهم أمثال طه حسين وزكي نجيب محمود ومحمود عزمي وأمين الحولي، واليوم نشهيد المؤتمرات الإسلامية وقد كشفت زيف هؤلاء، فعادوا مرة أخرى ليستمعوا إلى كلمة الحق، من ثنايا رجال مؤمنين بإسلامهم ولا يجدون أنفسهم إلا خاضعين أمام الحقيقة وهذه علامة جديدة في مجال الفكر الإسلامي المعاصر.

السموم في حقل التربية:

.. كذلك تناول المؤتمر بالبحث موضوع التربية الإسلامية، وقدمت أبحاث جديدة، ولكن المستشرقين قدموا سمومهم أيضاً وحاولوا تدمير مفاهيم التربية الإسلامية الأصيلة، بأن قدم أحدهم بعض الاساطير القديمة، وتحدث أحدهم عن عصر ما بعد الأسرة، وقد كشفتُ زيفه معلقاً أن الكاتب قد أعطى صورة عن المجتمع الغربي وعن ما وصل إليه من فساد وتحلل وهزيمة. وليس هو ما طلب منه ليقدمه لنا ولكن المطلوب منا أن نعي هذه النجربة الغربية حتى لا نقع فيها، ولنعرف أن منطلق الحضارة الغربية في مسائل المرأة والأسرة والمجتمع التي قد تبرق بريق الإعجاب أمام بعض شبابنا وشاباتنا، ليس إلا اتجاهاً مسموماً للانحدار والتمزق ولن يصل مجتمعنا بفضل الله إلى هذه المصورة المظلمة، ذلك أن لنا من مفاهيمنا وقيمنا ما يحول بيننا وبين السقوط في هذه الهوة.

إن هناك خلافاً عميقاً بين نظرتنا إلى الأشياء والحلول التي نراها لهـا وبين هذا المجتمع.

إن هؤلاء ينطلقون من تفسيرات الفكر المسادي ومفاهيم العلوم الاجتهاعية، التي صنعها اليوم لتندمبر البشرية، إنهم يرون الاختلاط في الرحلات هو أحد حلول المراهقة، ونحن لا نرى هذا الرأي ولكن نرى الاتجاه الديني المستنبر وعدم الاختلاط هو الحل. كذلك هم يواجهون الغرائز عن طريق الإثارة، ولكننا نرى طريق إعلاء الرغبات والتسامي والاعتصام بالصوم وتقوى الله، ونحن نؤمن بالقدوة الطبية في البيت والمدرسة والشارع، وهي ما تزال منطلق التربية الإسلامية.

عودة إلى البيت:

وبالنسبة للمرأة فقد وجهت أسئلة كثيرة بشأن ما عرضناه عن أن القرن

الخامس عشر، سيشهد للمرأة العاملة بالرجوع إلى البيت فقلتُ في الإجابة:

سوف ترى المرأة المسلمة خلال القرن الخامس عشر، راغبة بغير قسر ولا إلزام، إلى التهاس مفهوم الأصالة في رسالتها الحقة، وأنها سوف تختار الأفضل، وترى الأهمية الحظيرة في حماية الطفولة والأسرة، وتفضله على العمل الحارجي. الذي لم يكن في عصور الإسلام الأولى. على هذه الصورة المحدثة الوافدة التي تفقد الأجيال الجديدة الحنان والأموسة، والعطاء الذي يشكل وجدان الإبناء، هذا مع أن الإسلام لا يمنع عمل المرأة في أوضاع صالحة لبنيتها، وقريبة من وظيفتها الاجتماعية، ولكنه يجعل لمسئولية الأسرة والطفولة أسبقية خطوية هذا ولم يمنع الإسلام، يوماً من أن تحضر المرأة ندوات العلم أو تشارك فيها، ولا علاقة بين هذا وين عمل المرأة الماساً.

حديث العلمانية:

وتطرق حديث المستشرقين إلى العلمإنية والدعوة إلى تطبيقها في البلاد الإسلامية فقال الدكتور الدواليبي:

اإن العلمانية عندما نشأت فقد دعت إليها الحركة اليهودية، متأثرة بسلطان الفاتيكان، وكان الحكم الدنيوي يخضع لسلطتين: الإلهية والدنيوية والسلطة الدنيوية لم تكن تمارس عملها ما لم تجيزها الإلهية، فالخطأ كبير عندما يشبه الحكم الإسلامي بأنه حكم أوتوقراطي، وينبغي أن يجل محله العلماني.

والحكم العلماني الذي دعت إليه اليهودية في أوربا هو إزالة السلطة الملكية، والحكم في الإسلام حكم شوري، فالحاكم ينبغي أن يكون منتخبًا وليس باسم الله كها كان في حكومات البابوية، والدولة تقوم على الشريعة الإسلامية التي هي عبارة عن أحكام وقوانين مدنية تستمد أحكامها للمسلمين من القرآن والسنة، ومن هنا فلا حاجة للمسلمين بالحكم العلماني لأن الإسلام لا يعرف السلطة الكهنوتية».

جوانب إيجابية:

وكانت في الملتقى الإسلامي جوانب إيجابية كثيرة، منها محاضرة الدكتور

بوكاي عن العلم في القرآن، وعاضرة الدكتورة المسلمة فيتراي ماير دفش، عن التربية والتعليم في الثقافة الإسلامية أما أشهر المحاضرين في الملتقى فكانوا: الدكتور محمد المبارك، محمد عبدالله عنان، محمد عبدالهادي أبو ريدة، محمد فاضل الجمالي.

كذلك فقد اشتركت في المؤتمر نماذج عربية وإسلامية كثيرة من كل بلاد العرب ومن الصين وإيران وتركيا ومسلمي آسيا الوسطى والمـلايو ومسلمي يوغـسلافيا وأندونيسيا وباكستان.

وأثارت محاضرة الدكتور عبدالكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأردني تعليقات هامة وكانت عن اللغة العربية وتعريب التعليم الجامعي.

وكمانت هناك لقماءات كثيرة في التلفزيون والصحافة مع أعضاء المؤتمر وكانت أسئلة الطلبة والطالبات في غاية الذكاء والتفتع .

ودرس المجتمعون مجتمع (تامرنست) الواقع في جنوب الجزائر والمجاور لمالي والنيجر وشاهدوا خلال رحلات طويلة تلك الأثار العريقة للمنطقة، والجبال الشاهقة واستضافهم سكان جبال الهَجَار من الملثمين والطوارق الأشداء الأبطال الذين قاوموا الاستعهار الفرنسي.

وكانت النقطة الأولى من أبحاث المؤتمر عن دراسة هذه المنطقة والشخصيات البارزة في تاريخها، ودراسة انتشار الحضارة الإسلامية من الصحراء الكبرى وأفريقيا السوداء إلى أوربا، ودراسة تاريخ الراهب شارل دوفوكو الذي قتله الملشمون.

وبالجملة فإن الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي كان خصباً وعامراً بالأبحاث خلال عشرة أيام كاملة تجمع به خلالها أكثر من مانة عالم وباحث من مختلف أنحاء أوربا وآسيا وأفريقيا وكان غاية في التوفيق وقد حقق أهدافه تماماً.

الباب العادي العَمَـــل نِينِ الصِّحَافة



الفصل الأول



العمل في الصحافة

كان العمل في الصحافة حلماً بملاً على حياتي ويشغلني عن كل شيء، ولقد حاولت ذلك بكل الوسائل راغباً في كسر الطوق الذي كان يجبسني في الريف وفي العمل في بنك مصر ولكني حين وصلت إلى القاهرة وإلى العمل في الصحافة كان كل شيء قد تغير تماماً، فغدوت إنساناً آخر وغيرت مثلي الأعلى متخلياً عن الصورة التي كانت تعيش في أعهاقي وأغملها في نماذج الذين كنت أقرأ لهم من أمثال الصادي وعبدالقادر حمزة والعقاد وهيكل فقد تحولت نفسيتي إلى منهج جديد من خلال الدعوة الإسلامية فلما دعاني الإمام الشهيد للعمل في أول صحيفة يومية إسلامية تصدر في القاهرة عام 1927 لبيت الدعوة شاكراً لله وتعالى هذا المنطلة.

ومن يومها وضعت قلمي في خدمة هدف (الدعوة إلى الله) ولم أتراجع وحين فرضت علينا الظروف القاسية أخذت بالتقية حتى مرت الأزمة وانقضت.

الحق أن كنت متطلعاً إلى العمل في الصحافة، غير أنني ما كدت أبدأ العمل فيها حتى أحسست أنني غريب في دارها ـ وذلك بعد أن تـوقفت الصحيفة الإسلامية واضطررت إلى العمل في الصحافة الحزبية.

ووجدت زملائثا يندمجون في الأوساط الفنية والصالـونات الاجتــاعية يسهرون مع الساهرين حتى يحصلون على الخبطة الصحفية أو الحبر المثير.

وتبنيت أنني إنما أبحث عن شيء غير هذا، كان في أعهاقي إيمان بأن أعمل شيئاً مجفق خيراً لهذه الأمة في هذا المجال. ومن هنا بدأت حملة على الأحزاب السياسية كاشفاً عن أخطائها وعيوبها وانشغالها عن القضية الكبرى: قضية الجلاء والحرية.

وفي هذا الخضم ومن خلال ظروف ۱۹۶۱، ۱۹۶۷ وتطلعات الشباب إلى الحربة بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية نشرت كتابي (اخرجوا من بلادنا) فأثار على ثائرات لا حد لها انتهت باعتقالي.

وكان هذا قد اتصل بالحديث عن أسرة محمد علي وموقف عمر مكرم من عزل الحاكم خورشيد وتولية محمد علي والهجوم على الاستعار والاحتلال البريطاني وأعوانه وصراع الأحزاب الحاكمة.

تناولت ذلك في عـدد من المؤلفات والمقـالات تحت عنوان (يجب أن تعلم) كانت لها ضجة في الأوساط السياسية.

* * *

صدر كتاب (أخرجوا من بلادنا) عام 194٧ في إبان حكم إساعيل صدقي فأحدث ضبجة كبرى فقد كان الشيخ وافي الرسام الازهري قد صنع له هذا الغلاف المثير الذي هز القوات الإنجليزية هزأ شديداً في صورة مصري (يلبس لباس الجوالة) يلقي بجحافلهم في البحر مما دفع قواتهم في جنون إلى مصادرته من باعة الصحف.

وسرعان ما طلعت الأهرام في اليوم التالي تقول إنه قد ألقي القبض على مؤلف (أخرجوا من بلادنا) وسيحاكم بتهمة قلب نظام الحكم.

ولكنه لم يقبض عليه ثمة، وإنما مرت فترة تزيد على الشهر وتذكرت يوم سعيت إلى مكتب الأستاذ فتحي رضوان الذي تلقاني هاشاً باشاً وقال:

كل ما في كتابك حق وصدق وأنا جاهز للدفاع عنك في الوقت الذي يطلبونك فيه، ولما وقفت أمام المحقق حدث أمر غريب فقد سالني وكيل النيابة بعد أن قلب صفحات من الكتاب (خطوط تحتها خط أحم):

تقول في كتابك: وإن الاسلوب الحق في مقاومة الإنجليز ليس هـو المظاهرات والهتافات ولكنه العمل المنظم فهإذا تقصد بذلك؟ وتوقفت هنيهـة أستجمع معلوماتي فإذا به يقول: تسمح لي أن أجيب عنك! وفتح صفحات أخرى من الكتاب تحتهـا خطوط زرقـاء وفال: أقصـد ما قلت في صفحـة كذا...

إن العمل المنظم هو بناء المدارس وإنشاء المصانع وكذا وفي سؤالين آخرين تقدم وكيل النيابة (أحمد مختار قطب رحمه الله) فأجاب بالنيابة عني وصرفني ولكن الذين قدموني للمحاكمة لم يكفهم هذا بل أسروها في أنفسهم حتى جاءت مرجة الاعتقالات فكنت في مقدمتها.

ولم أتوقف عن كتاب (أخرجوا من بلادنا) بل تابعت ذلك بأربعة أجزاء كشفت فيها أسرار الأحزاب السياسية وأخطاءها وكنت خلال ذلك أذهب يومياً إلى دار الكتب لأجمع من الصحف هذه النصوص. حتى قالت أخبار اليوم في تعليق:

(إن الحزبية السياسية تهاجم لأول مرة بالوثائق المدعمة بالأرقام والنصوص).

وكنت قد اتصلت بالأستاذ عبدالرحن الرافعي وأهديت إليه هذه المؤلفات الذي قال لي: في كتابة التاريخ بجب أن يكون المؤرخ بجرداً من الإثارة وأن يتقبل النصوص ويقدمها ويعلق عليها أما هذا في رأيه فإنه يتخذ من التاريخ عجينة طبعة يستثير بها العواطف ويهز بها مشاعر الشباب وهذا ليس في نظره وظيفة المؤرخ بل هي وظيفة الكاتب الوطني.

* * *

عملت في الصحافة الإسلامية أولاً فلها توقفت كان عليّ أن أدخل أفق الصحافة العامة سنوات طوالاً قاسيت فيها من الصراع بين المجموعات، وكان أخطرها عندما استولى الماركسيون على الصحافة وأخذوا في إغراء الكتاب بالانضام إليهم تلقاء أجور مرتفعة أو مكافأت عالية.

وكان موقفهم من أمثالنا سواء في مجال الترقى أو العطاء المادي مشروطاً

بما يمكن أن يؤدي إلى وجهتهم من تأييد أو قبول أما الذين اعتزلوا هذا الميدان فقد ظلوا يعانون من وحدة قاسية ولقد كتبت في عديد من المجلات الإسلامية في البلاد العربية، أما في مصر فقد واليت الكتابة في (منبر الإسلام) عشر سنوات، كما كتبت في (رابطة العالم الإسلامي) في مكة (وحضارة الإسلام) في دمشق و (دعوة الحق) في الرباط و (الفكر الإسلامي) في بيروت.

ثم في الوعي (باكستان) والوعي في الكويت.

ثم في (منار الإسلام) في أبو ظبي.

وقـد أثرت في هـذه المقالات كثيـراً من الليخــوعات المتصلة بـالغزو الفكري والتغريب.

. . .

بدأت حياتي كاتباً، ووجدت أن مجال العمل يكون عن طريق الصحافة أو تأليف الكتب، بدأت اكتب الخاطرة والنقد والتعليق في بجال الصحافة مؤمناً بأن هذا هو طريق التعبير عن النفس، غير أن عوامل غتلفة أشعرتني بأن مهمة الكاتب هو أن يقدم شيئاً جديداً أو يستكمل شيئاً بداه غيره، ومن هنا ظننت أنني أستطيع أن استكمل كتابة تاريخ الأدب العربي منذ توقف جرجي زيدان عام 1914.

غير أن نظرتي تختلف، فقد كان منطلق جرجي زيدان هو منطلق المستشرقين وهو الذي صاغ عبارة (عصر الانحلال) على فترة من أنضج وأثرى فترات حياتنا الفكرية حين تداعى المفكرون على جمع ونصنيف التراث الوطني الإسلامي كله في ظل حدوث سقوط بغداد وحروب الصليبين والتنار.

وبي يريب في بي من عمل مستقل له وجهته الواضحة وهكذا وسعت ثقافة عملي فلم يعد صحفياً وإنما أصبح عملاً فكرياً منطلقاً في الصحافة ينطلق من خلال عقيدة ذات رسالة في أعهاق النفس وأصالة هذه الأمة وكشف عظمة تراثها وعطائها.

ثم تبينت أن مهمتي يجب أن يتسع عطاؤها فـلا أقف عنـد حـدود

(الصحافة) أو (الأدب) وإنما تتسع آفاقها إلى مجال الفكر الإسلامي كله.

ورأيت أن النظرة الإسلامية يجب أن تنطلق من المنظومة الإسلامية ثم يكون الأدب جزءاً منها لا ينفصل.

بعيداً عن بدعة التخصص التي تفرضها الدراسات العصرية.

وبعيداً عن نظرية الغرب التي تفصل الأدب عن الأخلاق وعن الاجتماع على نحو ما يقال من أنه لا بأس أن يعجب بالنص الأدبي فينا دون أن نبالي انحراف مضمونه أو أثره على النحو الذي دعا إليه عميد الأدب العربي:

(كسبت الأدب وخسرت الأخلاق).

ومن هنا وجدت أن مهمتي ورسالتي تنظر إلى الأمة الإسلامية والوطن العربي جزء منها في أوسع نطاق الفكر والثقافة.

ولقد فتحت لي دراسة الفكر الإسلامي قضايا عـديدة أهمهـا معركـة النغريب والتبعية الثقافية.

تطور الأسلوب:

تطور أسلوبي الكتابي ومعالجتي للأمور بين ثلاث مراحل:

أولاً: مرحلة العاطفة والرجدان وهي المرحلة التي كانت كتاباتي تنطلق من القلب إيماناً قوياً وأسلوباً وجدانياً، هذه المرحلة انتهت مع المرحلة الأولى للدعوة.

ثانياً: مرحلة النظر التاريخية: وأسميها هكذا لأنني كنت خلالها أبحث عن القضايا بحثاً تاريخياً، ولعل العمل في الصحافة كان عـاملًا هـاماً في استمرار هذا الأسلوب؛ هذه النظرة كانت انتقالًا من الوجدانية إلى العقلانية ولكنها كانت محصورة في النظرة القاصرة.

ثالثاً: مرحلة النظرة الجامعة حيث تدرجت إلى النظرة الإسلامية الجامعة بين العقل والوجدان واستخلاص العبرة والكتابة المضبوطة المحكمة ولا أنسى في هذا فضل المرحرم فؤاد أمين الذي وجهني إلى هذا الاتجاه.



الفصل الثانى

لي في مجال الصحافة ثلاثة كتب هذا أحدها: تطور الصحافة العربية

الكتاب في ٤٠٠ صفحة يتناول بالبحث تطور الصحافة العربية خلال الفترة بين ١٨٧١ وهمو ما اصطلح عليه بمطلع النهضة الفكرية العربية الإسلامية في مصر والعالم العربي حتى ١٩٣٩ تقريباً أوائل الحرب العالمية الثانية.

ويحاول هذا الكتاب من خلال مكانه في موسوعة معالم الأدب العربي المحاصر أن يرسم إطاراً لملامع العصر وصورة المجتمع في هذه الفترة متناولاً العديد من الموضوعات والقضايا والمعارك وخاصة فيها يتعلق بالصحافة الاجتهاعية من خلال دوائر متعددة كالندوات والمجتمعات والمؤسسات ومن خلال قضايا تحرير المرأة ومحاكهات الصحف وتطور الأزهر والرحلات ومن خلال المحاكم والأعياد والمسرح والأغاني والأناشيد وسهرات رمضان والمولد النبوي والفكاهة وغيرها.

وقد ضم الكتاب عشرة أبواب تناولت تطور صحافة الرأي منذ أوائل هذه الفترة إلى أوائل الحرب العالمية الأولى. وعرضت معارك ومساجلات الصحف في هذه الفترة وصورة لدخائل الصحافة وتباراتها وعاكهاتها ولتبارات المجتمع كها تضمنت باباً لطرائف الصحافة يضم المواقف الحرجة والنقد الاجتاعي والإمضاءات المستعارة.

ومن المرحلة الثانية فيها بين الحربين تناول الكتاب صوراً متعددة لأعلام الصحافة في هذه الفترة ورؤساء التحرر وذكرياتهم كها عرض لأثر الاحتلال في الادب والصحافة وأعبار الاقاليم وأشر السوريين في الصحافة ومحاكمات الصحف وصالون الأهرام كها تناول عرضاً عاماً لتطور الصحافة الأسبوعية وصحافة الأدب وصحافة الادب والتفافة.

وشمـل الكتاب دراسة سريعة للمحـررين والصحافيين الذيـن كـانوا يكتبون من خارج جهاز الصحيفة.

كها تضمن إطاراً لصورة العصر وملامح المجتمع فيها بين الحربين.

وقد شمل الكتاب غاذج متعددة وصوراً منوعة لكتابات عشرات من المعدد القليل جداً. المعدد القليل جداً. المعدد القليل جداً. والسحاح روتر والدكتور سيد كامل ومحمد الههياوي والتفتازاني وعزيز خانكي والدكتور محمد أبو طايلة وتوفيق حبيب وغاية القول في هذا الكتاب هو أنه كعاولة لتقديم عمل جديد في هذا المجال من خلال الدوريات، باصطلاح أهل الحرفة أو الجرائد على اختلاف أنواعها واتجاهاتها، بصرف النظر عن الابحاث المكتوبة والمؤلفة، إلى أن المحاولة كانت منصبة على تقديم إضافة جديدة إلى ما في أيدي الباحثين من المؤلفات المطبوعة، هكذا كان حرصي أن أقدم ما ليس في أيدي الباحثين من المؤلفات المطبوعة، هكذا كان حرصي أن ينسق تقديم على المتخلاص نتائج جديدة وحقائق جديدة من خلاله ويعد ليكون صالحاً لاستخلاص نتائج جديدة وحقائق جديدة من خلاله في الكتب والمؤلفات وأن يكون إضافة جديدة تحقق للباحث آفاقاً أرحب من خلال وثائق منطوية ونظرة عدئة.

وكتابان آخران:

الصحافة والأقلام المسومة. تاريخ الصحافة السياسية.



الفصل الثالث ف مجال الأدب

من خلال فترة الأسر كنت أفكر في الخطة التي تحقق بهـا هدفي بمـا يكشف عن عطاء الإسلام للشباب المسلم وقد تبلور فكري حول الإجابة على ثلاثة أسئلة عاشت في خاطري في مطالع الشباب.

أولاً: صورة أمجادنا الإسلامية والعربية.

ثانياً: تاريخ أدبنا العربي المعاصر.

ثا**لثاً**: تراجم أعلامنا وأبطالنا.

ومن هذا المنطلق حاولت خلال السنوات التي تلت من عام ١٩٥٠ أن أعمل في هذا المجال وهي الخطة التي تبلورت عام ١٩٥٦ إلى موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر، ودراسات الأعلام: أعلام الإسلام، الجياه العالية، أعلام وأصحاب أقلام، تراجم الأعلام المعاصرين، أعلام القرن الرابع عشر الهجري.

فضلًا عن دراسات كاملة عن:

أحمد زكي باشا شيخ العروبة، زكي مبارك، عبدالعزيز جاويش، فريد وجدي، حسن البنا.

* * *

كانت (موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر) تهدف أساساً إلى القضاء على النظرة الإقليمية الضيقة التي كانت تسود دراسات الأدب العربي وكان يقال في هذه الفترة: الأدب المصري، الأدب السوري، الأدب التونسي إلخ. وكان من الضروري أن يدرس الأدب العربي كعمل متكامل في المنطقة العربية كلها ويدرس على نحو موحد في ضوء وحدة الفكر والشعور والذوق.

وكشف دراستي في (أدب المقاومة) عن هذه الحقيقة في مواجهة النفس العربية للاستعيار والاحتلال ومعارك المقاومة والثورات المتعددة، خلال مرحلة امتدت أكثر من سبعين عاماً.

ولست أذكر مدى الجهد الذي بذلته والذي اضطرني إلى اتخاذ ونظارة طبية) وكيف أمضيت أكثر من ثلاثة أعوام مقياً شبه إقامة دائمة في مكتبة القلعة فى القاهرة بين الأضابير القديمة من الصحف والدوريات.

وقد أعطتني هذه الدراسة الواسعة التي عشت في دائرتها أكثر من عشر سنوات فكرة ونظرية:

سنوات فكرة ونظرية: أما الفكرة: فهي أن فكرنا العربي الإسلامي، هو فكر حي متحرك

إيجابي مرن منطور، قادر على الحياة والاستمرار والنمو والتجاوب على المستوين: الزمني والبيتي، فهو يمتد زمناً دون أن يتحطم ويقاوم كل مؤامرات تمزيقه أو تدميره ويمند بيئياً فيشمل العالم الإسلامي (بما فيه الوطن العربي).

ويقدم إلى أوربا المقومات التي قامت عليها النهضة والحضارة الحديثة. أما النظرية: فهي أننا في حاجة إلى إيجـاد أساس فكـري نقيم عليه نهضة فكرنا الحديث، هذا الأساس نستمده من فكرنا الإسلامي وثناً. فيه

نهضة فكرنا الحديث، هذا الأساس نستمده من فكرنا الإسلامي ونمثل فيه القيم الأصيلة والمقومات الأساسية.

وقد تبين لي من خلال مراجعاتي للأدب والفكر والثقافة العربية المعاصرة منذ أواشل النهضة إلى الآن أن هناك نظرية ظهرت على أيدي المصلحين أمثال جمال الدين ومحمد عبده والكواكبي وخيرالدين النونسي هي أننا نستطيع أن نقيم بناء الأساس من أصولنا الإسلامية الأصيلة وعليها نبني النظرة إلى التراث وإلى الوافد جميعاً.

وأن هذه النظرة هي وحدها التي تستطيع أن تحمينا من غزو التغريب

وذلك بإرساء مقوماتنا وقيمنا كأساس للبناء، عندئذ نستطيع أن نواجه الفكر الغربي والماركسي على السواء دون أن يقتلعنا.

ولقد كان الفكر العربي الإسسلامي دائهاً مفتوحاً وقيادراً على الأخـذ والعطاء وله من مفوماته ما يمكنا من الحفاظ على قيمه الأساسية التي تقوم على جماع الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة.

. . .

ولقد كان من أهم ما أدت إليه هذه الدراسة هي رد دين للمغرب العربي إزاء أهل المشرق.

لقد قرأت عشرات المقالات التي ينعي فيها كتباب المغرب باقطاره (الجزائر ـ تونس ـ المغرب) تقصير أهل المشرق في عرض تاريخ الأدب العربي الحديث فيه مقتصرين على مصر والشام والحجاز وقد ظهرت في مجال تاريخ الأدب العربي دراسات من تأليف طه حسين والزيات وأنيس المقدسي وغيرهم اقتصرت على المشرق وحده.

ومن هنا كان ذلك العتب: كانوا يقولون أن وجوهنا متجهة إلى مصر والشرق بينها كتاب مصر والشرق لا ينظرون إلينا.

والحق أنه في الفترة السابقة لعام 1908 كانت هناك ضرورة تحول دون قيام عمل أدبي كامل يضم الأمة العربية كلها فقد كان الاحتلال الفرنسي ما يزال مسيطراً على المغرب وتونس والجزائر - غير أن تحور المغرب وتونس ثم قيام ثورة الجزائر قد أعان فعلاً على الاتصال بإخواننا في الأقطار المغربية على النحو الذي مكن من إتمام دراسة شاملة تبلغ (٥٠٠ صفحة) تحت عنوان (الفكر والثقافة في شهال أفريقيا) ضممت دراسة بدأت باحتلال الجزائر ١٨٣٠ إلى العصر الحديث (وحتى الاستقلال) وقد أعانني على هذه الدراسة أصدقاء كرام من نوابغ المغرب في مقدمتهم عبلال الفاسي، وعبدالله كنون، وعبدالعرين مغلاب، وعلى مصطفى المصراتي، وعمد على دبوز، وعبدالعزيز بنبع الله وتوفيق المدني وأبو القاسم كرو. وقد أوضحت هذه الدراسة عمق الروابط الفكرية والروحية والأدبية بين المشرق والمغرب وتسلسل الحركة الإصلاحية والسلفية ممتدة من جمال الدين ومحمد عبده إلى أعلامها في المغرب.

(الشيخ كنون الكبير، والعربي، وشعيب الدكالي وغيرهم) إلى عبدالحميد بن باديس وعبدالعزيز الثعالبي وعلال الفاسي والشنقيطي وأشرت إلى سفارات المشرق إلى المغرب عثلة في شكيب إرسلان وأحمد زكي شيخ العروبة وعشرات غير هؤلاء وأولئك كان لها أبعد الأثر في هذه الروابط بالرغم من الحدود والسدود التي وضعها الاستعار الفرنسي ومن خلال حوالي ألف مرجع بدت الفروق الإقليمية بين المشرق والمغرب ضيقة وقليلة وأوجه الالتقاء واسعة عميقة: وحدة في المشاعر ووحدة في الفكر.

ولعلي أكون بذلك قد أديت بعض الدين لإخواننا هنالك الذين كتيوا عشرات الدراسات عن الادب العربي في المشرق وعن أعلامه وتحدثـوا عن الشام والعراق والحجاز والسودان بروح من الاعتزاز والتقدير.

* * *

هذا وقد أثيرت هذه القضية في السنوات الاخيرة بأسلوب مختلف ولا شك أن تناول القضية على هذا النحو تناول تبرز فيه الإقليمية وتسيطر فيه فكرة الشرق والغرب.

ولو أن فكرة العروبة أخرجت من القضية تماماً لبدا الأمر أكثر وضوحاً فإن النظرة الحقيقية تكمن في أن الأمة الإسلامية واحدة، وأن جناحاها يتضامان ولا يفترقان، أما مسألة العروبة فهذه ليست مقبولة في المغرب تماماً.

ونحن نعترف بالتقصير إزاء المغرب في عدم التنويه بكتابه وآثاره والدور الذي قام به على مدى العصور في حماية العربية ونشر الإسلام.

ولقد كانت شكوى إخواننا أهل المغرب قديمة وصادقة، ولهم الحق فيها ولكن عذرنا أن كانت هذه البلاد الشقيقة مغلقة أمام الجيران إلى أن تحقق استقلالها عام ١٩٥٦ تقريباً ولقد نشر في الستينات عن دور أقطار تونس والجزائر والمغرب في بناء الأدب الوطني والقومي وأدب المقاومة تحت عنوان (الفكر والثقافة في شيال إفريقيا) كها ذكرت قام بطبعه المجلس الأعلى للفنون والأداب.

ومعنى هذا إننا في المشرق لم نواصل غمط حق إخواننا ولكنا تنبهنا لذلك وكان كتابنا بمثابة رد اعتبار لمعتبة إخواننا بالنسبة لتقصير جرجي زيدان والزيات وغيرهم عن كتبوا عن الأدب العربي في البلاد العربية المشرقية وحدها ولم يكتبوا عن الدور الكبير الذي قام به أهل الجناح الأيسر في مواجهة النفوذ الأجنبي.

أما بالنسبة للمغاربة جميعاً فقد كان المشرق مفتوحاً لهم وقد وردوا الحجاز والازهر ومصر وكان لهم دورهم الواضح ولكن القضية كانت في الناحية الاخرى وهي تقصيرنا عن التنويه بالأثار الأدبية والعالمية التي قدمها علماء تونس والجزائر ومراكش وقد تناولنا عدداً من هؤلاء الأعلام بالدراسة حين أتيحت لنا الفرصة واطلعنا على أعالهم وفي مقدمتهم عبدالحميد باديس وعبدالعزيز الثعالي ومالك بن نبي والدكالي وابن العربي وغيرهم.

(اقرأ كتابنا: أعلام وأصحاب أقلام) ولذلك فإني لست أدري كيف لم يقرأ الاستاذين محمد مزالي (تونس) وعبدالله مرتاض (الجزائر) هـذا الذي كتبناه والذي من شأنه أن يخفف العتاب، بل إن الاستاذ البنا أصدر مجلته 194V على نفس عنوان مجلة الشيخ ابن باديس (الشهاب).

أما ما كتبه سلامة موسى عندما وصف الجزائر 1۹۳۰ بأنها توقفت عن النبوض فهو من فساد عقيدته في المسلمين ومن دعوته التغريبية، ولماذا يذكر سلامة موسى ولا يذكر طه حسين الذي هاجم المغاربة، في رسالته عن ابن خلدون التي أشرف عنها البهودي روركايم عندما وصف أهل المغرب المجاهدين في سبيل الاستقلال بانهم متمردون على الاستسلام للحضارة الغربة.

أما عتابه على أحمد أمين والـزيات والموسوعـة الميسرة فليعلم صاحب الكتاب أن هؤلاء جميعاً كانوا مغربيين فكراً ووجهة ركانوا يجاملون فرنسا بل إن الامر أكثر من ذلك غرابة فعندما بدأ كتاب المشرق يتذكرون المغرب بدأوا بكتاب الجزائر الذي يكتبون بالفرنسية أمثال كاتب يس وغيره لأنهم ماركسيون مثلهم ونسوا أولئك الاعلام الذين يكتبون باسم الإسلام والامر كذلك من الناحية الأخرى فإننا عندما زرنا الجزائر ١٩٧٧ تقدمنا إلى إحدى صحفها بتحية تصور مشاعر المسلمين والعرب في المشرق أمام جهاد الجزائر الإسلامي في سبيل التحرر فيا كان من المسئولين عن الصحيفة الكبرى إلا أن تجاهلوا هذه التحية تماماً لأن المشرفين على الصحيفة في ذلك الوقت كانوا ماركسيون لا يريدون أن يأتي ربع من جهة الإسلام.

الفصل الرابع موسوعة معالم الأدب العربي المعاص

اعتقد أن مصدر أهمية هذه الموسوعة بالدرجة الأولى في تقديري إنما يرجع إلى المنهج الذي رسمته لها أساساً، فقد كانت دراسات الأدب العربي المعاصر، قبل ذلك أقليمية (كالكتابة عن قطر من الأقطار) أو شرقية (كالاهتهام بدراسة العراق والشام ومصر فقط) دون التعرض للمغرب العربي بأقطاره الأربعة بحسبانه جزءاً أساسياً في العالم العربي، وإن النظرة إليه ضرورية لإصدار أحكام شاملة على تطور الأدبي العربي.

أما عملي في هذه الموسوعة فقد كان حريصاً كل الحرص على أن يمثل الأمة العربية كاملة بحسبانها وحدة فكرية أساساً تستمد مصادر ثفافتها من الفكر الإسلامي العربي الذي كان فكر المنطقة كلها والأمم والأجناس التي تعيش فيها، من المسلمين وغير المسلمين، فقد طبع الفكر الإسلامي هذه المنطقة بطابعه منذ أربعة عشر قرناً، ومن هنا فقد كانت الثقافة العربية خنك التقافات العبابقة عليها كاليونانية والفارسية والهندية، ومن هنا فقد استطاعت الثقافة العربية المنبثقة عن الفكر الإسلامي أن تحفظ هنا فقد استطاعت الثقافة العربية المنبثقة عن الفكر الإسلامي أن تحفظ ظهرو دراسة واسعة تجمل الأمر كله وحدة واحدة في هذه الدراسة بحسبان أن اللغة العربية مصدرها الأسامي.

هذه واحدة أما المَيْزة الاخرى فهي سلامة الغرض وبعده عن الهوى وتحرره من التحيز وارتفاعه عن الغرض، فالأدباء يدرسون في إنصاف وحيدة كاملة، ويعرض ما لهم وما عليهم ولا يترك منهم أحد كان له تأثير واضح مها كان مكانه من الشهرة أو التبرير الذي فرضته بعض الـظووف، أو ما يكون قد قضى عليه من دخول في دائرة المغمورين.

وميزة أخرى هي الحرص على إعلاء القضايا الكبرى عن النظرة الشخصية وعن محاولة إثارة الحلافات القديمة بين الأدباء مرة أخرى مع الحفاظ النام والأمانة العلمية على النصوص وبذلك تنزهت الموسوعة في عبال التراجم والأحداث والقضايا عن الأهواء والأغراض الخاصة وحاولت أن ترسم صورة شاملة، متكاملة، مع الاهتمام بإثبات المصادر والمراجع عوناً للباحث على أن يرجع للأصل متى أراد.

أعتقد أنني حاولت محاولتين أساسيتين من أجل أن يصل البحث إلى أقرب ما يكون من الكمال.

الأولى: أني ألمت بدراسات لاكثر من ٤٠٠ سخصية من أبرز الفكرين والباحثين في العالم العربي وقد وزعت كل كاتب منهم على فنونه المختلفة مثلاً المازني تناولته بالدراسة في النثر مستقلاً، وفي الشعـر كذلك، وفي القصة، وفي النقد وهكذا بالنسبة لمختلف الكتاب والأدباء.

ثانياً: عنيت بأصحاب الأقلام ممن ليسوا أدباء أو صحفيين وأعددت لذلك دراسة كاملة تحت عنوان: أعلام وأصحاب أقلام أوردت فيها أمثال: عمر لطفي وطلعت حرب وأمين سامي وغيرهم.

أما مضمون البحث فقد قام على أساس قاعدة طبيعية هني أن الادب العربي في العالم العربي متكامل يطبعه طابع الوحدة النفسية والذوقية والروحية التي تستمد مقوماتها الأساسية من جوهر الفكر العربي الإسلامي ومن هنا فهو ملتق متشابه في أصوله العليا على حد قول الشاعر:

«إذا أن بالعراق جريح أمسك الشرق جنبه في عانه،

مسح الأدب العربي المعاصر

أعنى بكلمة ومسح، إجراء عملية حصر كاملة أو قريبة من الكيال للأدب العربي المعاصر، وذلك هو العمل الذي أعتقد أننا في أشد الحاجة إليه. ولا شك أن أهميته تسبق أهمية وتقديم، هذا الأدب لأن التقويم لا يمكن أن يتم إلا بعد أن تستكمل العناصر والوثائق. ولما كان أدبنا العربي الحديث لم يكتب بصورة كاملة منذ توفي المرحوم جرجي زيدان عام ١٩٩٤ فإن هذا العمل قد لفت نظري بصورة واضحة، وزاد في أهمية الموقف بالنسبة لي ظهور بعض الكتب التي تؤرخ هذا الأدب على الصعيد المحلي، وهي المؤلفات التي فرضتها ظروف التجزئة، للعالم العربي خلال فترة الاحتلال التي بدأت قبل نهاية الحول الكول.

ولقد كنت حفياً أن يكون لي شرف الريادة في هذا المجال فأكتب دراسة كاملة لهذا الأدب على النحو الشامل للأمة العربية كلها، وهو نفس الاتجاه الذي سلكه جرجي زيدان ـ وإن كان قد توقف عند الشرق العربي وحده ـ.

وذلك هو العمل الذي حاولت وأحاول القيام به ولكي ما كدت أسير في البحث حتى صادفني عقبات: أهمها عدم وفرة المراجع عن بعض البلاد خاصة الجزائر. ورأيت أنه لا بد للباحث الذي يطمع في استكيال البحث من أن يطوف بالعالم العربي قطراً قطراً وأن يلتقي بالمفكرين ويبحث عن الأثار والمراجع ويطيل التطلع إلى مظاهر الحضارة والأثار وعندي أن البحث في الأدب العربي المعاصر وتاريخه قد اقتصر على الشرق العربي وظل المغرب العربي بأقطاره الأربعة مجهولاً ومنعزلاً ولذلك كان لا بد من دراسة أعلام هذه المنطقة في الشعر والنثر وقد قسمت الدراسة إلى عشرة أقسام:

١ – أدب الحرية والمقاومة.

۲ ــ النثر.

٣ ـ الشعر.

٤ — القصة.

اللغة العربية.

٦ أدب المرأة.
 ٧ – الصحافة.

٨ - الفكر العربي.

٠٠ = المعارك الأربعة . ٩ = المعارك الأربعة .

١٠ ــ النقد والترجمة والثقافة.

وقد جعلت هذه الدراسة تمتد من فخر النهضة منذ منتصف القرن الناسع عشر إلى أوائل الحرب العالمية الشانية وفي النيئر استطعت أن أقدم أعلاماً من نختلف أنحاء العالم العربي وحظني أعلام المغرب العربي بنصيب واضح فقد تناولنا عبدالعزيز الثعالمي وعبدالحميد بن باديس وعبدالله جنون وعلال الفاسي وعمد البشير الإبراهيمي.

غير أنني في الصحافة أعتقد أنه لم يتبسر لي أن أدرس صحافة العالم العربي دراسة كاملة فإن الصحف والمجلات الموجودة في دار الكتب المصرية لا تعطي الصورة الكاملة التي تمكن من كتابة بحث عن الصحافة العربية، وإن كان يعزينا عن ذلك أن الصحافة في العالم العربي كانت واقعة في هذه الفترة تحت ضغط عوامل متشابهة وإن الصحافة المصرية كانت موضع التفات العالم العربي كله.

وعما يتصل بحسح الأدب العربي ما ظهر من مسائل ثقافية متعددة ليس لها في الحقيقة مراجع في عالم التاليف وإن أغلبها موجود في بطون عشرات من الصحف والمجلات. ولقد اقتضاني ذلك البحث في صحف الأهرام والقطم والبلاغ وكوكب الشرق والجهاد أن أقلب عشرين عاماً بين ١٩٢٠ عنها حتى لقد في فترة ما بين الحرين للبحث عن نقاط غنلقة يستلزم البحث عنها حتى لقد اضطررت أن أعمل فهرساً كاملاً للأهرام في هذه الفترة يبلغ ألف صفحة وهذه أمثلة الموضوعات التي كان لا بد من البحث عن تطوراتها في الصحف: دور الأزهر ودور الصحافة وتطور التعلم وترجمة معاني القرآن والخلاف بين المذاهب الإسلامية والجامعة المصرية واللغة العربية ومشاكل المجتمع وإلغاء البغاء والصحدافة وتطورهما والتبشير والتشريع الإسلامي وتحصير الفكر والديمقراطية والسامية والآرية والسلفية والشيوعية والشعوبية والصهيونية والمهابية واللبوائية والبهائية والبريرية والتجنيس والخلافة والديرية والتجنيس عكن دراستها دراسة كاملة إلا بمكن دراستها دراسة كاملة إلا بما المسحف والأراء المختلفة المتعارضة التي أدل بها الباحثون.

وقد شارك في هذه الدراسات عشرات من الباحثين من مختلف أنحاء العالم العربي ومستشرقون وعلماء الغرب رأوا العالم العربي وبعثوا أموره.

ولذلك قلت إن عملية «مسح» الأدب العربي المعاصر عملية شاقة غاية المشقة، ومن مشقاتها أن هناك أعلام لهم جوانب متعددة وهم: يدرسون في النثر والقصة والشعر، أو يدرسون في اللغة العربية والنقد والصحافة.

وإن الدراسة على مستوى الشخصيات كها حدث في كتابنا النثر العربي المعاصر، لا تكفي لتغطية دراسة تيارات النثر، وإنما هي تقدم نماذج من الكتاب في ظل تطور الأسلوب والمضمون.

ولذلك فلا بد من دراسة أخرى لتيارات الأدب العربي ونزعاته وفنونه:

كيف نقوم بمسح الأدب العربي المعاصر:

وقد تفضل الدكتور زكي المحاسني في عرضه النقدي لكتابي (النثر العربي المعاصر في مائة عام) في عدد من مجلة الأديب إبريل ١٩٦٢ فأشار إلى عملية مسح الأدب العربي المعاصر التي نقوم بها في دراسة معالم الأدب العربي المعاصر، فكان لا بد أن نعرض لفكرة «المسح الأدبي» حتى يكون مفهومها واضحاً في نظر المتقفين والباحثين. ذلك لأن صديقنا الكبير قد وصف هذا المسح الأدبي بأنه: (حساب المساحة في عرض الأشياء وطولها) وكان بما ذكره الدكتور الجليل قوله: وإذا جاز هذا في النثر لأن مداره الأكبر على العقل فإنه لا يجوز في الشعر. ومنبعه الروح والشعور.

أنور الجندي مؤرخ الأدب العربي المعاصر

مها قبل في توجيه النظرية الإقليمية في الأدب والتنويه بالمذاهب المتفرعة عنها فإن الذي نراه هو أن الأدب العربي يتلاقى على صعيد الفكرة الجامعة والاتجاه الموحد. وإن أنصار الإقليمية ينهزمون كل يبوم في ميدان الأدب وفي ميدان السياسة على السواء، لأن أمر العرب إلى وحدة وكلمتهم إلى جع، وإن وجد المستعمرون وأذنابهم في تفرقتهم والتضريب بينهم.

ولقد كنا وما زلنا نعتقد أن الأدب العربي وحدة لا تتجزأ. وأن ما يجد فيه من مذاهب واتجاهات هي وليدة تفاعل أفكار الأدباء العرب والتيارات الفكرية الحديثة التي طرأت على الأدب العربي بواسطة الترجمة عن الآداب العالمية والاطلاع على الثقافات الأجنبية المختلفة، وليس شيء منها متولداً عن طبيعة الإقليم والسكان وخصائص الجنس والوراثة كها يحلو لبعضهم أن يعلل ذلك. ولا نستدل إلا بأن أي مذهب أو اتجاه ظهر في بلد من بلاد العرب، كافة، كها كان الأمر فيها مضى حين كانت طريقة المتنبي التي ظهرت في المشرق تجد من أبي القاسم بن هان، راعياً لها في الأندلس حتى سمي بمتنبي المشرق تجد من أبي القاسم بن هان، راعياً لها في الأندلس حتى سمي بمتنبي رسالة التوابع والزوابع وذلك في رسالة الغفران، يكادان يردان من نبع واحد. ولما ظهر التوشيح في بلاد المغرب وراجت سوقه بين أدبائها لم يعتم أبناء المشرق أن اصطنعوه واستكثروا منه حتى الفوا فيه كتباً مخصوصة.

كذلك كان الأمر في الوقت الحاضر، فيا أن ظهر بعد الحرب العالمية

الأولى ما يسمى بالأدب المهجري من إنتاج الأدباء اللبنانيين والسوريين المستوطين في العالم العربي وقلده الأدباء هنا وهناك وفي فجر ظهوره وانتشار آثاره الأولى لجبران ونعيمة وأمين مشرق وغيرهم كان عندنا في طنجة محمد الحداد يكتب بذلك الأسلوب ويضرب على تلك النغمة حتى تحسبه أحد رواد ذلك المذهب والأن نرى انتشار ما يسمى بالشعر الحرفي العالم العربي وتجاوب دعاته وتحمسهم لبدعتهم بحيث لا يخلو قبطر من الأقطار العربية من حامل لراية هذا المذهب، فكيف يكون ذلك إلا إذا كان

الأقطار العربية من حامل لراية هذا المذهب، فكيف يكون ذلك إلا إذا كان الادب العربي مظهراً لوحدة العرب ومادة عضوية في تكوين هذه الوحدة. ولا النين يفهمون هذه الحقيقة كثيرون، ولكن نشاط دعاة الإقليمية كان يطغى عليهم ثم وقع الجزر في مد هذه الطائفة فاختفت أو كادت تختفي أمام الشعور الفياض الذي يغمر الشعوب العربية بوحدة تراتهم نتيجة لوحدة ترشهم ولغتهم وآمالهم وآلامهم وأمامي الآن عمل من أضخم الأعال التي تشهد لهذه الفكرة وتدعم هذا الاتجاه، وهو ثلاثة مجلدات ضخام من تاليف الادب المصري المعروف الاستاذ أنور الجندي، كل مجلد منها يؤرخ الناحية إلى الآن فأولها يتناول موضوع (المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاص). وتأنيها: يهتم بدراسة (المعارك الأدبية) في الامع والتجديد في النثر العربي المعاص). والحضارة في العام العربي الحديث. وثالثها: يختص بجبحث (الادب العربي والحضارة في العالم العربي الحديث، وثالثها: يختص بجبحث (الادب العربي الحديث) في معركة المقاومة والتجمع من المحيط إلى الخليج، وهذه العناوين صفحة من طبحات هذه الكتب التي لا تقل في أصغرها عن خسائة صفحة.

ومن عرف نشاط الاستاذ أنور الجندي وما له من عشرات المؤلفات في مسائل الادب والتاريخ والفكر بعامة، يدرك مبلغ الإحاطة التي لكتبه هذه بالشاذة والقاذة من المسائل التي تناولها فيها.

فالمجهود جبار لا يتأتى إلا لجهاعة من المختصين المنقطعين لهذا النوع من التأليف لو كانوا هناك، ولكن واحداً من ذوي الهمم العالية والصبر المنقطع النظير والفهم العميق للأوضاع الفكرية القائمة في مختلف بلاد العرب والتي تتداعى فيها الاتجاهات والأنظار، هو أنور الجندي استطاع أن يقوم بهـذه المهمة الشاقة وأن يؤديا بمفرده على أتم وجه.

إنها في الحقيقة موسوعة أدبية تضاهي في قيمتها التاريخية بالنسبة للأدب العربي الحديث تاريخ الأدب العربي لبركليان الشهير، على أنها حسب برنامج الاستاذ المؤلف ما يزال لها ذيول طويلة تخرج بها في عشرة بجلدات تتناول معركة التغريب في الفكر العربي والصحافة السياسية في الأدب العربي المعاصر، والشعر العربي المعاصر والقصة العربية، ومعامل الأدب العربي المعاصر بين الحديث ومعالمه بعد الحرب الثانية، وحقائق السياسة والفكر والاجتماع في الأهة العربية. وهو برنامج حافل نرجو للأستاذ أنور المجني أن تتاح له وسائل تحقيقه مع متمنياتنا له بدوام الصحة والعافية وإنه لمحققة بحول الله.

١٩٥٤ ـ عبدالله كنون



الفصل الخامس

تراجم الأعلام والبطولات

كانت دراسة الأعلام أحب الدراسات إلى نفسي ولقد أمضيت أعواماً طوالًا عاكفاً في دار الكتب بالقلعة أبحث عنهم.

وكان يملأ نفسي بالسعادة خلال هذه الفترة أني عثرت على كنز ـ كيا عبر عن ذلك الاستاذ يجيى حقي ـ جعلت أقلب فيه بكل شوق وفرح، ذلك هو كنز الدوريات العربية والإسلامية التي كانت تكشف لي في هذا الوقت عن وجه من وجوه التراث.

هو كتابات الأسهاء اللامعة المهضومة الحق التي انطوت آثارها ولم يعرف عنها إلا الفليل (راجع كتابنا: صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر) و: (أفاق جديدة في الأدب العربي المعاصر).

كان بحثي وراء هذه الآثار حين كشفت لشيخ العروبـة (أحمد زكي باشا) مثلًا أكثر من ثلاثهائة مقال كتبها خلال سنوات تزيد على أربعين سنة.

وكذلك بالنسبة للشيخ شاويش، وتنابعت ذلك ثم حناولت دراسة المجتمع المصري الإسلامي من خلال هذه الأثمار (اقرأ: كتاب والشرق في فجر اليقظة»).

كانت فكرتي هي بعث هذا التراث بإيمان صادق بأنه هناك بطولات أدبية وفكرية نعرف أسهاؤها ولا نعرف تراثها.

أمضيت عشر سنوات في هذا الحقل تقريباً، أصعد في دار الكتب

بالقلمة (ومعنا دكتور محمد صبرى والاستاذ أحمد حسين ومحمد سبد كيلاني كل يبحث عن طلبته) وأمضي هناك الساعات ومعي ثبت عريض بأساء مقالات وصحف وكتاب (وكانت فترة ما بين الحربين (١٩١٤-١٩٣٩) تشغلني كثيراً لـدراسة تياراتها اقرأ (الفكر العربي المعاصر في معركة التعريب والتبعية الثقافية) كنت أحس في أعماق نفسي أنني أعمل عملاً عربياً إسلامياً هم إحياء هذه البطولات ودراسة تلك الأثار.

وكنت معنياً في نفس الوقت بمعالم الادب العربي المعاصر وتاريخ الأعلام في المنطقة العربية وأنا أحس بأنني أؤدي واجباً وطنياً عربياً إسلامياً ولكني لم البيت أن أشعر أن الأمر المطلوب مني يختلف، وأن هناك مسئولية كبرى ملقاة على عاتقى، وإن هذا الكنز الذي كنت فرحاً به لا يساوي شيئاً إذائها.

تلك هي مسئوليتنا جميعاً إزاء الإسلام نفسه، وإزاء التغريب والغزو الثقافي الذي بدأ يشكل سحابات سوداء في أفق الفكر العربي - كها كنا نسمه _ هنالك بدأت معركتنا مع الغزو الثقافي وكانت التحديات الصهيونية من ناحية والتحديات الماركسية من ناحية أخرى في أوثل العقد السادس قد تجمعت وأحسست أننا مطالبون بعمل أكبر: أكبر بكثير في دائرة الفكر الإسلامي وليس الأدب العربي أو أوفق الوطن العربي.

ومن خلال قضايا المجتمع والاقتصاد والسياسة والتربية وليس من خلال تراجم الادباء والبحث عن تراثهم.

هنالك في عام ١٩٦٢ دعيت إلى هذا الأفق الإسلامي الواسع تحت اسم الفكر الإسلامي العربي عشر سنوات أخرى حتى إذا زالت الغمة التي كانت تواجه الفكر الإسلامي وسقطت قلاع الماركسية والشيوعية معاً في نكسة المعدا وانكشاف الأفق أمام ذلك الإحساس الغامر بالعودة إلى الله بعد أن فشلت الديمقراطية الغربية والماركسية جميعاً في العطاء وسقطت القدس في أيدي الصهيونية، هنالك كانت المرحلة الثالثة وهي أعمق هذه المراحل: مرحلة الدراسات الإسلامية تحت اسم الدعوة إلى الله تبارك وتعالى وليس الفكر الإسلامي وحده.

وساعد الأفق العام ١٩٧٣ على هذا النصر الجزئي الذي تحقق باسم معركة رمضان.

خلال فترة حركة الجيش حتى ١٩٧٠ كنان الحديث عن الإسلام يتم تحت السر الفكر العربي الإسلامي) حيث لم يكن عكناً تناول المسائل إلا في هذا الإطار حيث كانت دعوة القومية العربية تصبغ كل شيء بلونها، فكنا تتحرك في هذا الإطار ولكنا نقدم مفهوم الإسلام وكنا كثيراً ما نقدم بطولات الإسلام ومفاخره تحت أسياء عربية ـ ولقد سألني في هذا شيخنا الاستاذ ابن باز عندما التقبت به أول مرة وشرحت له عذر الكاتب المسلم في عبط يغلب عليه سيطرة الفكر القومي والفكر الاشتراكي ماذا يفعل. فاقرني على ذلك.

ولكن عندما أذن الله تبارك وتعالى عام ١٩٧٠ وزالت الغمة وانفتح الباب جاءت كتابات الإسلام صريحة واضحة لا لبس فيها.

أعتقد أننا كنا في هذ الفترة الدقيقة من حياة الأمة الإسلامية في حاجة إلى هذا العمل الذي سيضع تحت أيدينا وثائق تاريخية تكشف قدرة أمتنا على مدى الزمن من الحركة والتطور والأخذ والعطاء والتلقي من خلال قاعدة أساسية واضحة تتمثل فيها شخصيتنا الأصيلة ومقومات فكرنا العربي الإسلامي القادرة على العطاء والالتقاء بالحضارات والثقافات في مختلف الأزمان والاوطان.

ولا شك أن تقدير الشباب المسلم القارى، لهذا اللون من الدراسات يعطينا مزيداً من الثقة والإيمان بأن هذا الجيل قد بدأ يكتشف عن نفسه ويؤمن بعظمة أمته، هذه العظمة التي ليس لها إلا مصدر واحد هو الإسلام، وقد كنا إلى عهد قريب نتنكر لتاريخنا ولغتنا وقيمنا الفكرية والروحية ونندفع وراء بريق الثقافة الغربية فلا نأخذ منها مع الأسف إلا قشورها، ذلك أن الاستعهار كان يحرضنا على أن نتنكر لعظمة أمتنا ونتجاهل روح فكرنا الإسلامي التي تراكم عليها غبار كثيف حيث حاولت الشعوية إثارة الشبهات حوله والانتفاص من قدره في حملة معترضة كشف الستار عنها من بعد حين أطلق عليها أصحابها (تغريب الشرق) ونزعه من واقعه الفعلي والعمل على بلبلة فكره بتيارات ومذاهب عليها بريق خادع وقعد جند الاستعمار لها أقبلاماً وصحفاً، ومضى يسوقها حرباً عنيفة يحطم بها عوامل القوة في شخصيتنا الحية التي صنعت المجد في ميدان العلم، والبطولة في ميدان الحرب والعطاء في ميدان المحرب.

ولقد خدعنا ثمة وغشت عيوننا سحابة مظلمة فاندفعنا وراء دعوات الإقليمية الضيقة والفرعونية والفينيقية والأشورية والقومية الوافدة ومضى بنا هذا إلى واقعية ضيقة تقيم الحدود المصطنعة في وطن واحد يمتد من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي.

. . .

هؤلاء الأعلام: ما أجدرهم بالتقدير والتكريم فقد كانوا أحجار الأساس في هذا البناء الضخم، لقد ناضلوا في ظروف قاسية وكانت تحوطهم المؤامرة. والسجن والتعذيب والنفي من كل ناحية، وقليا سلم أحد منهم من مكاره الجهاد فهم شهداء أبرار تجمع بينهم وجوه شبه كثيرة أهمها التجرد والعمل الخالص دون ترقب أجر أو جزاء بل ربما كانوا يزدادون مع العنف والظلم قوة على المقاومة وقد تركوا جذوراً قوية في التربة ما تزال حية، وكان موتهم حياة لامتنا.

وبطولاتهم هي التي دفعت أمتنا الإسلامية إلى طريق المجد، وكان القلم في يد بعضهم سلاحاً جباراً وكانت الكلمة مناراً متوهجاً، كانت كلمات جمال الدين ومحمد عبده ومن قبله عمر مكرم، ومن بعدهم عبدالعزيز جاويش والكواكبي ومصطفى كامل، وأمين الرافعي ومحمود أبو العيون كم أحيت القلوب الغافية وردت إلى النفوس الجزعة أمنة وطمأنينة وقبد عاش هؤلاء وغيرهم في هجرة دائمة وتقلب في البلاد، لا يقرون ولا يهدأون، كانت النار تأكل قلوبهم من أجل الحرية والحق، وكان الاستعار يطاردهم فلا يقر فم قرار. ولقد ارتبطت نفسياً بهذه الشخصيات، وهذه البطولات، واحببتها وأصبحت مني بمقام الآباء والأجداد، تعرفت إليها وصاحبتها على طريق طويل حتى ألفتها وألفتني، حتى لكأني عشت معهم معاركهم.

لقد ارتبطت بها لأنها جاهدت وضحت واستشهدت دون أن تنال ما هي جديرة به من مكانة بل لقد لقي بعضها اضطهاداً عاصفاً فحرم اسمه أن يذكر أو ذكر مشوباً بالانهام.

ولقد جاء اليوم الذي تحررت فيه كتابة التاريخ.

ولقد كان مذهبي في كتابة هذه التراجم أن أعيش من البطل حياته وأتحدث معه وأبحث عن رأيه في كل ظرف وتصرفه إزاء كل حدث وأتصوره وهو يأكل ويشرب وينام ويمشي وحين يواجه الأحداث والمواقف مستخلصاً العبرة كاشفاً عن آثاره.

* * *

أعتقد أننا كنا في هذه الفترة الدقيقة (١٩٤٦ - ١٩٦٧) في أشد الحاجة إلى هذا العمل الذي يضع تحت أيدينا وثيقة تاريخية تكشف عن قدرة أستنا على مدى الزمن على الحركة والتقدم والأخذ والعطاء من خلال قاعدة أساسية واضحة تنمثل فيها شخصيته الأصيلة ومقومات فكرنا الإسلامي.

- ــ الجيل في أعلامه.
- أعلام وأصحاب أقلام.
- ــ تراجم الأعلام المعاصرين.
- أعلام القرن الرابع عشر الميلادي.
 - أعلام الإسلام (تراجم قصيرة).
 - الجباه العالية.
 - أعلام الحرية.

(هـذا غير تـراجم الأدباء التي ضمتها موسوعة معـالم الأدب العـربي المعاصر).

~ ~ ~

كتابات هيكل وطه حسين والعقاد عن السيرة:

لقد طالما هللنا لكتابات هيكل والعقاد عن السيرة إبان ظهورها فصولًا سواء في السياسة الأسبوعية أو في الرسالة.

فقد كان الطابع الإسلامي مفقود تماماً في كتابات ذلك العصر (عصر الأربعينات) غير أننا لم نلبث ـ بمراجعة مفهوم الإسلام الأصيل الذي علمتنا إياه الدعوة الإسلامية ـ أن وجدنا أن هذه الكتابات لم تكن ذات أمسالة حقيقة، وأنها تأثرت بمذاهب المستشرقين ومناهج العلمانيين.

ثم ظهرت كتابات أكثر أصالة كشفت عن تبعية ما كتبه طه حسين وأبانت عن أخطاء هيكل والعقاد.

ومن هنا كان لا بد أن نكشف عن هذه الوجهة ونعريها تماماً والواقع أن تنامي التيار الإسلامي وبروز مفاهيمه في نقد الأدب وتاريخ الأدب وفي كتابة التاريخ وكتابة السيرة كل هذا أوضح ضرورة أساسية في كشف أمر جيل الرواد جمعاً: هؤلاء الذين تصدروا للكتابة والزعامة الأدبية خـلال أجيال الثلاثينات والأربعينات ومن هنا كان كتابنا (جيل الرواد والقمم الشوامخ).

آلاف بيت من الشعر لشوقي كانت مدفونة في الصحف القديمة

لم يبق من ذلك الجيل الذي استفتح النهضة بعد الحرب العالمية الأولى غير الدكتور محمد صبري السربوني، فقد ذهب زملاؤه من أهل جيله (طه حسين، العقاد، هيكل، الزيات، المازني، الرافعي) هؤلاء الذين ولدوا قبل مستهل القرن العشرين الميلادي بسنوات وكتبوا في السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى فصولاً في مجلة البيان التي كان يصدرها البرقوقي أو مجلة السفور أو غيرها، ثم أتبح لأغلبهم السفر إلى أوروبا والعودة، وكانت نقطة تألقهم في إطار الأحزاب السياسية والصحف الحزبية بعد الحرب العالمية الأولى، كان الدكتور صبري واحداً من أولئك الذين درسوا في جامعات أوروبا وتميز على أترابه بأنه أحرز «دكتوراه دولة» من السربون وهو ما لم يحصل عليه غيره منصور فهمي أو طه حسين أو زكي مبارك أو غيره.

وقد قطع الدكتور محمد صبري المراحل الأولى من حياته الأدبية في كتابات متعددة، أغلبها دراسات التاريخ: تاريخ مصر في عهد إسهاعيل، وأبحاث عن قناة السويس وفصول أدبية ودراسات أطلق عليها اسم الشوامخ تناول فيها بعض شعراء الجاهلية.. ولكن العمل الكبير الذي قام به والذي أحدث دوياً شديداً هو ذلك الذي قام به في سن السبعين وهو جمع ما لا يقل عن خسة آلاف بيت من الشعر كانت مدفونة لشوقي في الصحف القديمة، لا ندري هل عزف شوقي عن جمعها في دواويته وقد أصدر الشوقيات في حياته، لا أله كان يتابث لإصدارها من بعد. الحقيقة أن معظم هذا الشعر قد نشر في الصحف خلال أربع وأربعين عاماً (١٩٨٨ ـ ١٩٣٢)، وأغلبه غير محمود

بتوقيعه الصريح وبعضه غير ممهور بتوقيع أصلاً، ولكن حاسة الدكتور صبري السربوني الفنية ومعاصرته لهذه الفترة أعانته على اكتشاف هذا الكنز وتقديمه في كتابه المعروف (الشوقيات المجهولة) وقد أثيرت قضايا أدبية: هل من حق الباحثين أن ينشروا شعراً لشاعر لم يمهره أو لم يرغب هو في نشره.

الحقيقة أن أحمد شوقي كان يمثل في هذه المرحلة دوراً مزدوجاً فقد كان شاعر الأمير ولذلك فإن شعره المعلن كان هو الذي يجري في هذا المجرى، ولكن شوقي كان وطنياً وكانت له مواقف من الاستمار ومن النفوذ الأجنبي مما قد لا يرضى عنه الحديوي فكان ينشر هذا الشعر بدون توقيع أو بتوقيع رمزي.

وتلك قضية يجب أن تدرس، فقد صدرت الأجزاء الأربعة من ديوان شوقي بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٣ وتم طبع الجزئين الأخيرين بعد وفاته، ومر على ذلك ثبانية عشر عاماً حين فاجاً الدكتور صبري قراء الأدب العربي بهذا الممل الضخم الذي كرس له أكثر من خمس سنوات، وهو يواصل البحث في دور الكتب بالقاهرة ويصعد إلى دار الكتب في القلعة، وذلك عصل شاق حيث يمضي ساعات الصباح يقلب المجلدات القديمة صفحة صفحة، يواجه في كل ورقة الأثربة المتنازة من الورق القديم.. والمشقة في هذا السن الذي يعبر به إلى الحلقة الثامنة من عمره المبارك.

وقد استطاع أن يصدر هذا المجلد الضخم في ٣٢٠ صفحة من القطع الكبير على أنه يمثل (آثار شوقي التي لم يسبق كشفها أو نشرها خلال الفترة من عام ١٩٨٨ ـ ١٩٠٣) وقد أضفى على البحث مراجعات ضخمة وأبحاث تاريخية عديدة فضلاً عن المراجعات الدقيقة التي قام بها بين ما نشر منه في ديوان شوقي الأول الذي أصدره عام ١٩٩٨ وبين ما أسقطه شوقي عندما أعاد طبع ديوانه عام ١٩٣٦ وعشرات من القصائد التي عدل شوقي ألفاظها لتوفيق وعباس، وما يتصل بهذا من هجائه لعرابي في عديد من القصائد لتوفيق وعباس، وما يتصل بهذا من هجائه لعرابي في عديد من القصائد وكذلك ما يتعلق بأشعاره الأخرى التي كان ينشرها بدون توقيع أو بتوقيح رمزي مثل دالندي، والسائح و وش، و وأناه و «شم برم».

ولا شك أن كشف هذا التراث للشاعر العربي الكبير عمل رائع فقد كانت خسارة كبرى للأدب العربي أن تظل هذه الخمسة آلاف من أبيات الشعر مدفونة في بطون الصحف والمجلات، ليس فقط لقيمتها الأدبية ولكن لأنها تلقي أضواء جديدة على شخصية شوقي وملاعمه النفسية وحياته وتفكيره، فإن شوقي حين طبع ديوانه عمل على إبراز صورة أدبه ونفسه في أبمى حللها وكذلك حرص أبناؤه وآله في الجزئين اللذين طبعاهما من بعده.

أما الدكتور عمد صبري فإنه وضع أمامنا شوقي في صورته الحقيقية عارية من كل تذريق وافتعال وتعمل، ولما كان شوقي وشعره ملك للتاريخ فإنه من الحير أن تنكشف هذه الصفحات ولا ريب أن الدكتور عمد صبري قد أفاد من خبرته الواسعة وتجربته الأدبية في إنجاز هذا العمل والذي يتمثل كان الدكتور صبري من أدباء مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى إذ أصدر كان الدكتور صبري من أدباء مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى إذ أصدر عام 191 كتاب (شعراء العصر)، وكان في هذه الفترة على صلة بالعاملين في المختل الأدبي، وقد عرف إسماعيل صبري عام 191 وتردد على المنفلوطي قبل ذلك 190٩ حيث أرشده إلى كتاب: (الوسيلة الأدبية) وكتب له مقدمة قبل ذلك موجه نشر خليل وذي الرمة والبحتري وكتب عن البارودي، وإسماعيل صبري وجمع نشر خليل مطران، وهذه كلها خلفية واسعة وعميقة لعمله هذا.

وإذا كان لنا أن نسأل عن العمل الذي يقوم به هذا الرائد الذي بقي وحده من جيل ضخم فإننا نقول: إن الدكتور صبري يعمل منذ تلك السنوات التي أتم فيها بحثه عن شعر شوقي (١٩٦٧ - ١٩٦٧) الأن فإنه مشغول بعمل ضخم هو تاريخ والحضارة العربية الإسلامية في أفريفياه... وهو موضوع لم ينل حظه من البحث والتعمق، وقد قطع هذا البحث مراحل واسعة وأنجز نتائج وحقائق هامة وخطيرة تكشف زيف الاستشراق ودعواته المبطلة التي حاولت تجريد العرب في أفريقيا من تراثهم الإسلامي الذي حرقه الاستعار، وحاول حجبه حتى يروج لدعواه المبطلة، بأن هذه البلاد كانت مجهولة ولم تكن لها حضارة أو ثقافة، وحتى يدعي أنه هو ممدن الشعوب.

شيخنا العامودي:

لشيخنا العلامة محمد سعيد العامودي أثر بعيد في الادب العربي المعاصر لا يعرف قدره إلا الذين تابعوا إنتاجه وعمله الادبي ونظمه الشعري الذي تحفل به دراسات الأدب العربي في المملكة العربية السعودية، ولقد كان لبحثه الفريد عن «حافظ إبراهيم» في المؤتمر الأول للأدباء السعوديين عام ١٣٩٤ هـ آثاره البعيدة التي كشفت عن مقدرة هذا الكاتب الكريم وعمق دراسته ولا عجب فالشيخ العاموي معروف لأدباء العرب منذ عام ١٩٤٤ أي منيذ خمين عاماً أو يزيد عندما نشر بالقاهرة بصحيفة الشورى رباعياته ثم كان فوزه بالجائزة الأولى في المسابقة التي أقامتها عجلة الهلال عام ١٩٣٣ في ترجمة تلك القصيدة الإنجليزية إلى اللغة العربية شعراً وهذه هي القصيدة.

دأي غير البكا والسهاد أسامي وتختفي في اتداد وتلاها الثيباب غض الإهاب غير حائف ولا هيباب تماركاً خلفه الحوجود وراء هكذا. هكذا أراد وشاء فاهما للحياة ضر الزمان عيب إن داءه المنقصان منه لي صاحباً وفياً وخلا غير أن الرمان فات وولى

أنا بالأمس حيناً كنت طفلاً ليس كان هذا الزمان ينسل في بطه شم لما تلك المطفولة ولت بات هذا الزمان يمثي حيثاً وتقفي عهد الشباب سراعاً غير أن الزمان أصبح يجري ثم لما أصبحت شيخياً كبيراً إنها فهمنا الحياة كال ولقد خلت أني سوف القى فاردت السير الحثيث إليه

وما تزال آشار العلامة العامودي تتعدد على الزمان وإشرافه على الصحافة الإسلامية في مكة جريدة صوت الحجاز، ومجلة الحج ومجلة الرابطة خلال سنوات ثلاثين يعطينا مفهوماً لذلك الدور العظيم الحافل الذي قام ويقوم به وكانت مراجعاته ونقداته للتأليف العربي وإلمامه بجوانبه المختلفة حتى لا يفوته بيان عمل من أعمال الفكر العربي الإسلامي الحديث، كل ذلك يدعونا إلى أن نرسل للشيخ تحية متواضعة على هذه الصفحات اعترافاً من كاتب السطور بفضله هذا الرائد الكبير.

(٢)أخطاء في البحث في تراجم الأعلام

على الكاتب المسلم أن يكشف ما أخطأ فيه إذا تبين له وجه الحق، ولقد كانت هناك جوانب من التاريخ خفيت علينا زمناً، ومن ثم فقد ضللنا الطريق بالنسبة لمجموعة من الأعلام فكتبنا عنهم سواء في موسوعة (الأعلام الألف) أو في مؤلفات أخرى. جاء الحطأ من نقص في المعلومات التي كانت بين أيدينا والتي كان النفوذ الأجنبي قد قدمها إلينا سواء في مناهج الدراسة أو في الثقافة وكانت أخطر ما هنالك ما خفي عنا من خمططات الشعوبية أو بلوتوكولات صهيون.

أولاً: كان الخطأ في تقدير شخصية السلطان عبدالمحميد وما أثير حوله من شبهات ولم تكن الصفحة الخاصة بموقفه من اليهودية العالمية قد كشفت به وخاصة ما يتعلق بالاتصالات التي جرت بينه وبين هرتزل.

ثانياً: ما يتصل بالعصر التركي الذي جاء بعد السلطان عبدالحميد وهو عصر الاتحاديين ودورهم الحدطير في التسليم للصهيونية العمالمية وإسقاط عبدالحميد وتقسيم طرابلس (الغرب) وإدخال الدولة العثمانية في الحرب العالمية دون وجه من وجوه الحاجة إلى ذلك.

ثالثاً: ما يتصل بالدور الذي قام به مصطفى كهال أتاتورك مكملًا لدور الاتحادين وإسقاطه للخلافة الإسلامية وإلغائة للحروف العربية والشريعة الإسلامية.

وقد أثر هذا كله على عدة شخصيات: منها بعد شخصية السلطان

عبدالحميد شخصية (مدحت) الذي كان على رأس مخططات الماسونية وكنا نظن كها كان يطلقون عليه (أي الأحرار).

رابعاً: ما يتصل بأعلامنا في الأدب والفكر الذين تنابعوا التغريب والنفرذ الاجنبي وكل ما يتصل بما قدموه من سموم وفي مقدمة هؤلاء طــه حسين وسلامة موسى وعلي عبدالرزاق ومحمود عزمي.

ومن هنا كانت شخصيات فرويد، وماركس ودوركايم من الشخصيات الموصومة التي كانت داخل إطار المؤامرة التلمودية الصهيونية لإفساد مفاهيمنا الإسلامية.

خامساً: ما يتصل بإحياء الفكر الوثني اليوناني والفكر الشعوبي الشرقي وإحياء أمثال الحلاج وابن عوبي والسهروردي، وأبي النواس وبشار وغيرهم وكذلك شخصيات ابن المقفع وإخوان الصفا.

سادساً: ما يتصل بالتاريخ الوطني والقومي والشخصيات التي أعطيت مزيداً من الشهرة والبطولة الكاذبة أمثال سعد زغلول، لطفي السيد، قاسم أمين.

سابعاً: الشخصيات التي كانت من وجهة نظر السياسة الحزبية والنظرة الوطنية ذات أهمية بينا هي في موازين الإسلام لا تعد شيئاً من أمشال: طلعت حرب الذي كان ضالعاً في طريق النظام الربوي أو مختار الذي كان يعمل في مجال التهائيل.

ثامناً: كل ما يتصل بالشخصيات الفرعونية والجاهلية أمثال أخناتـون ورمسيس والإسكندر، وتوت عنخ أمون.

تاسعاً: الشخصيات التي خدعت المسلمين في بلادها واغتصبت منها حركة النهضة أمثال غاندي في الهند والدور الذي قام بـه في سلب زعامة المسلمين للحركة الوطنية.

عاشراً: شخصيات أعطاها التغريب والماركسية قدراً أكبر من مكانها وحقها، وذلك تحليل آثارها التي لم يكن في طريق المفهوم الإسلامي أمثال رفاعة الطهطاوي والكواكبي. حادي عشر: شخصيات أخذت طابع البطولة الوطنية بينها لم يكونوا إلا أعداءً للإسلام ومحاربين له أمثال سوكارتو، عبدالناصر، ميشيل عفلق.

ثاني عشر: شخصيات كان لها دور عظيم في بجال العمالم الإسلامي والحضارة الإسلامية سواء في بجال الطب أو الكيمياء ولكنهم كانوا في بجال الفلسفة معارضين للمفهوم الإسلامي أو خاضعين لمفهوم الفكر الباطني والإغريقي وتوابع له، أمثال ابن سينا والفارايي وابن رشد والكندي.

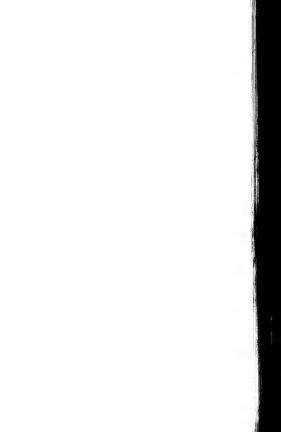
ثالث عشر: أسهاء لمعت في مجال الصحافة وكانت في خدمة النفوذ الأجنبي أمثال شبلي شميل وفرح أنطون وجبرائيل تقلا وأنطون الجميل وجرجى زيدان ويعقوب صروف.

ونحن نأسف كثيراً لما كتبناه عن السلطان عبدالحميد قبل أن نتبين دوره الحقيقي وقد وضعناه مرة في صف الطغاة ومرة في صف المستبدين ولم يكن من ذلك من شيء.

كما نأسف لما التمسناه من إعجاب بشخصيات غربية ضالة لها أسماء لامعة، ولكنها لم تكن إلا شطائر الصهيونية التلمودية والماسونية أمثال فرويد وداروين، وكرومويل، ونهرو، ومتريني، ومارتن لوثر، وسافونارولا (وقد جاء ذلك في كتابنا والأعلام الألف»).

ويرجع هذا كله أساساً إلى المرحلة المضطربة التي جرفتنا قبل أن نننبه إلى تطبيق مفهوم الإسلام الصحيح في مجال التاريخ والتراجم..

المباب السابع المسابع المرحق لة التحاسِمة



هي أحداث خطيرة وحاسمة صاحبت حياة كاتب السطور كان لها أبعد الأثر في تكوينه وفي وجهته وفي تشكيل فكره.

ولدت في أتون الأحداث في نفس العام الذي صدر منه تصريح بلفور 191۷ وفى السنوات الأولى سقطت الخلافة الإسلامية 1978.

وحاصرت الأمة الإسلامية أخطر حادثة بعد سقوط الخلافة وهي ضياع فلسطين التي بدأت معركتها ١٩٣٦ حتى ضاعت ١٩٤٩ ثم ضاعت القدس ١٩٦٧ إبان أحدث خطر في حياة العرب والمسلمين وهي النكسة الخطيرة.

وكانت الشيوعية قد سيطرت على الإعلام والصحافة ١٩٦١ ثم جاء إتفاق كامب ديفيد بعد نصر رمضان ١٩٧٤ الذي لم يحقق إزالة هزيمة ١٩٦٧ بعد أن تحولت الطرق.

ولقد هزني وأشقاني أمر سيطرة الشيوعين على الإعلام والصحافة 1911 ووجهني وجهة حاسمة في مواجهة الفكر الوافد وإن كنت قد عملت في عمال مقاومة التغريب والغزو الثقافي منذ وقت بعيد غير أنني وجدت نفسي إزاء حدث من أخطر أحداث الأمة الإسلامية قاطبة وهو مؤامرة تضافر الفكر الغربي والفكر الشيوعي والفكر الصهيوني جميعاً واتفاقهم على خطة بالغة الخطورة في مجال الفكر والثقافة بعد السيطرة على المصرف والمدرسة والمحكمة.

وفي هـذه المرحلة تشكـل تصوري الفكـري تشكلًا واسعـاً استهدف مواجهة كل الأخطار والتحديات. ١ – وكان علي أن أواجه الاستشراق الغربي والماركسي والصهيوني ا أواجه التبشير (التنصير) الذي كان يرسم خططه لاحتواء الأمة الإسلامية جميع أقطارها.

وكذلك كان من الضروري الكشف عن زيوف الأسياء التي صن التغريب والغزو الثقافي وفي مقدمتها الأسياء المسياة بأسيائنا: رفاعة الطهطاء ولطفي السيد وساطع المصري وطه حسين، أما الأسياء الأخرى التي تح شارات دينها فقد كان الشباب المسلم يعرف وجهتها.

وكان لا بد من كشف أخطار كرومر في القانون الوضعي ودنلوب التعلم وزويمر في التبشير ودارون ومن ورائه ماركس وفرويد ودوركايم وكان بد من التعرف على أعلام الإســـلام في العصر الحديث: هؤلاء المجـاهد الذين واجهوا الاستمهار بقوة.

الشيخ شامل في القوقاز وعبدالقادر الجزائري في الجزائر، وعبدالكر الخطابي في المغرب وأحمد عرابي في مصر وأحمد عرفان في الهند والسنوسي ليبيا ومحمد أحمد المهدي في السودان.

هؤلاء المذين سبقوا الـزعماء السياسيين الـذين جاؤوا بعـدهـم فعه الاستعبار على تحطيمهم: محمد فريد ـ وعبدالعزيز جاويش في مصر وعبدالعزب الثعالمي في تونس وعشرات غيرهم.

كانت سيطرة الماركسيين على الإعلام دافعة إلى الكشف عن عظم الإسلام وجلال الشريعة الإسلامية والعطاء الذي قدمته للإنسانية.

ولقد كانت سنوات الماركسية مظلمة تنوح برياح خبيئة ضالـة، وكا الصراع العـالمي يجتاح مصر والبـلاد العربيـة والأمة الإسـلاميـة كلهـا ب الصهيونية العالمية والشيوعية العالمية وكان لا بد من كشف مصدرهما.

لقد كانت قصة الاستمار غالبة في المرحلة الأولى نتيجة الاحتلا البريطاني فلما انتهت هـذه المرحلة بـدأت مرحلة أشـد خطورة هي مرح الاحتواء وبسط النفوذ التغريبي تحت أسماء مضللة، أخطرها الفكر القوم الذي لم يكن أكثر من واجهة للماركسية والتصور الغربي، كمان الاحتلال الفكري والثقافي بجتاح الأمة الإسلامية ويوجهها إلى التبعية ويحملها على تقبل هذه التبعية.

وكان من أكبر هموم الكاتب المسلم في هذه المرحلة الجديدة هو: النفوذ الصهبيوني الزاحف بقوة ثم جاء النفوذ الماركسي مع الدعوة إلى القومية العربية من خلال مفهوم غربي وافد. فانحصرت الأمة الإسلامية بين الخطرين وامتد هذا الخطر في ضراوة وحشد حتى جاءت نكسة ١٩٦٧ التي سقطت منها القدس في يد الصهبيونية وانهزمت البلاد العربية كلها وتبين أن الأمة الإسلامية والوطن العربي يواجهان خطراً حاشداً.

ولم تعطنا المدرسة الحديثة شيئاً ذا بال وإذا أعطت فليس عندها إلا مناهج مشوهة وافدة، لا يمكن فهم دور الإنسان المسلم أو بناء المجتمع الإسلامي وإنحا يكون بناء الفكر على أساس فهم الغاية، فالفهم الإسلامي للمج مع يدفعنا إلى أن نكون أنفسنا تكويناً خاصاً هو أن ندرس الفلسفات الوافدة ونعرف رأي الإسلام فيها فلا ناخذها قضايا مسلمة ولا نؤمن بالتبعية لها.

وتبين أن عطاء الفكر الغربي الوافد (ماركسياً وغربياً وصهيونياً) قليل ولا يعطي للمسلم أشواق روحه.

ولقد أعطت الدعوة الإسلامية في ذلك شيئاً كثيراً، فقد حولتنا من المدرسة التوفيقية (ذات طابع الكلام والمنطق والاعتزال) إلى المدرسة القرآنية بعدما كانت فكرة المعتزلة الجدد غالبة على جمال الدين ومحمد عبده.

وقد جاءت الدعوة الإسلامية في إبانًها على أثر سقوط الحلافة كمؤسسة عالمية تدعو إلى الإسلام بمفهومه الأصيل الذي عرفه المسلمون الأول قبل ظهور الحلاف: بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع.

وكان العمل على كشف زيف الحملات على المهاليك والدولة العثمانية في مقدمة الأعهال، فقد كان الغرب حريصاً على إثارة الشبهمات حول المذين نصروا الإسلام وأزالوا آثار الحروب الصليبية وحطموا القوى الغازية.

ولقد كثف التغريبيون حملاتهم في محاولة لتذويب الأساس وذلك بالحملة

على الماضي والقديم ورميه بالتخلف والجمود، وكان الهدف هو الدين والتاري والتراث.

وقدموا لمصطلح التقدم مفهوماً زائفاً فأصبحت كلمة تقدم تعني كـاتباً م كاتبين: إما بعثي وإما ماركسي أو هما معاً.

وكان لا بد من تصحيح معالم كثيرة فلا يوجد في الإسلام إزدواجية ثنائية للقيم بحيث تتصارع، ولكن هناك تكامل والتقاء.

فلا يقر الإسلام صراع الأجيال ولا صراع الطبقات ولكن يؤمن بتلاقم الأجيال حيث يقيم الإسلام من القيم علاقة التلاقي والتوازن والتكامل.

وكان لا بد من إعادة الصياغة للفكر الإسلامي مستوعباً الرد على ا وجه من أسئلة وما أثير من شبهات وصهر ذلك كله في بوتقة دراسة جامه تكون بمثابة تصور جديد لتكون في أيدي الباحثين قـرة قادرة على دحف حملات الشك وبناء الثلقة في النفس المسلمة مجدداً لتكون محصنة ض الانصهار في الفكر الوافد قابلة للتحرك إلى الغايات العليا في بناء أمة الإسلا من جديد وقد صدق أرنست رينان حين قال: إنه لا نجاح للمسلمين اليو إلا باتباع السبيل التي سلكها محمد ﷺ.

ونحن قبل أن يقول أرنست رينان ذلك كنا على ثقة من العودة إلى السلوب الذي تبناه الرسول الحاتم وقد اصطنع ذلك الإمام حسن البنا تماماً وكانت نكسة ١٩٦٧ هي التي كشفت حقيقة الأمر كله فيها يتعلز بالتبعية للحضارة الغربية والفكر الغربي ليبرالياً وماركسياً، فقد خدعتنا القم الشوامخ طوال أكثر من خمسين عاماً بأن طريق النهضة والتقدم هو تقبا المضارة الغربية ومنهج الغرب في الفكر والحياة، فهو الذي سيحرر العرب

الشوامخ طوال أكثر من خمين عاماً بأن طريق النهضة والتقدم هو تقبا الحضارة الغربية ومنهج الغرب في الفكر والحياة، فهو الذي سيحرر العرب والمسلمين من الاستعمار والنفوذ الاجنبي وجري الناس وراء ما أعلنه هذ الجيل ممن أسموهم الرواد والعمالقة حتى جاءت نكسة ١٩٦٧ لتثبت فسا هذه النظرية فقد هزم العرب وضاعت القدس ولم يعد أمام العرب والمسلمج إلا التسليم بالسيطرة الكاملة لليهودية العالمية.

هناك بزغت (الصحوة) لتكشف للمسلمين فساد هذه الوجهة التي سا

فيها العرب والمسلمون منذ احتلال فلسطين، وتدعوهم إلى تصحيح المسار والانطلاق من المنابع ومن ثم ظهرت فكرة أسلمة العلوم والمناهج ثم التأصيل الإسلامي وإعداد البدائل للخروج من التبعية.

وقد عقد مؤتمر في الجزائر أولى اهتهامه لهذا الهدف ومن هنا كان لا بد من النظر في كتابات هذا الجيل الرائد (طه حسين ومن حوله) لمراجعة أعهالهم والنظر إليها في ضوء الإسلام حتى لا يخدع المسلمون في فكر ظاهره إسلامي ومضمونه تغربيي.

وقد جاءت مرحلة أسلمة المناهج والعلوم مع مطالع القرن الخامس عشر الهجري فظهرت (أسلمة العلوم) و(أسلمة الاجتماع) و(أسلمة الاقتصاد) و(أسلمة العلوم الإنسانية).

وتزودت كلمات خصوصية الثقافة وذاتية الفكر الإسلامي لارتبـاطهما بالعقيدة والتاريخ واللغة مع إنكار وتدمير مفهوم (عللية الثقافة) المضلل.

وجاءت الدعوة إلى تقديم المواد التي تنقص ثقافة الشباب المسلم في المدرسة المصرية والعربية والجامعات وتأكيد مفهوم الإسلام في كل القضمايا المثارة سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية.

وتقديم وجهة النظر الإسلامية المختلفة والمتميزة عن النظرتين: العلمانية والماركسية وعن كلا المذهبين الليبرالي والاشتراكي وتصحح أخطاء النظريات الوافدة المطروحة في أفق الفكر الإسلامي كنظرية التطور والفرويدية والوجودية ونظريات دوركايم وماركس وسارتر وغيرهم.

وكان لا بد أن تقدم هذه المعاني والفاهيم بأسلوب يبسط النظريات ويجعلها سهلة الفهم وفي خط متميز عن الكتابة غير الإسلامية من ناحية ويأسلوب الدعوة المبسط لاسلوب الفلاسفة المستعلي على الفهم الوسط مع الحرص على السرعة والبسر في العرض دون فقدان الأصالة والموضوعية.

ولقد كان هذا الاتجاه عريضاً وكنت واحداً من العاملين فيه لا أدعي زيادة ولا تطاولاً ولكني مضيت مع الإخوة الذين شقوا الطويق راجياً أن أنال مرضاة الله معترفاً بالسبق للكثيرين.



الفصل الأول

نكسة ١٩٦٧

كانت نكسة ١٩٦٧ هي النتيجة الطبيعية لاصطناع المسلمين لاسلوب الغرب في مقاومة الغرب والنهاس منهج أمة غاصبة للانتصار عليها والظن بأن الديمقراطية الغربية أو الشيوعية الماركسية تضمر أي قدر من الصدق والوفاء لإعطاء الأمة الإسلامية مكانها أو أي قدر من قوة أو عزة.

فقد خدع العرب والمسلمون بأكاذيب الصداقات الدولية وغفلوا عن الأسلوب الحقيقي لمواجهة أعدائهم: هذا الأسلوب الذي رسمه لهم القرآن، والتمسوا أسباب النصر على العدو من عطاء العدو نفسه سواء أكان الاستعهار الغربي أو الاستعهار الشيوعي.

فهم يضمرون الحقد ويهدفون إلى إيقاع المسلمين والعرب في شراكهم، لاحتوائهم وإذلالهم وخداعهم ببريق الالفاظ ولمان الايدلوجيات ليردوهم عن منهجهم الأصيل وليجعلوهم في دائرة احتوائهم وليصهروهم في بوتقتهم الأممية حتى يفقدوا ذاتيتهم التي يتميزون بها ويفقدون منهجهم الذي هو سلاحهم في مواجهة كل غاز أو معتدي.

وقد غفل المسلمون والعرب عن مقايسهم في مواجهة العدو أو النصر أو تقليدة الجيوش أو تطبيق منهج الله تبارك وتعالى وظنوا أنهم يستطيعون لو التمسوا مناهج الغرب أن يصبحوا قوة وأن يتحرروا منه وكان ذلك أكبر (مغمن) في حياتهم وأقوى خنجر صوب إلى صدورهم، ذلك لأن لكل أمة قيمها ومعتقداتها وأساليبها التي تمكنها من النصر واستعادة الحتى وأن مناهج أي أمة لا ينفع أي أمة أخرى إلا إذا أخذت الأمة بالأساليب والموسائل وطبقتها في إطار أيديولوجيتها الحاصة.

لقد جاءت نكسة ١٩٦٧ نتيجة تسلم الشيوعيين أدوات الإعلام والصحافة والمسرح وحيث غشيت آفاق الفكر والثقافة سيطرة الماركسية وتقلص الاتجاه الإسلامي الذي كان أهله قد حوصروا وحجبوا.

فكانت نتيجة لهذا الانحياز الخطير استشراء المفاهيم الماركسية والقيم الإلحادية التي أصابت مصر بأخطار لا حد لها وكان أخطر ما فيها سقوط القدس في أيدي الصهيونية.

ولكن المحن لم تلبث أن انكشفت قليلاً وبدا الإسلام يستعيد قوته حتى جاءت مظاهر الإسلام في إيران وأفغانستان وباكستان بما تمثل ظاهرة جديدة هزت الغرب هزاً حين كان يعتقد أن الإسلام لم يعد له وجود.

وكان مطلع القرن الخامس عشر علامة بارزة على الصحوة الإسلامية ثم جاء سقوط الشيوعية في بىلادها ومسقط رأسها علامة خطيرة على انهيار الفلسفة المادية في قمة مرحلتها الشيوعية الخطيرة التي شكلتها الصهيونية من خلال الماسونية وبروتوكولات صهيون كمقدمة لإقامة حكومة العجل الذهبي الربوية العالمية.

نعم سقطت الماركسية ولكن لم تسقط المادية بعد.

إن هناك اليوم بعد سقوط الشيوعية صراع الثقافات العالمية والفلسفة المادية وغلبة مفاهيم التلمودية التي رسمتها في العصر الحديث الماسونية وبروتوكولات صهيون.

وما يزال التنظير المادي القائم على وضع المجتمع في مواجهة الغزو، ما زال يحكم كثيراًمن القضايا.

وليس معنى قبول الشيوعيين بالاقتصاد الحر أن يغيروا نظرتهم إلى التفسير المادي للتاريخ فهناك الاستعلاء الفرنسي بالفرنكوفونية والعمل على نشرها في البلاد العربية وإستقطاب قادة بعض البلاد.

وهناك الخطر الأكبر في الاستعلاء بالجنس والدم والعرق وحرية الكشف

أما في محيطنـا الإسلامي فهنـاك إحياء الفـرق القديمـة والتشكيك في

ومؤامرة الدعوة الإبراهيمية.

والإباحة والدعوة إلى وحدة الأديان وإلغاء المسئولية الفرديـة ومؤامرة الحـوار

الشريعة الإسلامية وتطبيقاتها وتحريف القرآن والسنة والسيرة والتاريخ.



الصيحة التي أعلمتها حركة اليقظة كانت علامة على أن المنهج الذي خطه التغريب قد وصل إلى طريق مسدود وأنه تجاوز الأصالة ودخل في مرحلة التغريب وأنه قد بدأ بجاصره القلق.

حتى الدعاة إلى العصرية انكشفت أمامهم علامات التآمر الغربي ممثلة في إطلاقه لحركة التبشير وخروجه على ما أطلق على نفسه من مسميات الحرية والإخاء والمساواة واندفاعه نحو نهب مقدرات الأمم، والاستعلاء باللون الأبيض على الاجناس الملونة.

هذا من وجهة نظر الدعاة إلى العصرية الذين تراجعوا بعد أن علت صيحة اليقظة بالدعوة إلى العودة إلى منهج الإسلام كمنطلق حقيقي للخروج من الازمة.

وقد تبين أن المحاولة التي رسمهما الغرب ولقنها لأوليائـه من أنه لا يستطيع العرب والمسلمون مقاومة الاستعهار إلا بالتسلح بأسلحته.

تين أن هذه الدعوة خدعة كبيرة كنا في مطالع الشباب تتفتح عقولنا وقلوبنا على إحساس مظلم بالتغرب، وعلى كتابات توحي بالسخرية بالإسلام وتاريخه ورسوله ولغته وإعلاء العبقرية الغربية، وكان التصور المطروح للإسلام أنه دين عبادة ومسجد وصلاة.

وقد تكشفت أمام أعيننا أبعاد المؤامرة بعد أن تىرجم كتاب وجهة الإسلام، وعرفنا أننا نحاصر حصاراً شديداً لصهرنا في بوتقة التغريب. ولكن كان الأمر الذي يزعج نفوسنا: هو ما الطريق الصحيح وأين الضوء الكاشف إليه.

وكانت الإجابة موجودة وقائمة وهي سائرة في طريقها وعلينا أن نبحث عنها، كانت الدعوة الإسلامية قد استعلنت بعد سقوط الخلافة الإسلامية مباشرة وكانت تسعى خطوة بعد خطوة لتكشف لنا الضوء إلى مفهوم الإسلام الأصيل.

كان أمامنا صراع الأحزاب السياسية وفشلها في القيام بأي دور حاسم في مواجهة الاستعيار فقد استطاع الاستعيار أن يلهو بها ويدفعها إلى الصراع الداخلي حتى يشغلها عن القضية الاساسية.

وقد جاء عقد الثلاثينات ليكشف أنها عجزت تماماً ومن ثم بدأت تظهر قوى جديدة كمصر الفتاة والشبان المسلمين وغيرها.

وكانت الإخوان المسلمين هي قمة العمل الجديد: لا بد من العودة إلى المنابع، إلى المفهوم الجامع ديناً ودولة، مصحفاً وسيفاً، عقيدة وشريعة.

وجاءت السنوات المتوالية تدفع بالشباب إلى أحضان الدعوة وكان أبرز ما في العمل للدعوة: تصحيح المفاهيم.

ومنذ بدأت أكتب في صحف الإخوان المسلمين فقد كانت فكرة التغريب هي قضيتي الأولى، وكنت أول من فتح الباب لدراستها في ضوء الإسلام، وفي المجلة الأسبوعية والصحيفة اليومية خلال سنوات ٢٦-٧٧. ٤٨ امتد تأصيل هذه المفاهيم في مجالاتها المختلفة.

فتحدثت عن المدرسة الغربية والمدرسة الإسلامية والفوارق بينهما ثم تحدثت عن المدرسة الإنجليزية والفرنسية.

ثم أنشأت ما أسميته (نحو أدب جديد) يختلف عن الأدب المنصهر في بوققة الحزبية السياسية، وتحدثت عن براعم الشعر الإسلامي الجديدة وكشفت عن زيف السياسة الحزبية وأعدت كتابة هذا التاريخ منذ بدأ حزب الأمة الذي أسسه كرومو وقاد فكره لطفي السيد والدور الذي قام به سعد زغلول في تحطيم مفهوم الوطنية المصرية التي كانت تتحرك داخل دائـرة السياســة الإسلامية العامة وصراع الأحزاب.

وتحدثت عن انهيار الحضارة الغربية وزحف الإسلام فضلًا عن الوقائع الوطنية الكبرى كالاحتلال البريطان ومعارك المقاومة.

كان إيماني بأن الدعوة الإسلامية هي المنطلق الحقيقي لتحرر مصر والبلاد العربية والإسلامية، وكان سقوط الحزبية، والنفوذ الأجنبي في عالمي السياسة والاجتماع حقيقة واقعة.

وأن الإسلام يبني في ضهائر الأمة خلايا جديدة بحيث يمكن القول بأنه هو المؤهل حقيقة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حين دعيت الأمم إلى بناء جديد لها.

ولكن القوى المسيطرة كانت تدبير لإيجاد البديل بعد القضاء على الأصيل وكانت الخطوة التي يعدّ لها الاستمار هي غرس جسم غريب في قلب الأمة الإسلامية وإعطائه (رأس جسر) في أخطر موقع في المنطقة (فلسطين وبيت المقدس).

كانت نخططات الصهيونية العالمية والاستعيار قد أعدت خطة لمـرحلة جديدة من السيطرة بعد أن عرفت بأن مقامها قد انتهى.

ومن ثم فقد كان جلاء القوات العسكرية من البلاد العربية ليس إلا مظهراً لوجود حقيقي قد أعد له في قلب هذه المنطقة عن طريق تكوين جيل جديد يسيطر ويحكم ويقود الأمور حتى النحو الذي يمكن للنفوذ الاجنبي من السيطرة والاستمرار وجاءت حركة يوليو لتتآمر على القوة الحقيقية وعلى الوضح الأصيل ولتخدع الناس عن النضال من أجل مقاومة الصهيونية إلى الارتداد نحو الداخل ونحو القضايا الفرعية.



على مشارف القرن الخامس عشر

ويجيء مطلع القرن الحامس عشر الهجري حافزاً لألف مليون مسلم للوقوف لحظة لمراجعة حساباتهم والنظر إلى الطريق الذي يسيرون فيه نظرتين: نظرة إلى الماضي لتقدير ما قطعوه في سبيل الغاية التي يتطلعون إليها ونظرة إلى المستقبل لمعرفة ما هم بسبيل إلى الوصول إليه.

ولقد كان عملهم قبل ذلك أن يكونوا قد أقاموا مفهوماً واضحاً شاملًا لمهمتهم يتمثل في وحدة فكر أساسية تركز على القيم الأساسية التي لا اختلاف فيها مؤمنين بأن عليهم أن يتعاونوا فيها يتفقون عليه ويعذر بعضهم البعض فيها يختلفون فيه، ما دام الخلاف في الفروع لا يؤثر في الغاية العامة ولا في المقصد الاسمى.

ولعل هذا المقصد الأسمى والناية العامة معروفين ومتفق عليها لدى المسلمين جميعاً وهو تحقيق إرادة وجودهم وإقدامة كيابهم ومجتمعهم، على الأسس التي رسمها لهم دينهم الحق بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع وأن عليهم اليوم بعد أن تحرروا من قيود النفوذ السياسي والعسكري الوافد، أن يكونوا قادرين على التخلص من النفوذ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي وأن يحروا إراداتهم بتطبيق شريعتهم الإسلامية وإقامة مجتمعهم الربائي ليكونوا مؤهلان لتبليغ رسالة الإسلام إلى العالمين وحتى تعليم البشرية أنه لا سبيل أمام علاج أرمتها والتي تعيشها الأن إلا أن تلتمس طريق الله وحده.

لا ربب أن حلول غرة القرن الخامس عشر الهجري هو أكبر الأحداث وأجلها وأعظمها في حياة المفكرين المسلمين المعاصرين وهو حدث من شأنه أن يهز النفس الإنسانية المؤمنة ويملاها بإحساس عميق بالمسئولية الضخمة والتبعة العميقة الملقاة على عواتق هذا الجيل من الدعاة إلى الله بعد تلك الجولة التي خاضها المجاهدون خلال القرن الرابع عشر في مواجهة أحداث ضخام ومواقف جلى عندما تجمعت قوى النفوذ الأجنبي والصهيونية والشيوعية وسبيل الانتقاض على الإسلام للإدالة منه وما زالت هذه المحركة قائمة في مواقف المقاومة، وكشفوا عن خلفياتها وزيغها وسممومها، ودحضوا في مواقف المقاومة، وكشفوا عن خلفياتها وزيغها وسممومها، ودحضوا شيهاتها، وما زالوا على مواقع الخطر وثفرات الحمى مرابطين، قد حملوا في الميهم معبأة يقذفون فيها مواقع العدو في كل يوم لا يترددون ولا يتردم المحلوث على يوم القيامة من أجل كلمة الحق ومن أجل تصحيح المفاهيم وتحرير القيم وأن تكون كلمة الله هي المهابيا.

ولا ربب أن الدعاة إلى الله الذين سبقوا على الطريق في القرن الرابع عشر، والذين واجهوا خطر التغريب والغزو الثقافي والنفرذ الاستعهاري في مطالعه، وفي جولاته الأولى قد أناروا الطريق وتركوا علامات مضيئة أمام الذين تعلموا على أيديهم وحملوا اللواء من بعدهم وساروا به على نفس الاسس، وفق مفهوم السنة الجامعة والتوحيد الخالص، والإيمان الصادق بأن الإسلام دين ودولة ونظام مجتمع، هؤلاء الذين قدموا أرواحهم خالصة في سبيل إعلاء كلمة الله، والذين كانت صيحتهم هي التهاس المتابع والعودة إلى تطبيق شريعة الله ومنهجه في السياسة والمجتمع والتربية والاقتصاد جميعاً، هذه الدعوة الخالصة التي قطعت مرحلة طويلة في سبيل البيان والإقناع والإيمان والي كشفت بالدليل الصحيح والحق الواضح فساد تجربة التبعية التي عاشها عالم الإسلام لمناهج الغرب في الاجتماع والاقتصاد وفي أسلوب العيش والخضارة، هذه التجربة التي امتدت من خلال الإيديولوجيين: الليبرالية والماركسية وكشفت عن فسادها وعجزها عن العطاء الصحيح لمجتمع

المسلمين، وكيف أنها أسلمت الأمة إلى النكبة والهزيمة والنكسة، خلال أكثر مسيعين عاماً من الجري وراء أسلوب الغرب، ثم تبين أن منهج الإسلام الحقى في بناء المجتمع الرباني هو المنطلق الوحيد. هذه هي الحقيقة الكبرى التي تتألق اليوم على أبواب القرن الخامس عشر الهجري من خلال التجارب التي خاضتها هذه الأمة، وخاصة تجربتها مع الماركسية في أندونسيا والأفغان وقصر ومن خلال تجربتها مع الليبرالية في باكستان وإيران وتركيا ومن خلال تجربة الجزائر وتجربة العاشر من رمضان مع أسلوب الجهاد الإسلامي.

. . .

واليوم المسلمون يستشرفون مرحلة جديدة من حياتهم على طريق القوة والنهضة فإن أول الأمور التي تحتاج منهم إلى اهتهام عميق هو أن لا تحولهم المقدرات المادية عن وجودهم الذاتي وكيانهم الخاص وطابعهم الإسلامي وأن يكونوا قادرين على نقل أحدث محدثات العلم والتقدم والحضارة المادية لتكون مواداً خاماً يصيغونها داخل إطار فكرهم ومهمتهم، وبذلك يصنعون الحضارة القادمة، حضارة القرن الخامس عشر الهجري الذي أوشك أن يهل هلاله والذي يتطلع المسلمون إليه كعلامة على عصر جديد تعود الكرة فيه مرة أخرى إلى أيدى العرب والمسلمين. إن أخطر ما واجمه الحضارة الغربية الجديدة وأسلمها في وقت قريب إلى الأزمة الخانقة والصراع بين القوى مع ما امتلكته من أسباب التقدم المادي هو أنها كسرت الإطار الـديني والأخلاقي الذي هو الحجاب الحاجز لكل نهضة من التعثر والتصدع ومضت تواجه الحياة بغيرسناد يحمى ظهرها أو نور يضيء طريقها وبذلك صدعتها المادية الغالية وانجرفت بها الطريق إلى تأكيد أهواء النفس وتغليب الترف والملذات والشهوات فانتهت بها إلى تلك الأزمة الحادة التي يتحدثون عنها ويبحثون لها عن علاج وهي أزمة الإنسان الحديث وصراعه وتمزقه وغربته وضياعه، كل هذا الذي قاساه ويقاسيه من أهوال غيبة المعنويات وتجاهل أشواق الروح وتصدع النفس وتمزق الكيان والإنساني وفقدان الهوية والهدف والعجز عن فهم الرسالة والأمانة والغياية والمصير للإنسان المستخلف في هذه الأرض فليحذر المسلمون اليوم وهم على الطريق إلى امتلاك أدوات الحضارة الحديشة وتراثهما التكنولوجي والعلمي والمكانيكي أن تستوعبهم هذه الحضارة، أو يحتويهم هذا الفهم المسدمر القاصر، وعليهم أن يبدأوا من نقطة التوحيد في الفكر ومن اللغة العربية فينقلوا إليها كل معطيات العلم ومن الإيمان بوحدة البشرية والإخاء الإنساني والعدل والرحمة وليجعلوا من هذا كله إطاراً يتحركون فيه ويخضعون العلم للأخلاق والتقوى ويجعلون مقدرات البشرية للناس جمعاً وليست لفئة مستغلة أو مسيطرة على أقدار العباد وبذلك يحققوا إدادة الله في بناء المجتمع الإنساني الحق الذي تتطلع إليه الدنيا جمعاً بعد أن عاشت في الظلم والاستعباد عصراً طويلاً شفيت به وليطلع المسلمون الناس على أنهم يمتلكون منهاجاً قادراً على إسعاد البشرية حقاً وردها إلى طريق الحق والعدل وتحريرها من الجوع والخوف وتأمين النفس الإنسانية من القلق والتمرد.



الفصل الرابع

وقفة على رأس مرحلة من العمر

على امتداد العمر، على المسلم أن يقف على رؤوس المراحل ليجدد مفهومه للرسالة التي اختاره الله تبارك وتعالى لها، وليعمق إيمانه بالدور الذي يجب أن يقوم به وليصحح مساره على طريق الله ولينمي انتياءه الرباني فيرقي نفسه من مرحلة العوام إلى مرحلة الخواص أو من مرحلة الإسلام إلى مرحلة الإيمان، أو من مرحلة النفس الأمارة إلى مرحلة النفس اللوامة، ليحقق أملاً واحداً هو غاية كل الأمال: ذلك هو إقامة نفسه في موقع المسئولية في الحياة الدنيا عاملاً على بناء المجتمع الرباني، مجوراً نفسه من زيوف الحياة، وفضول القول، وشواغل الأهواء فيكون: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَكُهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ ال

ولا يكون: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهُوَ الْحَكِيثِ لِيُُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِعَلْرِ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾.

ولينظر إلى الطريق أمامه ليراه يقرب من الغاية لحظة بعد لحظة، وكان الله الماكب العمر ذلك الراكب المعارض المطهم المندفع إلى تلك الهاية، وكان هو ذلك الراكب الذي استظل بظل شجرة ثم مضى وتركها، إن هذا الإحساس بان العمر ينصرم يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، من شأنه أن يعطي الرجل المؤمن ذلك الإحساس بالخوف والقلق، من أن يذهب العمر دون أن يكون قد حصل على قدر من الذخيرة التي تعينه على اجتياز اخطار ذلك اليوم المشهود، وذلك اللقاء الخطير بين الإنسان وربه على ملا من الخلائق لبرى حسابه

وعمله وجزاءه، وليرى كيف سيكون قادراً على أن يتلقى كتابه بيمينه، وأن يمر على الصراط، وأن يجتاز تلك المفازة التي تتخطف العصاة، وتلفح وجوههم النار.

تلك هي الخواطر التي تمر بالنفس المسلمة وقد انتهت الحلقة السادسة تنظر فترى كم كانت مسرفة في الأهواء والمطامع، وكم كانت حصيلتها من الحير قليلة ومن زاد الراكب ضعيفة ولعل هذا يدفعها إلى أن تعمل بقوة لتزيد حصيلتها من العمل النافع الذي يثقل ميزانها، والعمل الحالص لله لا يبتغي به ظهوراً ولا شهرة ولا مجداً زائلاً من أمجاد الدنيا التي تذهب كالهباء.

إنه حين نقل مطامع المادة: طعاماً ورغبة وهوى تزيد ملامح الضياء في القلب وينور العقل وتشرق النفس بالفهم الواعي والإلمام الرباني وتنفسح المجالات للرؤيا الصحيحة والقدرة على استيعاب الأمور وإيجاد الحلول الناجحة، وكلما خفت مؤنة الجسم بدت النفس وقد تحللت من قيودها وأصفادها، وتجلت وقد خف وزنها وارتفعت، فقد تخلصت من أخلاط المادة وأهواء النفس ومطامم الحياة.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ بَنَاۚ الَّذِى ٓ ءَاتَيْنَكُ ءَايْنِينَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَاوِينَ ۞ وَلَوْشِتْنَا لَوْفَعْنَهُ بِهَا وَلَنكِنَهُۥٓأَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّنِهَ هَوَيْهُ ﴾.

كلما خفت مؤنة المادة والهوى والمطامع، ارتفعت النفس إلى بجالات الرحمة وصدق إلهامها وسددت وجهتها وجاءها الرأي الناضج ونطقت بالحكمة وقطعت أشواطأ واسعة إلى منطلق الذين رضي الله عنهم وذلـك هـو «الاستعلاء» والترقى إلى مراتب الصالحين.

ولا ريب أن أعظم ما يدعو إليه الإسلام المؤمن: التأمل والتفكير والنظر في الكون وإذا كان جمال الطبيعة يلهم العالم والشاعر والكاتب وأن يكون كبار المفكرين من عشاق الطبيعة فإن من أشد ألوان العقوق أن لا يرتبط ذلك في نفوسهم بقدرة الصانع وعظمة الخالق الذي أعطى كل شيء

خلقه ثم هدى ونعجب لماذا لا تلفت روعة الطبيعة نظر المعجب بها إلى قدرة الخالق منشىء الطبيعة وصانعها وهل يستطيع فنان أن يدعى أنه عرف توزيع الألوان إلا من تلك النهاذج التي خلقها الحق تبارك وتعالى في ألوان الـزهّر وعطوره المتعددة، وأحجامه، وذلك التوزيع الرائع للأصفر والأحمر والأخضر والأزرق في مراحله الخفيفة والفـاقعة والمتـوسطة، تلك الحلقـات المستديـرة والمستطيلة والأهليجية من تركيبات أوراق الـزهر والشجـر التي تعجز قـدرة الإنسان عن الإتيان بمثلها ولقد كان توزيع الألوان في الطبيعة من آيات الله المعجزة فالشمس زرقاء والغيوم بيضاء والزروع خضراء والأرض سوداء. ومن العجب أن يكتب الكتاب عن جمال الطبيعة دون أن يرد ذكر الصانع الذي إليه يرد كل ما في الطبيعة من جمال وصناعة وإتقان ولم تكن الطبيعة في الحقيقة إلا منطلقاً للإيمان بخالق الطبيعة وإلا ملتمسأ للتأمل في عظمة الصانع وفي قدرته على خلق هذه الأكوان الضخمة الواسعة المتجددة، وذلك النظام الدقيق في شروق الشمس وغروبها وفي مواعيد الثهار والزروع الدقيق التي لا تتخلف، وفي فصول الصيف والشتاء وما كان هذا كله إلا موضع التأمل والتفكير لكل ذي لب، ليكون عاملًا من عوامل هداية الخلق إلى الخالق، وإخبات البشر لصانع الكون والإنسان ولمن أعطاه كل هذه النعم، إن هدى الله هو الهدى وإن نفساً تعجب بالطبيعة وتكتب عنها شعراً أو نثراً دون أن تتحرك فيها جـارحة إلى الـوصـول إلى الله تبـارك وتعـالي والاهتـداء بــه لهي من أعجب العجب، فكيف تبهر الطبيعة شاعراً أو كاتباً دون أن تدفعه إلى تقديس ذات الله العلي الأعلى صانع الطبيعة ومعطى الإنسان العقل والشعور والوجدان لاستيعاب هذا كله ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَتِ لِأَوْلِي ٱلْأَلْبَنِ ١ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَذَكُّرُونَ ٱللَّهَ قِيدَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَلْذَا بَطِلًا سُبْحَننك فَقِناعَذَابَأُلنَّار ﴾.

ولا ريب أن ارتبـاط المسلم بالله تبــارك وتعالى بمنحــه الكثـير ويحــول بينــه وبين كثير من القلق والتمزق. ويصرف عنه أزمات الحياة العابرة ويخلصه من الإحساس بالغربة أو التشاؤم الذي يعتري النفس الإنسانية نتيجة عملية البت الخطيرة التي تطلقها أهواء النفس وهزات الشياطين، تلك التي دعانا ربنا إلى الاستعاذة به منها على أن يكون هذا الارتباط أبعاده واضحة، منذ انطلاقه إلى عودته، يجب أن يكون معروفاً أن العطاء كله هو من الله وأن الذكاء والقدرة البشرية ليست هي مصدر العطاء، وأن أكبر الخطأ أن يقول قائل: إنما أوتيته على علم فإن توفيق الله هو الذي يحقق النجاح والكسب وأن إلهام الله تبارك وتعالى هو الذي يمكن من إحراز النتائج، وإن اخطر الخطر أن يظن أحد أنه هو الذي استطاع بقدرته المحدودة أن يصل إلى القصد:

ولــو لم يكن عــون من الله للفتى فــإن أكبر مـا يقضي عليه اجتهـاده

إن من أخطر المخاطر أن يتكل الإنسان على نفسه وقوته ولذلك كان دعاء الرسول ﷺ: واللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك، وكان من توجيهاته أن يتجه في كل أمره إلى حول الله وقوته والاستعانة به وأن يدعو الله أن يحفظه فيها غاب عنه من أمر ولا يكله إلى نفسه فيها حضر من ذلك الأمر.

فإذا كانت الوجهة إلى الله خالصة في الأمر، وكان الطريق إلى الله في الأمر مبرءاً من أهواء النفس خالصاً مجرداً من الحول والقوة كانت النتائج طيبة.

كذلك فإن المسلم مطالب بأن يذكر الله في وجه المفاجأة، وفي وجه المفاجأة، وفي وجه الشادة فيعنصم به ويحتسب إليه: ﴿ اللَّذِينَ قَالَ لَهُمُّ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَلَّمُ فَأَخْسُوهُمْ فَرَادَهُمُ إِلَيْنَا وَقَالُواْ حَسَّبُنَا اللّهُ وَيِعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَانْقَلَبُواْ يَنِعْمَةً فِينَا لَقَوْفَهُمْ فَيَا وَكُلُوا اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَيَعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَانْقَلَبُواْ يَنِعْمَةً فِينَا لَقَوْفَهُمْ فَي اللّهُ اللّهُ وَيَعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُواْ يَنْعَلَمُواْ اللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ

كذلك فإن المسلم مطالب أن يذكر الله في كل ما يراه معجباً به أو مستخرباً له، فإن الله تبارك وتعالى من وراء النسمة العليلة الباردة، ومن وراء الزهرة الحلوة البانعة، ومن وراء شمس الشتاء المشرقة، وعبير العطر في ليالي الصيف. ومن حقه أن يذكر فيشكر، كذلك فإن الله تبارك وتعالى من وراء زمهرير الشتاء وأمطاره ورعده وبرقه وقد علمنا الرسول ﷺ أن نستقبل كل هذه الظواهر الطبيعية بالدعاء، واللهم لا تقتلنا بغضبك»، كما علمنا أن نذكر الله في مطلع الصباح وفي مغرب الشمس وعشياً وحين تظهرون فهو الذي يقلب الليل والنهار، وهو فالق الأصباح، صاحب المساء والصباح فللصباح دعاء وللمساء دعاء.

﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصِّبِحُونَ ﴾.

والمسلم القارى، يجب أن يقرأ باسم الله: ﴿ أَفَرَأُ إِلْسِرَدَيِكَ ﴾ والمسلم الكاتب يجب أن يكتب باسم الله ولحساب الله:﴿ نَّ وَأَلْقَالَمِ وَمَايَسُطُرُونَ ﴾.

فإذا بدأ المسلم أمره من الله وانتهى بأمره إلى الله، شعر بتلك السكينة العجيبة، والرحمة الكبرى، فإذا فاجأته الأحداث لا يذعر ولا نجناف مسلمًا وجهه لله، ربنا اربط على قلوبنا، ﴿ فَأَنزِلَ ٱلْسِكِينَةَ عَلَيْهِمٌ ﴾، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين.

ولقد تفضل الحق تبارك وتعالى علينا بمفتاح الأمر كله: يقول العلي الكبير: ﴿ مَاَأَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِى ٱلأَرْضِ وَلَا فِيَ اَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَنْبِ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا أَإِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ ۖ إِنَّ لِكَيْنَلَا تَأْسُواْ عَلَىٰ مَا قَاتَكُمْ وَلَانَفْ رَحُولًا مِثَانًا تَنْكُمْ مِنْهِ .

فنحن نعلم سلفاً أن الأمر سيقضى بالعطاء أو الانتزاع، ما لنا في ذلك من إرادة فلنكن مسلمين قلوينا ووجوهنا لأمر الله وقدره وقضائه، فهـو منه العطاء وهو صاحب المنع، وكل ما يعطينا أمانة عندنا يستردها متى شـاء، وعلينا أن نشكره تبارك وتعالى على منحها ونحمده على منعها وأمر المؤمن كله خير إن أصابته سراء شكر وأن أصابته ضراء صبر.

هذه المعاني لو أنها ثبتت في قلب المؤمن وعاش يجددها ويتذكرها يوماً بعد يوم لم يصبه حزن ولا هم ولا غم ولم يدخل مرحلة الغربة والقلق والتعزق والأزمة النفسية التي يو بها إنسان الغرب وعالم الغرب كله، نتيجة نقص الإحساس بإرادة الله العليا التي تصرف الأمور والتي تحرك إرادة الإنسان من داخلها في نطاق محدود، ولقد كنان دين الله الحق في كلمة واحدة هو إسلام الوجه لله والعمل في الحياة إيماناً برسالة الإنسان واستخلافه في الأرض وهي رسالة بناء وتعمير قوامها الإيمان بالله والرحمة والإخاء البشري. وفي إطار أخلاقي كريم، فعمل المسلم هو من أجل إقامة المجتمع الرباني مسئوليته في الحياة وجزاءه في الأخرة.

فلنعمل لتكون كلمة الله هي العليا فلتقرأ باسم ربك وتكتب باسمه جل في علاه وأن يكون عملنا في الحياة كله خالصاً لوجهه لا لمطمع ولا هوى ولا شهرة ولا غاية دون رضاه.



الفصل الخامس

دقات الطبول

في مشرق عام ١٣٩٣ الهجري الجديد

إن ظاهرة عام ١٣٩٧ ونحن على أبواب عام ١٣٩٣ هي «دقات الطبول». إن اليقظة قد أخذت تتمثل في حركة عمل يفرض نفسه على غتلف أجزاء العالم الإسلامي وتقوم الأمة العربية بدور واضح فيه. إن الانفعال بالنكسة، وآثار النكبة وأبعادها ما تزال تضيء وتشتعل في أعهاق المسلمين لا تتوقف عن الوهج والضوء معاً، لتضع المسلمين أمام مسئوليتهم الحقيقية. إن التحدي الخطير الذي يحر به المسلمون والعرب قد أصبح مصدراً ضخاً من مصادر العمل في سبيل التجمع والالتقاء على طريق الأصالة والفهم العميق والاستمداد الصادق من المنابع الثرة التي اسمتد منها المسلمون دوماً كلما عركتهم الأزمات وألمت بهم الملهات.

ولقد تعالت الصيحات بعد نكسة 197٧ تحاول أن تدخل المسلمين والعرب في متاهات باسم الدعوة إلى أسلوب بديل لإسلوبهم، أو منهج واقد براق يراد به أن يعزهم عن أصولهم وقيمهم، ليدفعهم مرحلة أخرى في طريق التيه الذي حاول الاستعار والنفوذ الغربي أن يضرضه عليهم منذ مطالع يقظتهم، غير أن الحقيقة كانت قد اتضحت وبريق الحلول الخارجة عن أعماق النفس الإسلامية العربية وجوهرها ومزاجها قد خفتت، بعد أن تكشف الزيف ولم يجد المسلمون والعرب أمامهم إلا مصدراً واحداً، هو مفاهيمهم الأصيلة وقوتهم الذاتية وشخصيتهم الخالصة، وإرادتهم الحرة، فإذا تم بناء هذا الجدار فإنه سيكون السناد الحقيقي والمنطلق الصادق نحو استرداد الحق

وتثبيت دعائم الوجود، وتأكيد رسالة الأمة: الأمة الوسط التي هي خـير أمة أخرجت للناس.

ودقات الطبول في كل مكان تستطيع أن تعطي الضوء الكاشف على الطريق الصحيح الذي التمسناه ونحن على مطالعه نتقدم بخطي ثابتة.

التمس ذلك في مؤسسات ثلاث تعمل وتواصل العمل في إيمان وصدق: رابطة العالم الإسلامي في مكة حيث تعقد دورتها الرابعة عشرة ومجمع البحوث الإسلامية في القاهرة حيث يعقمه مؤتمره السادس والملتقى الإسلامي في الجزائر حيث يعقد دورته السادسة عشرات العلياء والباحثين والدعاة يبحثون ويدرسون ويقرون كل قضايا الإسلام والمسلمين ويستعرضون أحداث الفيلبين وبورما وقضية فلسطين والصومال، وسيلان والجامعات الإسلامية ودورها والمراكز الإسلامية الجديدة، ومواجهة الصهيونية العالمية وحملاتها ثم هناك دراسات الاقتصاد الإسلامي، والمجتمع الإسلامي وقضايا الشباب وتوسيع نطاق الدعوة الإسلامية وإنشاء مراكز تحفيظ القرآن الكريم ووكالة الأنباء الإسلامية ودعم وسائل الإعلام الإسلامية، والعناية بمناهج التربية الدينية وتنقية وسائل الإعلام صحفأ وإذاعة وسينها ومسرحاً من الأخطار وهناك دراسات ملتقي الجزائر التي تسهم إسهاماً ضخياً في قضايا العصر من وجهة نظر الإسلام حيث تقرر هذا العام إعادة كتابة تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية من جديد وإنشاء أكاديمية للتاريخ الإسلامي وكذلك الـدعوة إلى العقيدة الإسلامية وإدخالها في صلب المناهج الدراسية في جميع مراحل التعليم ونشر اللغة العربية الفحصي بين أبناء المسلمين في العالم الإسلامي والتوصية بتربية الشبيبة الإسلامية تربية إسلامية قائمة على العقيدة الصحيحة والسلوك القويم .

(Y)

ومن الناحية الأخرى نجد «النظرية الثالثة» التي يحمل لواءها العقيد القذافي وهي نزحف لتحل مكانها بين دراسات الفكر الإسلامي ونجد اللكتور محمد رؤوف مصطفى أستاذ الدراسات الإسلامية في معهد البحوث العلمية في أمريكا بعد دراسة واسعة عن النظرية الثالثة النابعة من الإسلام والتي تتميز بطابعها الخالص بعيداً عن الشيوعية والرأسيالية.

وقد اعتمد الباحث على الكتابات النصوص التي قدمها العقيد القذافي في محاضراته وخطبه والتي تجمعها وحدة فكر وتستمد من مصدر أصيل هو القرآن الكريم وتتمثل في أصول عامة يقول:

ا — إن الدين يحرك التاريخ والاقتصاد يأتي في المرتبة الشائية. نحن نرفض المنطق الذي يقول إن هناك اشتراكية واحدة فقط في العالم (كذا) أما التطبيقات فهي التي تختلف من بلد إلى بلد. نحن نعتبر أنفسنا جزءاً من ممسكر اشتراكي وليس معسكراً شيوعياً أو رأسهالياً، لقد اكتشفنا أن كلا المسكرين تقوده دولة كبرى ونحن نرفض أن تقودنا دولة كبرى سواء في الشرب.

إن الإسلام هو المنبع الوحيد للقيم والحضارات الإنسانية باعتباره رسالة سهاوية تحل تناقضات الشعوب.

وإن الدين هو أخطر القضايا جميعاً، رغم أن العالم يبدو كأنه يتجاهل هذه الحقيقة الخطرة. إن الدين في تصورنا هو الذي يفسر الكون والحياة. من أجل هذا فإننا نعتبر الدين الإسلامي وثورة دائمة، و ورسالة خالدة،: دعوة موجهة للإنسانية كافة، كها أننا نعتبر أنه المحرك السياسي للتاريخ وليس الصراع الاقتصادي كها يقول ماركس.

ونحن لا ننكر دور العالم الاقتصادي في تحريك التاريخ ولكن ترتيبه من حيث الأهمية يأتي في المرتبة الثالثة أو الرابعة أو الحامسة وقد لا يظهر دوره بتاتاً.

إن الحضارة التي تجاهلت الدين لم تستطع إشباع كل متطلبات الإنسان في الغرب يثور الإنسان في الغرب يثور للإنسان في الغرب يثور ليحظم هذه الحضارة، نحن نؤمن أن ديننا الإسلامي ينظم الحياة من جميع جوانبها السياسية والاقتصادية، والاجتماعية حتى مسائل الحرب والسلام فإنه ينظمها.

نحن نريد أن نكون جيلنا الجديد على أساس من إطلاق طاقاته المرتكزة على عفيدته ولا بد لكل مجتمع من عقيدة ينطلق منها. إن ديننا قابل هذه المشكلات واشترط العقيدة أساساً في البناء الحضارى.

. . .

تلك موجز الأسس التي تقوم عليها النظرية الثالثة كها عرضها العقيد القذافي، ومنها ينطلق الباحثون إلى تنظير الفكر الإسلامي الجديد.

يقول الدكتور محمد رؤوف مصطفى: أنا بادي ذي بدء أرى في الواقع أنه لا يصح مقارنة اشتراكية الإسلام بأية اشتراكية على اختلاف أنواعها، فالاشتراكية العلمية والشيوعية هما من وضع الإنسان الذي قد يتأثير بما في الإنسان من خصائص من حيث انبصائها أصلاً من مركز الحقد والشار للأوضاع التي كانت سائدة ولا بالرأسيالية من حيث انطلاقها من مركز الأنانية الموضاع التي كانت سائدة ولا بالرأسيالية من حيث انطلاقها من مركز الأنانية من عند الله سبحانه وتعالى وإن العقيدة الفكرية للاشتراكية الإسلامية هي الإسلام وعلى ذلك فإنها مؤسسة على الإيمان بالله بالدرجة الأولى والقيم الرحية الأخلاقية غير الموجودة في الاشتراكية العلمية. وإن نظامها الاقتصادي هو الإسلام بما فيه من تساوي الناس في الفرص والعدالة الاجتماعية وعدالة توزيع الثروة الفاحش ولا الفقر الملبقة سيا بين الناس ومنع تكدس الأموال ضريبة الزكاة لتسوية الفوارق الطبقية سيا بين الناس ومنع تكدس الأموال المستغلة للمجتمع وذلك تحقيقاً لمصلحة المجتمع عامة.

(٣)

ومن دقات الطبول: تطبيق الشريعة الإسلامية فقد حوت دساتير مصر وليبيا وسوريا النص على أن التشريع الإسلامي أساس القوانين الدستورية وفي ظل هذا القرار التاريخي أصدرت الجمهورية الليبية قانوناً يحرم القرض بالربا في المعاملات التجارية بين الأفراد تطبيقاً للشريعة الإسلامية، كما أصدرت مرسوماً بمعاقبة السارق بقطع يده ومعاقبة من يرتكب سرقة بالإكراء بالموت.

وقد جدد هذا الاتجاه تياراً إسلامياً أساسياً كان قد انظمر مجراه منذ

دخول الاستمرار الغربي إلى العالم الإسلامي وسيطرته بالقانون الوضعي على أنظمة التشريع والقضاء والتجارة والبنوك والمعاملات. وقد ساعد على ذلك سلطان الاحتلال بالإضافة إلى نظام الامتيازات الأجنية ومن ثم تقلص نفوذ المحاكم الشرعية صاحبة الولاية العامة واقتصر اختصاصها على نظر أقضية الاحوال الشخصية ثم جاءت هذه الخطوة بعد خطوات متعددة بدأت بأن نصت دساتير الاقطار العربية على أن الإسلام دين اللولة وأن العربية لمغتها الرسمية ثم تحققت خطوة أخرى بإضافة الشريعة الإسلامية إلى القوانين الوضعية كهاه في حالة عدم وجود نص، ثم تقدمت الأمة العربية إلى الإسلامية ودراسات الشريعة الإسلامية وقرارات المؤتمرات المدولية العالمية باعتبار الشريعة الإسلامية شريعة كاملة مستقلة معطاة للبشرية جميعها، ثم كانت هذه الخطوة الحاسمة.

(1)

في مجال الاقتصاد الإسلامي دقت الطبول طويـلاً في أبحاث متعـدة قدمها الدكتور أحمد شلبي، والدكتور إبراهيم الطحاوي والدكتور محمد شوقي الفنجري وكلها تسهدف تطبيق مفهوم الإسلام وابتداع نظام مصرفي بحل محل الربا الذي يجرمه الإسلام تحريماً قاطعاً.

وقد أعلن مجمع البحوث: «أن الاقتصاد الإسلامي: نظام متميز عن غيره من المذاهب الاقتصادية يقوم على أصول ثابتة أوردتها نصوص كلية في القرآن الكريم والسنة النبوية تكفل الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتهاعية وتستوجب السعي في الحياة بالعمل الفكري والبدني وتحمي الكسب الحلال ولا تحد من حرية السعي أو الكسب أو الابتكار إلا بالالتزام بأوامر الشريعة، وما تقتضيه من حماية مصالح الجماعة مع ملاحظة بأن لكل قطر أن يطبق من التنظيات والتطبيقات الاقتصادية المنبئةة عن هذه الأصول الثابتة ما يوافق حاجه وظروفه.

ومن دقات الطبول اهتهام ملتقى الجزائر لموضوع غاية في الأهمية هو: «دور الإسلام الفعال أمام تحديات العصر».

وقد جاءت عصارة الدراسة في هذا الموضوع على النحو التالي:

وإن الإسلام صالح لكل زمان ومكان وإن القرآن مبراً من كل ما طراً على غيره من تحريف أو تبديل، وإنه لا يزال جديداً في مقاصده ومعانيه، معجزاً في تعبيره ومبانيه، وكلما تقدم العلم ازدادت آياته ثبوتاً ووضوحاً، وقدمت للإنسانية نوراً على نور. وإن الإسلام هو الدين الكامل لأنه منزل من عند الله وإن المسلمين بشر يخطئون ويصيبون، وهم يخطئون حين يأخذون الإسلام لفظاً ورساً، ويصيبون حين ينفذون إلى مقاصده ومراميه، ومن ذلك يرون أن واجب المستنيين المؤمنين برسالة الإسلام أن ينبهوا الحائرين إلى أن نفس المنطق الذي هدانا الله إليه وأتم به نعمته علينا، ونعني به التفقه في ديننا والعناية بلسان قرآننا.

وإن بلاد الإسلام اليوم تواجه غزواً فكرياً ضارياً وتتمرض لحملات جارفة هدفها التشكيك في صلاحية الإسلام للوفاء بمطالب العصر وهم بذلك يوفضون رفضاً باتاً جميع الدعاوي الفكرية الدخيلة التي تحاول أن تتسلل من النوافذ بلا استئذان بعد أن خرج الاستعار من الأبواب وهم يهبيون بالمسلمين عموماً، وبالمفكرين خصوصاً أن يطبقوا المبدأ الأخلاقي الإسلامي: مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليطرحوا السلبية التي درجوا عليها في عصور الوهن والتخاذل وأن يؤمنوا حق الإيمان بكتابهم وأن يثقوا تمام الثقة بأنفسهم وعلى الجملة أن يصلحوا جوانهم ليصلح الله برانيهم وأن يستمسكوا على الدوام بأصالتهم مع الانفتاح على العالم في عزم وإقدام.

(7)

تلك هي الصورة على مستوى المؤسسات والتجمعات الكبرى وهي قد أصبحت تلتقي تماماً مع أصحاب القلم الإسلامي المشرع في وجه التغريب والغزو الثقافي والذي يعمل منذ سنوات في مجال تصحيح المضاهيم وتحرير القيم من التفسيرات التلمودية والماركسية والفرويدية والوجودية، وكلها تفسيرات تختلف عن مفهوم الإسلام الأصيل وفي عيط العلم عشرات من الأقلام اليقظى النابهة، تقف في حزم وعزم، لتواجه كل الشبهات والمطروحات الزائفة وتقول فيها كلمة الحق وفي مختلف الصحف الإسلامية أقلام رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وهم في الحقيقة المدد الأصيل لهذه المؤسسات والمؤتمرات والملتقيات الناهضة على فهم قرآني للقرآن متحرر من الفهم الفلسفي. والفهم الغربي الوافد.

ولعل الله يكتب للمسلمين والعرب في عام ١٣٩٣ الجديد مزيداً من الضياء والنور، ومزيداً من العمل على طريق الله: الطريق الوحيد الذي يصل المسلمين بالنصر والثبات واستحقاق حمل أمانة الرسالة إلى العالمين.

الفصل السادس

إعادة النظر في كتابات العصريين

في مطالع هذا القرن الهجري الخامس عشر تفتضينا أمانة الفلم والدعوة إلى الله ومسئولية الكتابة في الثقافة والأدب والعمل الصحفي خلال أربعين عاماً أن نعيد النظر في كتابات العصريين الذين حاولوا السيطرة على آفاق الفكر الإسلامي الأصيلة وتحويلها من وجهتها الخالصة لله تبارك وتعالى إلى وجهات متعددة وصدق الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنَّ هَلَاا صِرَطِى مُسْتَقِيمًا فَأَنَّ هِوُهُ وَكَلاَئِيعُواْ ٱلسُّبُلُ فَنَقَرَقَ بِكُمْ عَن سَيِيلِهِ عَن. ﴾.

فقد جاء الغزو الثقافي بحمل لواء التغريب والشعوبية لينشىء تيارات جديدة ذات بريق وذات نفوذ استطاعت بفضل جهود السيطرة الاستميارية من التغلغ في عقل الأمة الإسلامية وفكرها وروحها بدعوات صادية ووثنية وإباحية أعان عليها سيطرة النفوذ الاستمياري على التعليم، والصحافة فها النافذتان الحظيرتان اللتان نفذ منها إلى الفكر الإسلامي الأصيل النتي الرباني المصدر الإنساني الوجهة تلك الدعوات المسمومة التي ما تزال تتخطفه بين ليرالية وماركسية وصهيونية، ولذلك فقد كان لا بد من (إعادة النظر) في هذا الركام الحطير الذي خلفته هذه المحاولة الخطيرة خلال أكثر من قرن من الزمان، فقد تصادف أن كان الاحتلال البريطاني ١٨٨٣ مقارباً لمطلع القرن الرابع عشر الهجري، الذي انطوى اليوم وبات على المؤرخين والباحثين ما الجمعته وتقييمه وكشف أوجه الزيف والمحاذير التي أحاطت به، فقد لمت في هذه الفترة أساء كثيرة لمعاناً زائفاً، أو استطاعت بفضل الورق الصقيل

والصحف العلمانية ودور النشر التغريبية، ونفوذ قدي أخرى مسيطرة على التعليم والثقافة والصحافة أن تبرز هذه الأسماء وأن تجعل من فكرها المسموم أشبه بأفكار مسلم بها في عديد من المجالات وخاصة في مجال المجتمع الإسلامي الذي تعرض لأشد هذه الأخطار بما تأثرت به الأسرة والمرأة والطفل وأجيال الشباب المفرغة من الأصالة، الغارقة في الانحلال الغافلة عن الخطر الأكبر المحيط بالأمة الإسلامية كلها والذي يتطلع إلى اليوم الذي يكون فيه قادراً على صهرها في بوتفته بعد مرحلة احتوائها التي تمر بها الآن.

١ – ولقد استطاع اللورد كروكر أن ينشىء في مصر (١٩٨٣ - ١٩٠٧) تلك القاعدة التخريبية التي توالدت وأنشأت هذه الأجيال المتعددة من العلمانية منذ ذلك الوقت تحمل لواء الاحتقار للإسلام وللوطنية وتدعو إلى التبعية للغرب وتعجب ببطولاته وتحمل لواء الدعوة إلى أن الإسلام دين عبادي متخلف صحراوي، منكرة ربانية الإسلام وعالميته، وتكامله الجامع بين الدين والسياسة، وكان أخطر ما تدعو إليه حركة التغريب هو:

- القضاء على وحدة الإسلام وإحلال مفهوم الإقليميات والقوميات الضيقة القائمة على الدماء والعناصر.
- لقضاء على الشريعة الإسلامية والنظام الاقتصادي الإسلامي وإحلال
 قانون نابليون والنظام الاقتصادي الربوي.
- القضاء على التربية الإسلامية وإحلال نظام التعليم الغربي العلمإني المفرغ
 من العقيدة والأخلاق.

وهكذا أوتيت هذه الأمة من مقتلين: من مقتل التعليم ومن مقتل الصحافة فقد حطمت قوائم التربية الإسلامية وأقيم نظام تعليمي علماني قاصر يقوم على خلق طبقة من الكتبة والموظفين، المبهورين بالغرب، القابلين بالتعاون مع الاستعار، ثم جاءت الصحافة التي تولاها المارون ففتحت الابواب أمام سموم الفكر الغربي، والماسونية والعاميات، والقصص الإباحي واحتقار القيم والأخلاق ولعل نظرة واحدة إلى غطط اللورد كرومر في هدم قوائم الإسلام وركائز القيم الإسلامية في مصر ليقدم الدليل الأكبر على أن ما

نراه حتى اليوم من مخططات ودعوات إنما تستمد وجودها من هـذه الهجمة الشرسة التى قام بها زعيم التغريب الأكبر.

فقد عمد كرومر إلى عملين خطرين: زعزعة العقيدة الدينية إلى جانب اقتلاع مقدمات الوطن والوطنية، وجعل الحضارة الأروبية هي النموذج الأعلى للمصريين ليأخذون به.

وتدا\(\) كتابات كرومر على إدراكه التام لموقف الإسلام في الشرق وفالمصريون يتمسكون تمسكاً تاماً بالإسلام الذي هو أحد الكليات المرادفة للوطنية في الشرق والإنجليز لا يبدفون إلى نشر المسيحية ولكنهم يريدون نشر حضارة تقوم على أساس مسيحي. ومن ثم عمد رجال الاحتلال إلى العمل على زيادة عدد المصريين الأخذين بنصيب من الحضارة الأروبية (أمثال لطفي السيد وسعد زغلول) وجعلوا لبعضهم مقاماً كبيراً في الدور السياسي الذي تم به مصر منذ الاحتلال، وإذا استمر المضي في هذا الطريق أصبح المصري الأخذ بحضارة أروبا أقل مصرية وأكثر ميلاً لأروبا إذ يصبح المصريون بهذا الفيضان المتدفق من الحضارة الاروبية أقل إسلاماً، وهم في نفس الوقت لم كوهر في تقاريره، وكما يصفهم في عبارة قصيرة (بأنهم مسلمون وليست بهم خواص إسلامية، وأوربيون وليست فيهم خواص أوربية).

ويرى كرومر أنه في إدخال المدنية الأوربية في مصر (بجب ألا يغيب عن ذهننا أنه لا يمكن إدخال أي تجديد في الإسلام وبعبارة أخرى إن الإسلام المجدد ليس إسلاماً، إنه شيء آخر لا يمكننا وصفه، لذلك فعلينا ألا نتوقع مساعدة كبرى من المسلمين المتمسكين بدينهم فهم يزدادون تمسكاً بالدين كلم ازدادت المدنية الأوربية في مصر، أما السوريون والأرمن فليسوا أجانب، والاقباط إلى جانب أنهم مسيحيون - فهم في عام ١٨٨٢ لا يتمتازون عن المسلمين من ناحية التعلم - لذلك فإن المصري المتحضر بالحضارة الأوربية

⁽١) الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي للدكتور سامي عزيز.

أصبح هو العامل الأساس في أداة البلاد إلى جانب الأوربين والواقع أن القسم الأكبر من المصرين مسلم، وينظر إلينا (نحن الإنجليز) باعتبارنا لا نعرف شيئاً خارج المادة (روحياً) ولكن توجد بينه وبين عالم الأزهر في الوقت نفسه هوة لا تقل اتساعاً عن الهوة التي تفصل بين العالم الأزهري وبين الاوربي. وهكذا فإن الشباب المسلم الدائر في تيار الحضارة الأوربية يفقد إسلاميته أو على الأقل يفقد القدر الأكبر من دينه ويحرم نفسه من أهم مبادىء عقيدته وفي الوقت نفسه ناداراً ما يتجه هذا الشخص إلى المسيحية.

ويعترف كروم بفضل الحضارة الأوربية على الشرق من الناحية المادية أما من الناحية المعنوية فإن التأثير على الأخلاق غير واضح فالحضارة الأوربية تقضي على دين دون أن تستبدل به غيره فالمصري الذي قد يطلق عليه (صاحب التفكير الحر) يجد نفسه في خضم هائل دون مرشد أو هاد، إنه لا يجد في تاريخه الماضي ولا من ظروفه الحاضرة سنداً أخلاقياً يعتمد عليه، إنه يرى دينه راغباً في التجديد، أما الدين الذي يقبل الإصلاح والتجديد فهو دين آخر، لذلك فإنه يتجه إلى ترك الدين جانباً، وفي الوقت نفسه يحاول تقليد الأوربي، ولا يترك هذا المصري عقيدته خلف ظهره فحسب بل إنه يترفع عنها ويزدريها، وهكذا يندفع مغمض العينين بين أحضان الحضارة الأروبية، غير مدرك لحقيقة هامة، هي أن ما يراه ليس سوى المظهر الخارجي لتلك الحضارة، بينها تستقر المعنويات المسيحية تحت هذا الظهر وتتحكم في حركاته، ويصعب على مقلد الحضارة الأوربية أن يحصل عليها) ولكن هل يجا المصريون هكذا دون عقيدة معينة؟.

ويوضح كروكر أنه (بمرور الوقت سيخلق المسلمون ديناً لا يقوم على الإسلام الأول، إنه سيقوم على مبادىء جديدة، وهكذا فإن المصري المتحضر بالحضارة الاوربية هو الحجر الأول وليس الأخير في المجتمع المتطور).

وينصح كرومر رجال السياسة الأوربين بالأبتماد عن كل ما من شأنه أن يعد تحقيراً للعقيدة الإسلامية ولندع هؤلاء الذين يقودون دفة الدولة على حذر يدكون في مكر الصرح الروحي للمجتمع الإسلامي فإن ازدراء العقيدة الدينية للشعب بأسره أمر على جانب كبير من الخطورة سياسياً واجتماعياً. وهكذا رسم المعتمد البريطاني الطريق للوقوف في وجه الإسلام، كعقيدة إلى حد أن أقبل فريق من المسلمين المتأثرين بالحضارة الغربية على كل غربي وتركوا ماضيهم وتاريخهم وأصبحوا لا يكترثون لشئون دينهم الذي ولدوا فيه ولا يهابون التصريح بالإلحاد، وقد التزم الأحرار المسلمون القواعد التي جرى عليها الغرب في تقدمه ورقيه واتخاذها أساساً لما أنشأوه من إصلاحات.

وهكذا نرى كيف خطط التغريب منذ أكثر من مائة عام لتمزيق وجهة الفكر الإسلامي بإدخال تلك النيارات المدمرة، ولكن مهلاً فإن حركة اليقظة الإسلامية لم تلبث أن بزغ فجرها فواجهت هذا الخطر مواجهة حاسمة وكشفت زيف المخطط ودحضت تلك القضايا المسمومة التي أثبرت.

لقد اعمد المخطط التغريبي في هذه المرحلة - وإلى اليوم على الصحافة فظهرت المقتطف والهلال واللطائف (صروف - نمر - مكاريويس - جرجي زيدان) يدعون كل في ميدانه إلى ونظرية دارون، - الماسونية - الانحلال، ولقد وقف جمال الدين الأفغاني إزاء نظرية دارون، وكتب محمد عبده في الرد على داركور وفرح أنطون وكتب فريد وجدي في الرد على شبلي شميل، وكتب علي يوسف في الرد على تغليب اللغة الإنجليزية على العربية ورد طلعت حرب وفريد وجدي على تحرير المرأة وهاجم مصطفى صادق الرافعي وعلي يوسف دعوة لطفي السيد كها هوجم عبدالعزيز فهمي في دعوته إلى الحروف اللاتينية وهاجم رشيد رضا دعوات على عبدالرزاق وطه حسين ومحمود عزمي ورينان.

وقد توالت المراحل حيث أخذ الفكر الصهيدوني يتدمس من خلال المدراسات الجامعية: الادب والاقتصاد والاجتماع، والنفس والأخلاق وعلا شأن المدرسة الاجتماعية الفرنسية التي قادها دوركايم وليفي بريل والتي تستمد مفاهيمها من الماركسية أساساً والتي جندت عشرات من شبابنا الذين ذهبوا إلى الغرب أمثال طه حسين وزكي مبارك وعمود عزمي وغيرهم وكان من أخطر أعيالها الدعوة إلى.

١ ــ نظرية فرويد في الجنس.

٢ ــ نظرية دوركايــم في الاجتهاع.
 ٣ ــ نظرية تين وبرونتير في الأدب.

ومن ثم بدأت كتابات ملفقة حول الإسلام ترمي إلى إنكار المعجزات وتدعو إلى بشرية القرآن من كتاب متغربين أخذوا يكتبون عن الإسلام (طه حسين ـ هيكل ـ العقاد) فكانت لهم أخطاء بارزة لأنهم بدأو عملهم من خلال المنهج العلماني الذي تشكلت فيه ثقافتهم أساساً ومن ثم لم يستطيعوا أن يستوعبوا مفهوم الإسلام الجامع.

كانت هذه هي مرحلة الفكر الليبرالي الديمقراطي الرأسيالي الغربي.

ثم جاءت المرحلة الثالثة: مرحلة الماركسية ودعوتها إلى التفسير المادي للتاريخ وصراع الطبقات.

وهكذا واجه الفكر الإسلامي خالال هذه السنوات ثلاث تبارات متضاربة ومتعارضة، وقد سارت روافدها جبعها في طريق واحد لاحتواء الفكر الإسلامي، وقد ألقت بثقلها في أفق الفكر الإسلامي بهدف تهديم مقوماته وزلزلة قواعده وتدمير قيمه الاساسية وإن كان ذلك ما زاده في الحقيقة إلا قوة وصموداً فقد كان الفكر الإسلامي قادراً على هذه المواجهة وكانت جذوره الثابتة في أعهاق التربة الإسلامية عتدة بما تعجز أشد القوى عن اقتلاعه وكانت هذه المحاولة أشبه بمحاولة سابقة جرت للفكر الإسلامي في الفرن الثالث عند ترجمة الفكر البوناني والفارسي وغيره من شمرات الفكر الوثني وقد واجهها علماء أقرام أشال ابن حنبل والشافعي وابن تيمية والخذالي، وقد استطاع علماء المسلمين احتواءها وتجاوزها والكشف عن زيفها وإعلان وجهة الإسلام بمفهوم أهل السنة والجاعة.

٢ ــ لقد كانت الصحافة هي المدخل إلى التغريب وقد تولالها المارون فاقتحموها بمفاهيمهم وتعصبهم وحقدهم على الإسلام والدولة العثمانية وولائهم للاستعمار ولكل دعوات التغريب فرأيناهم منبين في أنحاء العالم الإسلامي والغرب أديب إسحاق وسليم النقاش وسليم عنحوري وفرح وأنظون وخليل غانم وصروف، وغر ومكاريوس وتقلا وجرجي زيدان وجورج طنوس وخليل ثابت وكان على رأسهم جميعاً يعقوب صنوع اليهودي فكانوا العماسة والزجل والكليات الفرنسية عملاء الماسونية والاستعار ودعاة اللهجة العامية والزجل والكليات الفرنسية العامة وكان صنوع يهودي فرنسي الجنسية يدعى يعقوب روفائيل ويطلق على نفسه اسم جويدا سانو وكانت صحفه التي أصدرها في مصر وباريس بعد أن شبل شميل أخطر دعائهم الذي حمل لواء نشر مذهب دارون حين ترجمه عن أشد الدعاة له تعصباً وهو (بخنر) وكانوا يحملون في هجوم عاصف على السلطان عبدالحميد وخاصة (سليم سركيس) لأن اليهود كانوا يعدون الرأي الملطان عبدالحميد وخاصة (سليم سركيس) لأن اليهود كانوا يعدون الرأي يهاجم التراث الإسلامي ويدعو إلى الماسونية وكان يوسف الخازن يدعو الطرابلسين إلى قبول حكم إيطاليا، وكان خصوم السلطان عبدالحميد (رزق الله حسون ولويس صابونحي وجبرائيل دلال وأمين الشميل) يدعون إلى إعادة الخلافة إلى العرب غدم الدولة العثمانية.

وقد مفى خط الصحافة يجمل سموم التغريب كله (فهو أقرب إلى الجاهير وهم أقدر من الكتاب في غرس هذه السموم) ومن ثم أصبحت الصحافة العربية هي منطلق تيار التغريب فقد حملت لواء الدعوة المسومة: العامية، الفرعونية، الجنس، العالمية، الفرويدية ثم الماركسية أخيراً.

وكانت التبعية للمناهج الغربية واضحة في هذه القضايا، فقد كان طه حسين يؤمن بمذهب المدرسة الاجتهاعية الفرنسية في التصور المادي الذي يقوم على الجبية، وكان العقاد يقيم فكره على التصور الفلسفي والمذهب النفسي ويجري وراء مفاهيم الغربين في البطولة بل في الألوهية من أن الإنسانية لم تعرف التوحيد إلا في الأديان الأخيرة مع أن البشرية كانت موحدة منذ أبيها آدم، وقد تأثرت العبقريات بمذهب غربي في تحليل الشخصيات وتأثر صاحب (الفتنة الكبري) بمذهب التفسير المادي للتاريخ.

وكان حرص أمين الخولي على أقليمية الأدب والدعوة إلى ما يسمى

بالأدب المصري، وكان سلامة موسى يدعو إلى العامية والفرعونية والماركسية والنفسير المادي للتداريخ، وكانت دعوة طمه حسين إلى الأدب المكشوف والفسير المادي للتداريخ، وكانت دعوة طمه حسين إلى الأقليمية وكراهة العرب وقبول التبعية، ودعاوي الفن للفن، كها دعا عبدالعزيز فهمي إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية ودعا علي عبدالرزاق إلى أن الإسلام دين كتابة العربية بالحروف اللاتينية ودعا علي عبدالرزاق إلى أن الإسلام دين وطم حسين وتوفيق الحكيم) عليه تحفظات وفيه ثفرات كبرة وتبعية للمناهج وطم حسين وتوفيق الحكيم) عليه تحفظات وفيه ثفرات كبرة وتبعية للمناهج الفرعونية كيال الملاخ الذي أحال الأهرام إلى يوميات للاصنام والمقابر ورأينا الفرعونية والعامية ورأينا يوسف السباعي وصلاح عبدالصبور وإحسان عبدالقدوس يدعون إلى الإباحية في الشعر والنقد ورأينا أنيس منصور من عبدالقدوس يدعون إلى الإباحية في الشعر والنقد ورأينا أنيس منصور من والكاريكاتير النازل والمهاجم للوجه الإسلامي من الحياة المعاصرة.

ولقد كان الأهرام في يوم من الأيام وكراً لدعاة التغريب وعلمان المستشرقين (توفيق الحكيم ولويس عوض وحسين فوزي وأحمد بهاء) ومن الأسف أن ينهار (الأهرام) هذا الانهيار الخطير حين يسيطر عليه هؤلاء الذين الأسف أن ينهار (الأهرام) هذا الانهيار الخطير حين يسيطر عليه هؤلاء الذين لم يكونوا يكتبون قبل سنوات قليلة، فنبدو الكتابات السياسية والفكرية سافجة ضعيفة منهارة يبدو فيها الولاء الفكري الوافد والتبعية الغربية لكل وتبسط في العرض عما يشعر القارىء بأنه لا يوجد وراء ذلك أي تجربة صحفية أو فكرية أو معرفة بالتاريخ السيامي والاقتصادي والاجتماعي الذي تنبحث منه كتابات ضحلة تافهة، ولا توجد أي خبرة عميقة ولا قراءة واسمة، أين هذا من كتاب خبراء لا يستطيعون الكتابة في الأهرام أو الصحف أين هذا من كتاب خبراء لا يستطيعون الكتابة في الأهرام أو الصحف لانيس منصور وموسى صبري، وبعض من لا خبرة لهم والذين وصلوا إلى مكانهم عن طرق غير طرق الأصالة، وما تزال الصحف الكبرى عشا لإعداء

الإسلام والعلمانيين والشعوبيين الذين يكرهون الإسلام ويسخرون من كل القيم العربية والإسلامية.

بل إننا لنرى هؤلاء الصحفيين الذين وصلوا سن السبعين وعدوها وهم لا يزالون يكتبون في الجنس أمثال زكي عبدالقادر ومصطفى أمين، لماذا يسرفون في كتابة هذه الصورة من الجنس التي لا يكتبها إلا المراهقين، والظاهرة الواضحة أن كل كتاب اليوميات الآن قوم سذج، تجربتهم قليلة، أقلامهم خايبة، محصولهم قليل وخاصة النساء منهم، فهم أشد ضعفاً، والمحصول والكتابة توحي كلها بالسذاجة والبساطة والضعف، هل هذا هو ما يراد من إنزال الثقافة العربية الإسلامية إلى هذا المستوى من التفاهة جرياً وراء ما يذاع في أجهزة التسلية (الإذاعة والتلفزيون) أم إنه يراد حجب الآلام القادرة عن الكتابة، أم لا يراد دفع القراء إلى ثقافة عالية القدر.

وإن أي مراجعة للصحافة العربية فإنها تكشف عن التبعية، وعن أن الثاثمين عليها ليسوا على قدر من الثقافة التاريخية المسربية الإسلامية التي تمكنهم من رؤية الأحداث والمواقف، ولكنهم يعتمدون دائماً على صحف غربية أمثال نيوزيك والتايم، يقرأونها أسبوعياً ويترجمون منها جل ما ينشرون، ويتبعون الحظف الإقليمي السياسي من خلال النشرات التي تصدرها مصلحة الاستعلامات لتأييد وجهة نظر معينة، أما الحلفيات الحقيقية التي يجب أن يحصل عليها الصحفي في فهم العالم الإسلامي والبلاد العربية وتياراتها الحالية التي تموج إلى عصر الحروب الصليبية والاستعار والصهيونية، فإن ذلك كله غير موجود فعلاً، ولذلك فإن هذه الكتابات تبدو تافهة فاترة لا تستطيع أن تملا نفس القارى، بالثقافة العميقة، أو الفهم الواسع لمجريات الامرور السياسية والاجتهاعية في العالم الإسلامي والبلاد العربية.

٣_ أما الأدب فقد استطاع أن يحصل على مكان أكبر من حجمه الحقيقي، بينها لم يستطع الفكر، وهو جماع العناصر المختلفة ومنها الأدب أن يجرز هذه المكانة، ووجدت الشخصيات الأدبية الاهتمام الكبير بينها لم تجمد الشخصيات الفكرية مثل هذا الاهتمام، ولنضرب مثلاً بالمنفلوطي وفريد وجدي، وكاتب الشهرة عاملاً يستطيع أن يضفي على بعض الشخصيات

القليلة الأثر مكاناً لا يضفيه العمل الفكري نفسه، فقد كانت السياسة والحزبية والصحافة من العوامل التي تخلق الشهرة لأقل الناس إجادة ومكانة ما دام له قلم جارح ولقد كان في استطاعة أي ناعق أن يطلق عبارة مثيرة معارضة للدين أو للتقاليد والعرف العام، فتدوى باسمه أياماً طويلة فيصل إلى قدر من الشهرة لا يستطيع أن يبلغه من أمضى أربعين عاماً في الكتابة الرصينة، ومنهم من. خدعه اليهود، فأسرف في الحديث عن معارضة قضية الإسلام دين ودولة على النحو الذي يكتب به البعض، موالاة لمفهوم باطل، وهناك موالاة أخرى لجميع أولئك الزنادقة والصعاليك في مفهوم جديد للشعر تحت زعامة صلاح عبدالصبور، إنهم جميعاً يخدعون تحت تأثير مطامع وأوهام بالمال والشهرة ليخرجوا عن مفهوم أمتهم وعن تراث أهليهم وعن عقيدة الحق اليقين نتيجة قصور أساسي في التربية والتعلم شهد به صلاح عبدالصبور في تأريخه لحياته وشهد به (أنيس منصور) ذلك الأفَّاق الذي طوف على الجمعيات من ماسونية ودينية، ووثنية، هذه هي ثمرة هذا الجيل الذي تكون في ظل مفاهيم الشيوعية الوافدة التي اعتصمت بإحدى الأحزاب الكبرى فترة الأربعينات فأنجبت أحمد بهاء المدين ومحمود أمين العالم، وكمان إحسان عبدالقدوس ونجيب محفوظ ويوسف السباعي قد سبقوا في مجال الإباحيات والكشف في القصة، تلاميذ لليهود الملثمين تحت أسماء المستشرقين ومتابعين دعوة طه حسين وسلامة موسى.

وقد كان كتاب الصهيونية هم أول من بث الأفكار الهدامة ونظريات الانحلال عن طريق الصحافة والترويج للصور المغرية بالانحراف المثيرة للغرائز والشهوات، وأنت إذا قرأت الصحافة العربية باقلام كتابها التغربيين والشعوبيين تحس كأن المسلمين يستسلمون للغزو الغربي وينصهرون في العالمية والأممية، وأنهم يتنازلون عن شخصيتهم رويداً رويداً، ولكن ذلك من أعال الكذب الإعلامي لخداع الشباب المسلم ودعوتهم إلى التسليم للتبعية الغربية.

وهنــاك سموم المسرح والفن والـرقص والغناء ومفـاهيم مضللة حول الفُلكلـور والدرامــا والماساة وغيرهــا من مفاهيم وافــدة تسطر كــانها حقائق وتقدم للناس كأنها علوم. وهناك خطة حول ما تبرره الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية من الصحور الفاضحة والعارية، والمقال المسعومة والقصلة الجنسية، والمقال الهجومي ضد الإسلام ودعاته، هذه الصحف تدخل كل بيت، وقد تخصص كثير من هذه المجلات في نشر أدب الفراش وقضايا النجوم الفنية ومنها ما تخصص في سرد أخبار النجوم والكواكب وأخرى تتسمى ببنات جنسها وتزعم أنها تخدم قضية حواء وتحارب تعاليم الإسلام فيها يتعلق بالطلاق وتعدد الزوجات والحجاب. وترد لنا من لبنان الشبكة والموعد وما شابهها التي تقدم صوراً فاضحة وأوضاعاً صارخة، وما بين دفتيها يخذش الحياء ويهم الأحلاق.

وعندما تطالع الصحف العربية تحس أنه لا هم لها إلا إحياء ذكرى المغنيات والراقصين والراقصات وهناك ألبوم كامل يفتح يومياً على هذه الذكرى أو تلك، هم الفنانون فقط الذين تحتفل بهم الصحف أما أعلام الفكر والأدب والصحافة فلا يذكرون بل لقد ذهب غرجوا السينيا إلى إعادة الفكر، والأدب والصحافة فلا يذكرون بل لقد ذهب غرجوا السينيا إلى إعادة والمغنين والإباحيين حتى ينشأ فيلم كامل عن حارة الدعارة التي كانت بمصر أمام النفوذ الاستماري، وحينها ننظر نجد (ريا وسكينة) و (شفيقة الفبطية) أمام النفوذ الاستماري، وحينها ننظر نجد (ريا وسكينة) و (شفيقة الفبطية) يريدون أن يقدمونه إلى الشباب المسلم، حياة الغوازي والمراقص والبغاء التي يريدون أن يقدمونه إلى الشباب المسلم، حياة الغوازي والمراقص والبغاء التي جديد على جيل مفرغ من أي مفاهم وطنية أو دينية، وما هذا الاهتمام بالفرعونية، ماذا يراد به، هل هذه هي حقيقة الانتياء المصري، الحقيقة أن الانتهاء المصري (عربي إسلامي) أما الفرعونية فهي مرحلة تاريخية وذلك عهد قد انقطمت الروابط به منذ جاء الإسلام وهو عهد لا تاريخ له ولا ثقافة ولا لغة، لقد مات، مات، ولن تسطيعوا إحياء، مهها فعلتم أبها الشعوبيون.

ولماذا هذه السخرية بالتاريخ حين يحاول نجيب محفوظ السخرية بابن بطوطة فيكتب ما أسياه رحلة ابن فطومة، وما هذه الكليات المدسوسة في الرحلة الرامية إلى الإباحية وإلى الحديث عن الخمر في قوله: (أتصدق حقاً أن إلهك يهمه أن تشرب خمراً أو لا تشربها)!. ٤ ــ وهناك تيار الماركسية المسموم ودعاته الذين يحرفون الكلم، أصحاب التفسير المادي للتاريخ، كتابات الحسين شائراً والحسين شهيداً لعبدالرحمن الشرقاري، وسليان الحلبي اللفريد فرج، وماساة الحلاج لصلاح عبدالصبور وصلاح الدين للشرقاوي.

لقد خضعت الصحافة المفرية (أسبوعية ويومية للتيار الماركسي) وتولى باقية، خضعت الصحافة المصرية (أسبوعية ويومية للتيار الماركسي) وتولى أمرها بالإضافة إلى الصحف التي أصدرها الشيوعيون كالطليعة والكتاب المصري، في يولية ١٩٦٤ تولى أحمد بهاء دار الهلال وعمل معه كامل زهبري وعمود أمين العالم، وإبراهيم عامر وقد مر الهلال بمرحلة الماركسية والادب الجنسي والوجودية، (يوسف إدريس ورجاء النقاش) وكلفوا النساء بدراسات جارحة عن الجنس أو عن البغاء (سهير القلياوي في مصر وخديجة الموالي في المغرب) واستغل الماركسيون رفاعة الطهطاوي كها استغله اللبراليون لأنه تأثر بالفكر الغربي في الدعوة إلى الوطنية بديلاً للعقيدة والمصرية في مواجهة الخلافة العثمانية والإعجاب بمظاهر الحضارة الغربية وخاصة الرقص الغربي

وجاء دعاة النزعة العقلية القائمة على مفهوم الفلسفات المادية، نديم البيطار وجلال صادق العظم، هذان الذين ظهرا بعد النكسة مباشرة ١٩٦٧ للدعوة إلى ما سموه علمنة الذات العربية وإخراج الجيل الجديد من إطارات الدين.

وتوسع التيار العلمإني ذي اللون الماركسي بعد أصحاب اللون اللبرالي، وهو تيار قائم على كراهية الوحدة الإسلامية وإعلاء شأن القوميات واعتبار التيار القومي أعظم من الإسلام، وتفسير التاريخ الإسلامي على أنه تاريخ أقليميات (جابر الانصاري ومحمد عهارة) وأن الحروب الصليبية كانت حروباً عربية، تتعلق بأقاليم كالشام ومصر مع كراهة معلنة للدولة العثمانية، حامية الإسلام أربع قرون، وذلك لتمزيق مفهوم الجلمعة الإسلامية.

ولقد كانت فكرة القومية العربية تهدف أن تكون مناقضة ومعارضة

للإسلام ومناهضة للوحدة الإسلامية، مناهضة سرية تحت ستار العروبة وهي أشبه بالفنيقية والفرعونية فهي عندهم دعوة أقليمية تعلي شأن الجنس وترى القومية عقيدة. ولقد كانت جميع الاحزاب القومية التي نشأت في بلادنا قد جعلا العداقت بين الدول العربية تقوم على رابطة العرق وحده، المجردة من كل صلة بالعقيدة وجعلوا علاقاتهم بالدول الإسلامية كعلاقتهم بالكونغو والمكسيك والارجنتين، وقد نشأت فكرة القومية المغلقة، وجعلوها موازية لفكرة الالوهية للتخلص من الإسلام، وقد بدأت نظم الاحزاب سياسية وانتهت ماركسية.

و لقد كانت المحاولة تهدف إلى قطع الفكر الإسلامي المعاصر عن الفكر الإسلامي في مسيرته خيلال أربع عشر قرناً ولمذلك أسموه الفكر المصري أو الفكر العربي، وكذلك قطع الادب العربي المعاصر عن الادب العربي المعاصر عن الادب العربي منذ أوائل الإسلام، وهي محاولة جرى عليها طه حسين والمعقاد وهيكل والمازي، وكانت دراساتهم لابن الرومي والمعربي والمتنبي وغيرهم مرتبطة بمفاهيم النقد الغربي التي قامت على أساس استعلاء العنصر، كالقول بأن عظمة ابن البرومي إنما جاءت من أصله الروماني.

لقد سقطت مؤامرة الشعر الحر بموت صلاح عبدالصبور وكان لويس عوض هو أول من أهدى عبدالصبور إمارة الشعر الحر الذي رد له الجميل بطبع كتابة المسموم مدخل إلى تاريخ اللغة العربية، بعد أن تولى مسئولية هيئة الكتاب.

٦ أما كتَّاب القصة في عصرنا فلم يخرجوا عن أن يكونوا تابعين لمذهب فرويد في الجنس أو مذهب ماركس في التفسير المادي والاقتصادي للعلاقات من الإقرار في المجتمع وكلاهما باطل وفاسد وعنوى وجارياً وراء الأهواء؛ كان يوسف السباعي وإحسان عبدالقدوس ويوسف إدريس ونجيب محفوظ بعد شيخهم توفيق الحكيم غلماناً للمستشرقين وانباعاً للمناهج الوافدة، لقد كان كتابنا الكبار قناطر للفكر الغربي: /

دعا طه حسين إلى فصل اللغة العربية والأدب عن الفكر الإسلامي.

دعا ساطع الحصري إلى فصل العروبة عن الإسلام. دعا علي عبدالرزاق إلى فصل الدين عن المجتمع. روج سلامة موسى لمفاهيم فرويد ونظرية الجنس.

روج عبدالرحمن بدوي لنظرية الوجودية وامتداده في سهيل إدريس. روج طه حسين لنظرية الشك الفلسفي وبشرية القرآن.

روج سلامة موسى وإسهاعيل مظهر لنظرية دارون.

روج طه حسين ومحمود عزمي لحضارة البحر المتوسط.

أعلن طه حسين في مصر وأحمد أغايف في تبركيا النبعية للحضارة الغربية وتبنيا الفكرة المسمومة من أن المدنية الأوربية كل لا يتجزأ، تؤخذ بمادياتها وفكرها، أي أن أساسها هو الفكر المسيحي مع أن الإسلام عقيدة ونظام اجتماعي كامل وحضارة، بينها المسيحية ليست كذلك.

وتبدو فكرة الاحتواء التلمودي واضحة في مسائل الفن والأدب والدعوة إلى وحدة الاديان.

إن ما يكتبه هؤلاء هو وجهة نظر مستمدة من ثقافة مختلطة وافدة وتجربة قليلة ولا يمكن أن يمثل منهجاً عاماً، خاصة أن هؤلاء الكتاب من ثهار المدرسة العلمانية الغربية وإنهم مع الأسف لم يطلعوا على وجهة النظر الإسلامية في مختلف أمور الاجتماع والفكر، وإن على القارىء المسلم الذي يقرأ لهم ألا ينخدع بما يقدموه، لأنه ناقص، وعليه أن يقرأ إلى جانب ذلك وجهة النظر الإسلامية، لدى كتاب (المدرسة الإسلامية) وهم يتمثلون اليوم في مجموعة من كتاب أبرار مثال الرصانة والاعتدال وعمق الإيمان بمسئوليات الأجيال.

٧ – من المؤامرات التي تسوقها حركة التغريب والشعوبية والغزو الثقافي
 (فتنة الانتقاء من التراث) التي يثيرها زكي نجيب محمود ونفر من التغريبين.

من الذين يحكم على التراث وما هي أدواته في القياس. . لقد علمتهم الدعوة المسرفة إلى العصر وإلى أنهم أساتذة أنفسهم إلى إطلاق الرأى في جرأة الذين لم يبلغ الرشد أو يعرف قدر الكنوز التي بين يديه فهو يبددها في سفه الوارث الجاهل.

إن التراث الإسلامي كل لا يتجزأ، ومقياس التفسير المادي للتاريخ لا يصلح، إن إيجابيات التراث وسلبياته ضرورة لنا لمراجعة ماضينا ورسم مستقبلنا، إنهم لا يملكون الإيمان والحافز والغيرة على تاريخ هذه الأمة وميراثها الرباني، حيث لا يقاس تاريخ الإسلام ولا تراثه على تاريخ الغرب وتراثه للفارق البعيد والعميق، نحن نؤمن بأن التراث ليس شيئاً مقدساً، التراث كالتاريخ، فيه الإيجابيات والسلبيات، ولكن العقيدة (الميراث) هي الشيء الوحيد الذي هو قوق النقد لأنه الحقيقة الحالدة الماقة.

٨ إن البصر النافذ إلى تيارات الفكر الوافد يكشف عن أن هناك حرباً معلنة على الأصالة وهي تصطنع حرباً معلنة على الأصالة وهي تصطنع كل الوسائل والأساليب والخطط وتنتظم جميع المجالات، بهدف توهين هذه الحطوة الجبارة التي قطعها المسلمون بالإسلام على رأس القرن الخامس عشر الهجري.

فغي مجال التأليف والأدب نجد تلك الصورة الغامضة، العائدة من السربون وهي دكتورة في الإخراج المسرحي نقلت من المخرجين الفرنسيين الذين تتلمذت على أيديهم وقد أمضت أربع سنوات في باريس من أجل الدراسة!.

ونجد هؤلاء المؤلفون الذين لا يكتبون عن أفريقيا إلا عن الموسيقى والرقص والغناء الذي يرتبط بالسحر والتطبيب، وهذا الباحث في الأندلس لا يدرس إلا الحيال والشعر في نصوص الأندلس، كأنما لم يعد هنـاك شيء يدرس إلا ابن عربي وغزلياته الروحية وديوان ترجمان الأشواق، وهذه المفاهيم المنحرفة عن وحدة الوجود والحلول.

أما الظاهرة الخطيرة حقاً، فهي ظاهرة الكتابة عن السحر والعفاريت وشغل الناس بالجن، في فترة من أدق فترات حياتهم وحياة مجتمعهم.

وكان قد وجه مصطفى أمين إليها أنيس منصور منذ سنوات عندما

أدخل إلى مصر قضية الشلة التي كافأه عليها بأن جعله رئيساً لتحرير عجلة (الجيل) التي لم تلبث أن سقطت واليوم نرى هذه الظاهرة تتسع في صورة مقالات أسبوعية في جريدة الأخبار وفي صورة كتب تصدر، أما إسهاعيل يونس فقد خاض هذه الأوحال والاقذار رجاء عبدالعاطي حامد ليكمل مشوار صاحبه وتحمل جريدة الأخبار لواء هذه المؤامرة، ونرى المرأة وهي تكتب اليوم هذا الادب المكشوف الإباحي حتى يوصف ما تكتبه (فلانة) بأنه ثورة على كثير من تقاليد المجتمع، هذا المسافر في دمها لن يكون إلا السرطان الخطير الذي يتحرك في أفق الكتابات النسوية حاملاً مفاهيم الإباحية والجنس، والخيانة الزوجية والذي يجد من يشجعه ويدفعه ويجمعه لصب هذا الإثم كله في كتب تقرأها الفتيات فتلوث فطرتها وتفسد طبيعتها وتظن أن الحياة ليست إلا

٩ ـ ويجري كل هذا، وأغرب منه في حوار توفيق الحكيم مع الله (جل وعلا عيا يقولون علواً كبيراً) وإذا أريد لفت النظر قالوا إنها (حرية الفكر) هذه الكلمة التي أصبحت كالسيف المصلت في يد جماعة يريدون الترويج لمفاهيم لا يرضاها الإسلام، إنهم إن آمنوا بما يعتقدون فذلك لهم ولكن الترويج لذلك بين الناس وإثارة الشبهات في الصدور، واللهو بعواطف الناس ومشاعرهم فهذا ما لا يرضى عنه أحد ولقد أعجبتني كلمة الشيخ الشعراوي في هذا حيث يقول:

(إن حرية الفكر للإنسان هي أن يكون حر الفكر فيها يختاره من دين فإذا ما انتهى بقواعد فكر» الجديدة، يجب أن يلتزم بقضية الدين، ولا يحتج علينا بأن ﴿ لَاۤ إِكْرَاهُ فِى اَلۡمِیۡنِ ۗ ﴾).

فالمقصود هو أنه لا إكراه في اعتناق الدين، أما حين يتدين فيجب أن يحترم اختيار عقله، ويلتزم بأحكام دينه.

حرية الفكر لا يأخذ بها الناس إلا في أمر أباح الشارع الحكم فيه، أما حين يأتي الشارع بنص يحتمل فكري وفكرك فهذا اجتهاد، ولذلك كان لدى المجتهدين رضوان الله عليهم دقة في الأداء، كانوا يقولون رأيي صواب بحتمل الخطأ، ورأى غيري خطأ بحتمل الصواب.

10 وبعد فقد تجد التيارات الوافدة فرصتها الكاملة للتعبير عن وجهة نظرها بينها لا بجد التيار الإسلامي مثل هذه الفرصة لإحقاق الحق فيها يثار مع أن التيار الإسلامي هو التيار الأصيل: تيار الأمة منذ أربعة عشر قرناً، ذلك لان العلمانية والماركسية قد تداولوا السيطرة على الصحافة العربية ومن ثم فإن هناك تجاهل تام للتيار الإسلامي، حيث لا تتاح له الفرصة لتصحيح المفاهيم عرضوا للتيار الإسلامي عرضوا لله في سخرية وإقلال ونقد، ذلك لأنهم عرضوا للتيار الإسلامي عرضوا لله في سخرية وإقلال ونقد، ذلك لأنهم الحزيية، ما لا يجده التيار الإسلامي الذي عاش دائماً وأبداً على بصيص أصئيل من النور فالكل بجاول انتقاصه وعدم الاعتراف به وتجاهله وحجبه ضئيل من النور فالكل بجاول انتقاصه وعدم الاعتراف به وتجاهله وحجبه الإسلامي وقضاياه في عديد من المواطن التي تواجه التحديات من القوى الاجنبة والشيوعية على السواء.

من أجل هذا كله كان لا بد من إعادة النظر في كتابات العصريين اللهم اجملنا سلياً لأوليائك حرباً لأعدائك نحب بحبك من أحبك ونبغض ببغضك من خالفك.

(مقدمة كتاب: إعادة النظر في كتابات العصريين)

شهر لإعادة صياغة الحياة وتطهر النفس

نشرت هذه المقالة في أول عدد صدر من مجلة منبر الإسلام بعد وفاة عبدالناصر، ثم منع الكاتب من الكتابة في هذه المجلة لمدة عام كامل.

«عندما يقبل رمضان من كل عام يذكرنا بتلك القاعدة الإسلامية النفيسة البعيدة المدى في بناء الأمم والشعوب، وبناء الأفراد والنفوس.

ذلك أن الإسلام قد قدر مدى ما يحتاج إليه الفرد من وقفة بين آن وآخر في زحام الحياة لمراجعة حساباته، وإعادة النظر في خيطوه وطريقه، وتعديل مساره، إذا كان قد أخطأ السبيل، وتعويض ما فاته من خير، والتحرر ما أصابه من شر.

وقد أعطى الإسلام هذه الوقفة أهمية كبرى، فركز عليها حين أقر الصلاة الجامعة كل يوم جمعة، وجعلها علاقة بين كل أسبوع وأسبوع على النظرة المتأنية من خلال صلاة الجمعة وخطبتها وذلك اللقاء في مساجد الله، وكشف عن أهمية ذلك كثير من الآيات والأحاديث.

وأبرز معاني ذلك ومفاهيمه أن الله سبحانه وتعالى يستضيف رواد بيوته في هذا اليوم فيستجيب لهم ويكشف عنهم الغم والهم، ويصرف عنهم ما يضيرهم، ويحقق لهم ما يرجون، وذلك معنى قول الحديث القدسي: «فحق على المزور أن يكرم زائره».

ويجيء رمضان كموعد للقاء أكبر من خلال العام كله، يمتد ثلاثين يوماً ليصفي حساب السنة كلها، يصفي حسابها بصدق مفهوم: معنوياً ومادياً ومن خلال النفس والجسم جميعاً. فرمضان شهر يطبب القلوب والأجسام، ويعطي خلال أيامه ولياليه قدراً كبيراً من الأشواق الروحية التي تحول دونها رحلة الحياة السريعة العجلة التي تحول أحياناً دون وقفة تأمل، أو لمسة تدبر، فيجيء رمضان ليتيح هذه الفرصة، يتيحها بذلك الطابع الفريد الذي يغير به نهج الحياة الرتيبة، في شؤون الطعام والنوم والعمل وبما يفرضه على مناخ الحياة من معان وقيم قد تبدو مغايرة قليلة أو كثيرة لمنطلق الحياة خلال العام كله.

فهو يخرج الإنسان من عاداته وطبائعه التي ألفها، ويفرض عليها عادات أخرى، وقد يكون أبرز ما فيه ذلك الكف عن الطعام والشراب من الفجر إلى الغروب، وهو عمل مادي ولكنه يحقق أثراً في عالم الروح والنفس، ويعطي عشرات النتائج في بجال الجسم والروح جيماً، فهو علاج طبي لبعض الامراض. وهو علاج نفسي لبعض التغرضات، وهو توسيع لأفاق النظرة إلى الفقراء، وهو وسيلة لحلق قدرة قادرة في النفس الإنسانية على الصبر والأناة والاحتهال، هو تقبل لإرادة الله العليا وانصهار فيها. ولقد كان الصوم في غتلف الأديان والعصور وظاهرة، طبعية لم تتخلف، ولكنها جاءت في الإسلام على نحو أكثر تناسقاً وعمقاً؛ وجاءت فريضة من فرائض الإسلام، وجاء معها ما يجل منها غير القادر عليها في مرض أو سفرة أو شيخوخة.

ثم كان الصوم أبعد من ذلك أثراً في تكوين النفس المسلمة الصامدة، فهو عمل له ظاهره وباطنه، فلا يعرف حقيقته إلا الله وحده، يستمد صاحبه الإيمان به من ضميره فلقد يورى به وهو لا يفارقه، وهو صوم ليس عن الجوع والعطش وحدهما، ولكنه صوم عن الكلمة النابية والتصرف الخاطىء، صوم الجوارح والنفس والعقل عن كل ما يغضب الله.

ويجيء رمضان فيفرض جواً جيلًا حنوناً على المجتمع كله، جواً معطراً بالضياء والنور والخير، حيث ينبعث التراث الإسلامي العربي من جديد على الالسنة والأقلام فيتجدد الاتصال بجوهر الإسلام، وصفحات التاريخ الباهرة، وتخرج النفوس من تصرفاتها المادية، التي أغرقتها فيها تطلعات الحضارة إلى ذلك الإيمان العميق بالله والتياس رضاه، والارتواء من تعاليمه، وتكشف النفس المسلمة خلال ذلك كله عن جوهرها الأصيل وطبيعتها وذاتيتها، وتجد مزاجها النفسي وضميرها من خلال أي القرآن وحديث الرسول 繼 وصورة الإسلام عمثلة في الكلمة والتاريخ والجو المحيط كله، من مآذن تعلو عليها كلمة الله، ومن صلاة التراويح الطويلة بعد العشاء، ومن نداء إلى الإنطار والسحور والفجر.

كل ذلك، من صور معنوية ومادية يجدد النفس المسلمة ويخرج بهـا شهراً كاملاً من ضيق الحياة المادية التي تتقطع لها الأنفاس إلى جو أكثر رحابة وأقرب إلى الإيمان والحب والبر.

ذلك هو عطاء شهر رمضان: شهر نقف فيه كل عام، لنجدد خلايا البسم بالتحرر من الروح والنفس والعقل جميعاً، كها نجدد فيه أيضاً خلايا الجسم بالتحرر من قبود الأطعمة والمشارب وحيث تشرق الروح وتنزداد تألقاً وصفاء، وحيث تصفي تبعات العام كله، وتتأهب النفوس والقلوب والعقول لاستقبال عام جديد من العمل والبناء والجهاد يكون فيه والإنسان» أكثر إنسانية وأعمق إيماناً بربه، وأكبر قدرة على النضال وبناء الحياة على قاعدة الحق والعدل.

ونحن حين يجيء رمضان نلتمس مواقف ذلك النبي العظيم الكريم وشهائله في هذا الشهر الكريم لنرى كيف كان يواجه أضواء رمضان.

ولرمضان في نفسه أثر عميق، حيث يرتبط بوقائع حياته في أعظم أحداثها.

ففي رمضان نزل عليه جبريل بالوحي والدعوة لأول مرة في غار حراء، فرجع يرجف إلى أهله وقد جاءه الناسوس الأكبر بـدعوة الحق على رأس الاربعين من عمره، ومنذ ذلك اليوم ارتبط محمد بالإسلام رسولاً ونبياً، ونزلت عليه أي القرآن وانفتح ذلك الخط العميق في حياة رسول الله هؤ وفي حياة الجزيرة العربية وفي حياة المسلمين جميعاً، إنه ليذكر تلك اللبلة المضية وقد جاء جبريل يحمل أول آي القرآن الكريم: ﴿ أَوْرَأُولَا اللَّهِ عَلَى اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهِ عَلَيْهِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُولِيلّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللّهُ الللللّهُ اللّ وفي رمضان كانت موقعة بدر الكبرى التي ركزت على طريق الإسلام ذلك الضوء الكاشف.

وفي رمضان كان فتح مكة: تلك الموقمة الكبرى، حين نصر الله الحق نصراً مؤزراً، وأصبحت الكعبة لله وحده، وقد تحطمت من حولها الاصنام وذلت تلك القوى الحقيمة المعارضة لقوة الإسلام وعظمته. وفي رمضان كان جبريل يلقى النبي فيدارسه القرآن، وفي رمضان الاخير من حياة الرسول ﷺ راجع النبي آي القرآن مع جبريل مراجعة خاتمة ما يزال منذ ذلك الوقت وإلى اليوم محفوظاً قد حماه الحق من كل زيف: ﴿ إِنَّالَكَمَّنُ مُزَّلْنَا ٱلذِّكُرُو إِنَّالُهُ لَكُو اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُل

ولرمضان في التاريخ الإسلامي صفحات باهرة، وله في تراث الأدب والفقه صفحات وصفحات، فكم قال فيه الشعراء، وكم حرر فيه الفقهاء من أحكام وأجابوا على تساؤلات.

ولقد سجل القرآن الكريم في آيه العظيم مكان رمضان وفرضيته:

وقال الرسول: وقد جاءكم شهر رمضان افترض الله عليكم صيامه تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق فيه أبواب الجمحيم وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهره.

ولما كان لرمضان هذه المكانة الواضحة بين قواعد الإسلام ونظمه فإن الحق تبارك وتعالى قد خصه بين العبادات بجزاء مماثل: يقول الحديث فيها رواه البخاري ومسلم: «كل عمل ابن آدم يضاعف: الحسنة عشر أمثالها إلى سبعاثة ضعف».

قال الله تعالى: «إلا الصوم فإنه ليس وأنا أجزي به».

ويصور الإمام الشافعي الصوم على المعنى الأكمل حين يقول:

«أحب للصائم الزيادة بالجود في شهر رمضان، اقتداء برسول الله ﷺ ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم، ولتشاغل كثير منهم فيه بالعبادة عن مكاسبهم».

وتكاد تكون أكبر القرب إلى الله في رمضان هي قراءة القرآن وتأمله والاتصال بمضامينه اتصالاً نفسياً وعقلياً عميقاً. وكانت تلك أظهر أعمال رسول الله في شهر رمضان.

وفي الحديث القدسي: ويقول الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به والصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم، إني صائم والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ربح المسك، للصائم فرحتان يفرحها: إذا أفطر فرح بفطره وإذا لتي ربه فرح بصومه، وبعد فرمضان شهر لإعادة صياغة الحياة وتطهير النفس.

إسلامية معركة فلسطين: علامة على الطريق الصحيح

حفلت وقائع التاريخ الإسلامي بالمؤامرات التي وجهت إلى الأمة الإسلامية وكان الغرب هو المعتدي دائماً الذي يدفع قواته إلى الانقضاض وكان الانقضاض الأول بالاشتراك مع التتار، في إسقاط الحلافة العباسية، وجاء الانقضاض الثاني بحملات صليبية على فلسطين ومصر امتدت قرنين من الزمان وجاء الانقضاض الثالث من الفرنجة على الجزائر والمغرب وانطلقت قوات البرتغال وإسبانيا إلى الخليج العربي وجاء الانقضاض الرابع عملاً في الحملة الاستعرارية بقيادة فرنسا وانجلترا ثم جاء الانقضاض الخامس عملاً في الحملة الاستهرارية على أرض فلسطين.

وهو الحدث الذي يواجه العالم الإسلامي منذ أربعين عاماً في تأمر مشترك بين الدول الكبرى العالمية. وجاء مخطط الاستمار ليقطع أوصال الإسلام وأمة الإسلام ومحاولة تقسيم المسلمين إلى شعوب شتى ينتمي كل منها إلى أرض وجنسية وقومية وإقليم وطائفة وإثارة روح الصراع بينها حتى لا تلتقي على وحدة جامعة.

وأخطر ما في ذلك كله ما يجري اليوم من محاولة تمزيق الدول العربية إلى دويلات حيث لا تزال إسرائيل ووجودها في قلب الأمة الإسلامية هـو الحطر الأكبر والمعوق لحركة الأمة الإسلامية نحو وحدتها ونحو تطبيق منهجها وتبليغ رسالتها عما يتطلب تعبئة القوى وبناء المقاتلين والمجاهدين وتحويل حركة التحرير من قومية إلى إسلامية تستمد منهجها من منطلق القرآن الذي رسم للمسلمين قوانين الجهاد والمرابطة، والإعداد والنصر.

ولا ريب أن إسلامية معركة فلسطين التي تبدو اليـوم في الأفق هي

علامة على الطريق الصحيح بعد أربعين عاماً من اصطناع الغرب في مقاومته ولا ريب أن التحدي الصهيوني هم عامل أساسي في إعادة بناء وحدة الأمة الإسلامية.

ومن هنا فقد كان علينا أن نقرر أن الفكرة العربية ليست هدفاً نهائياً بل هي مرحلة نحو الوحدة الإسلامية ويجب أن تكون كذلك، بعد التجربة المريرة التي مرت بها بعض أقطار العرب وكيف فشل مفهوم القومية في تحقيق الوحدة العربية لأنه لم يبدأ من طريق الاصالة، فلقد ظن كثيرون أن الوحدة العربية غاية في ذاتها بينها هي في حقيقة الأمر مرحلة على الطريق: طريق وحدة الأمة الإسلامية، ومن ثم فقد كانت كل المحاولات التي قادها دعاة القومية بمفهوم الغرب العلماني وبمضمونها الماركسي معوقاً لهذه الوحدة عن أن تتخذ طريقها الصحيح.

ولقد دل تاريخ الشرق الادن الحديث ـ كما جاء في كتابات بعض المراقبين وفي مقدمتهم الفريد كانتول سميث ـ على أن القومية المجردة ليست هي القاعدة الملائمة للنهوض والبناء، وأنه ما لم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه فلن تثمر الجهود البتة.

ولقد رسم دعاة اليقظة الإسلامية تكامل المراحل بين الحلقات الثلاث الوطنية والعروبة والإسلام وتدافعها لتسلم نفسها إلى الوحدة الجامعة.

ولقد كان العرب قبل الإسلام قبائل متصارعة ولم يجمعهم إلا الإسلام، وهم اليوم يجرون بنفس التجربة، لقد دفعتهم القومية والإقليمية إلى الصراع والحقت بعضهم بالغرب وبعضهم بالشرق ولن يردهم إلى الوحدة الجامعة إلا الإسلام الذي جمع المسلمين تحت لواء واحد في كل أزمة تمر بهم أو محنة تحتويهم.

وفلسطين لا تعود إلا بأيدي متوضئة ترفع القرآن مع السلاح، وتؤمن بوحدة الأمة الإسلامية وتحطم كل القيود والسدود التي رسمها النفوذ الاجنبي حتى لا يتمكن المسلمون من الالتقاء الحقيقي حول لا إله إلا الله والله غالب على أمره ولو كره الكافرون.



الفصل السابع

مواجهة الفكر الغربي

أكتب هذا ونحن على أبواب القرن الخامس عشر الهجري.

آن الأوان لأن نواجه الفكر الغربي مواجهة صريحة وأن نحدد موقفنا منه تحديداً حاسماً وفاصلًا انطلاقاً نحو مرحلة المد المنطلق للفكر الإسلامي إلى أفق الأصالة والعراقة، وتأكيداً للذات وتثبيتاً لطابعها وقيمها وانحساراً لموجة استعلاء الغريب والوافد التي تقترب الآن من مرحلة الجذر الكامل. وليس من ريب أن يكون فجر القرن الخامس عشر هو قمة هذه المواجهة الصريحة التي بدأت منذ وقت بعيد والتي يجب أن تصل إلى غايتها خروجاً من التبعية ودخولاً إلى عصر الرشد الفكري بعد أن استمرت أكثر من مائة عام.

إن الفكر الإسلامي اليوم يواجه مجموعة من القوى الخارجية الضاغطة عليه من أجل إزالة طابعه وتشويه ذاتيته وصهيره في بوتقة الأعمة العالمية واحتوائه داخل تيارات الفكر الغربي، وإن كانت هذه القوى تلبس ثوباً عربياً وتحاول أن تدعي أنها غيورة على هذه الأمة راغبة في استنهاضها بينها هي لا ترى لهذا الاستنهاض سبيلاً إلا التبعية لمناهج الفكر الغربي ومذاهب، مؤمنة بأن هذا وحده هو الطريق الموصل إلى إنهاض هذه الأمة، سواء أكانت هذه الأمة هي وطن من الأوطان أو الأمة العربية نفسها وأنه لا طريق غيره.

ومن ذلك إنكار للميراث الإسلامي وتجاهل للتراث واستهانه بـاللغة والتاريخ وتعمل هذه القوى التي تحتضن مفاهيم الفكر الغربي وفلسفاته وتحاول أن تصبها وتصهرها في بوتقة الفكر الإسلامي في عدد من المجالات: أولاً: مجال الأدب والشعر والقصة والمسرحية والفن.

وهو من أخطر الميادين كلها لأنه يتصل بالنفس والجنان والوجدان وتمجد عاربة عن طريق الكلم المكتوب والمسموع. ولذلك فإن المفاهيم التي يمكن بثها عن هذا الطريق تشكل تأثيراً بعيد المدى في النفس والعقل وخاصة فيها يتصل بالشباب الذي لم تتكون لديه بعد منطقة حصانة كمافية ولا أرضية إسلامية وافية يمكناه من الفهم والاستيعاب وتحليل ما يعرض وقبول الصالح منه ورفض الفاسد والضار.

وفي هذا المجال تعمل مختلف القوى:

القوى المادية والمتسترة بالمذاهب المادية من أجل ضرب قيم الإسلام، والوجوديين والماركسيين ودعاة التغريب والشعوبية ودعاة الإباحية والهدامين من كل نوع وملة.

(شانياً): مجال الدراسات الإنسانية: كالنفس والأخداق والاجتماع والدراسات الفلسفية، وهي جميعها تستمد مادتها من النظريات الغربية سواء منها الليرالية أم الماركسية وكلها تعتمد على أنها مادة علمية أشبه بالمسلمات ليس فيها من أي وجه من الوجوه، وجهة نظر عربية أو إسلامية بينها يوجد للفكر الإسلامي مفاهيم وقيم أساسية في مختلف هذه المجالات.

(ثالثاً): مجال الدراسات السياسية والاقتصادية والقانونية، وكلها تقوم على أساس النظريات الاقتصادية الغربية والماركسية ومفاهيم العلوم السياسية الأوربية والغربية من ديمقراطية وليرالية وكذلك القانسون الغربي الموضعي وتعرض هذه المفاهيم كلها على أنها علوم تامة، ومسلمات أساسية، يجري تطبيقها في الحياة العامة عن طريق المصرف والمحكمة ونظم الحكم بينها هي تختلف اختلافاً شديداً مع مفهوم الإسلام للسياسة والاقتصاد والقانون، وبينها للإسلام منهج حياة ونظام جمعم متكامل جامع.

وهكذا نجد أن الفكر الغربي يكاد يسيطر سيطرة كاملة على نختلف وجوه العلوم والثقافات والمناهج بحيث لا يسمح للمفهوم الإسلامي بأن يقدم

جهة نظره في أمر ما من أمور الحياة وذلك وفق تصور خاطى، بأن ما يسمى التصور الإسلامي لمختلف هذه الأمور إنما هو بثابة والدين، المعزول عن لحياة والمجتمع والذي قد تطلب وجهة نظره حيناً بعد حين فيما يسمى ورأي لدين، وليس على أنه مقطع الأمر في شئون الحياة.

وهذه القوى التي تشرف على الثقافة والفكر والفن والأدب وعلى الإذاعة المرثية والصحافة ودراسات الجامعات هؤلاء قد تعلموا تعلياً غربياً هم لا يرون الأمور إلا بمقياس غربي، أما وجهة النظر العامة فهي إطلاق لرغبات وإعطاء الناس ما يسليهم ويشغلهم ويرضي مطاعهم في حدود لرغبات الصغيرة والتطلعات البسيرة، وتجري البرامج كلها حول الأغنية التي قوم على العاطفة أو المسرحية التي تقوم على الحب من خلال حوار ردي، تجهم، سطحي، تستعمل فيه لغة الشوارع وعبارات الهجاء التي تدور في لحواري وبين قوم تغلب عليهم طوابع الحدة والخصومة والأنانية، كل هذا

قدم للقارىء والسامع يوماً بعد يوم، في قصة مكتوبة أو تمثيلية مسموعة أو

غنية مذاعة.

ومن خلال هذه المسرحيات تقدم أفكار غير ناضجة وغير صحيحة وغير صيلة أصالة الأمم الراقية المتطلعة إلى العلياء والحلق الكريم، وإنما يدار لحوار حول خلافات الناس بأسلوب التقاتل والكراهية والسب ويجري تناول لأمور بين الزوجة والزوج بأسلوب فيه عنف من الزوجة وفيه تآمر من الرجل و العكس، وليس هذا هو الأسلوب الصحيح، ومن شأن هذا أن يتقل إلى لناس أسلوباً للتعامل في حياتهم العامة جد رديء وهي توجه الشباب وجهة المحدة وتضع في أذهان الأبناء رجالاً ونساء معلومات غير صحيحة في بحال لعلاقات بين الرجل والمرأة، سواء في بجال العمل أو الحياة أو الزواج أو نبره، مما يعين على مزيد من الاضطراب. أما المشرفون على هذه الأعيال التي قدم في بجال الصحافة أو الإذاعة أو التلفاز، فهم مدفوعون مفهم غير صحيح راقع الحياة، فهم يقدمون أسوأ الصور لا أحسنها، ويقدمون النهاذج السيئة بن عشرات من النهاذج الطبية التي لا يقدمونها، ويقدمون النهاذج السيئة ومن وراء ذلك مفهوم المسرحية الغربية المسيحية، القائمة على الصراع بين الإنسان والقوى العليا، وبين الخير والشر مع غلبة الشر وهو مفهوم مأساوي رديء لا يعرفه المجتمع الإسلامي.

ومن هنا نجد أن ما يقدم في الصحافة والإذاعة والمسرح والتلفاز غاية في البعد عن الواقع وغاية في البعد عن تغيير المجتمع من وضعه إلى وضع أحسن بل العكس.

وتسيطر على هذه الفنون كلها مفاهيم فرويد في النفس وسارتر في الوجود الإنساني، وماركس في اللقمة والفلسفة المادية في نظرتها إلى الحياة. وكل ذلك يختلف اختلافاً شديداً عن مفهوم المجتمع الإسلامي نفسه الذي شكله الإسلام.

ولكنها محاولة خطيرة لنقل المجتمع كله إلى التبعية والاحتواء الغربي خضوعاً لمذاهب ونظريات في النفس والأخلاق والاجتماع والفن ليست إسلامية أساساً وليست نابعة من النفس الإسلامية.

وبينيا نجد هذه القوى مسيطرة تماماً ومالكة لكل إرادتها في تقديم هذه المادة نجد العاملين في الحقل الإسلامي ضعفاء لا سلطان هم وإذا قُدموا في وسط هذا الركام الضخم قدموا على نحو غير قليل من الذلة والضعف وما كان لكلهاتهم خلال دقائق أي أثر نفسي بالنسبة لساعات طويلة من ذلك البث الخطر المتدافع القائم على معارضة كل أسباب الأخلاق والخير ومن شأن ذلك أنه يحدث أثراً خطيراً فيه كمل القلق والتمزق عما يبعد الإنسان عن جو الساحة والطمانينة والسكينة الذي تنشره حين نفكر في الاستمتاع بالقراءة أو المشاهدة لهذا البرنامج أو تلك القصة أو ذلك المقال!

أما العاملون في حقل الإسلام فهم قلة ومعسكرهم مبعد عن الأضواء، ومن يتقدمون إلى هذه الميادين لا يستطيعون أن يقولوا كل شيء، وهم في الأغلب يروجون للأوضاع الاحتيالية القائمة سواء في مجال الربا في الاقتصاد أو التحلل من اللباس أو انحراف الشباب بدعوى وأخرى وثالثة ومنهم وعاظ السلاطين والرجال الذين يررون المواقف. وهكذا نجد أن صوت الإسلام مبعد عن الصحافة والإذاعة والتلفاز إلا في فترات قليلة، وكذلك هو مبعد عن مجال التعليم والجامعة إلا خارج الدراسات الرسمية، في محاضرات قليلة أو كتب صغيرة، أو مجلات لا يسمع بها مما يبدو معه أن التيار الغربي هو التيار الغالب المكتسح سواء في مجال الفكر والثقافة والصحافة والمسرح والفن والإذاعة أم في مجال المجتمع الذي يتجه في سرعة شديدة إلى التحلل الاجتماعي وانهيار القيم في الأسرة، وخاصة في موقف المرأة العاملة من اللباس ومن الرابطة الاجتماعية، وفي مجال الاقتصاد والتعامل بالربا، وفي مجال الاندفاع نحو إرضاء الغرائز وما يتصل بانفساح المجال إليها. وأخطر من هذا كله وانعدام، فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وتحمل الصحف والمجلات كل يوم الأحداث التي تقع داخل المجتمع والتي تصور إلى أي حد فسدت العلاقة بين الآباء والأبناء وبين الزوج والزوجة وبين الناس في المجتمع وهي أحداث تغني عن كل تعليق فهي صورة حقيقية للاثار الناتجة عن إطلاق الجنس والعنف في المسرحيات والأفلام، وفي القصص والصحف، وقصور رعاية المسجد، أو توصية الآباء، أو أسوة الأساتذة والمعلمين.

هذا المجتمع: ماذا يكون الموقف منه، هل نقبله أم نرفضه، وكيف نعمل معه؟ نحن نقبل بالمجتمع وبتفاهم معه ونتطلع إلى إصلاحه ورده إلى الحق. الواقع أن ما نتطلع إليه الآن أن نكشف زيف هذه الاوضاع وفسادها ومدى خطرها على كيان هذه الأمة، وإن الأمل في أن تستعيد هذه الأمة قوتها ومكانتها متوقف إلى حد كبير على تصحيح مسيرتها والتخلص من الانحرافات والسلبيات التي انساقت إليها خلال فترة النصف قرن الماضي والذي تفجرت فيه الأمور تفجراً شديداً خاصة بعد أن اتصلت بلاد المسلمين بمذاهب الماركسية والمادية. صحيح أنها قد حيل بينها وبين تطبيق نظام الإسلام منذ أوائل الاحتلال وإن الاستمار الغربي الذي جاء خلفاً للحملات الصلبيبة أوائل الاحتلال وإن الاستمار الغربي الذي جاء خلفاً للحملات الصلبيبة ووريناً لها والذي أعلن منذ دخل القدس أن الحروب الصليبية قد انتهت وأن

الغرب قد نال ثاره من الإسلام بعد ثيانية قرون، وإن هذا جاء بناء على خطة عكمة جهو بها لريس التاسع حين أسر في المتصورة وحين استعرض نتائج الحروب الصليبية التي انتهت بهزيمة الغرب وانسحابه كسيراً ذليلاً، حين قال أن الحرب مع المسلمين هي حرب الكلمة وأنه لا سبيل إلى السيطرة على بلاد المسلمين إلا بالسيطرة على فكرهم ونزع القوى الفاعلة فيه وفي مقدمتها الجهاد وكان هذا هو ما جربه الغرب في هذه الجولة الضخمة التي نعيش الآن في نهايتها السياسية والعسكرية، وقد استطاع أن يورث نفوذه مجموعات ضخمة من القوى المسيطرة على القانون والعرف ونظام الحكم وأساليب العيش وفي مقدمتها أدوات الفكر والثقافة والتعليم وبعد أن استطاع تكبيل المفهوم الإسلامي وإزاحته من الطريق.

وفرض المفهوم الغربي على السياسة والاقتصاد والاجتباع والفن والتربية وخلق أجيال متصلة متوالية تعمل في سبيل تأكيد هذه الأوضاع باعتبارها أوضاع عصرية وعالمية وإنسانية وإن العودة إلى الإسلام هو عودة إلى الصحراء والرمال ورجوعاً إلى العصور المظلمة.

وليس الأمر كذلك في الحقيقة لأن الإسلام ليس شكلاً معيناً من النظام ولكنه جوهر يستطيع أن يتشكل في كل عصر على النحو الذي يجري معه شريطة ألا يتنازل عن أصوله الثابتة وحدوده الواضحة وضوابطه التي لا تنغير مع الزمان أو البيئات. ومن ثم فإن التهاس منهج الإسلام اليوم لا يعد بأي حال من الأحوال رجعة إلى الوراء أو عودة إلى الصحواء ولكنه التهاساً للمنابع الاصلية التي قدمتها السياء ورسالات النبوة إلى البشرية فكانت له نوراً وعدى، ثم انحرف بها القائمون عليها ووضعوا فيها أهواءهم ومطامعهم وعنصريتهم فإذا ما عادت الإنسانية مرة أخرى إلى ضياء الحق الذي لا ينطفىء وإلى نور الله القائم ما قامت السموات والأرض فإن ذلك ليس تأخراً ولا رجعية وإنما هو التهاس الحقيقة وكسر كل قيود الجمود والتقليد والضعف والتخلف وصولاً إلى الضوء الساطع والنور الصحيح والحقيقة التي عجزت البشرية سنوات طويلة في التعرف إليها جهلاً وغروراً.

مصدران لهذه الصدارة في بجال الثقافة والصحافة والسينما والمسرح والإذاعة هي معاهد الإرساليات المبثوثة في بلادنا والبعثات الصادرة إلى إيطاليا وفرنسا وموسكو وبراين وغيرها وفي كل منها يتلقف المستشرقون وكتاب الغرب من يرد إليهم من أبناء المسلمين والعرب ليوجهوهم وجهة غربية خالصة، ولما كان هؤلاء جمعاً حتى بعض الأزهريين القدامى لم تكن لهم أرضية إسلامية صحيحة فقد أمكن احتواءهم واستيعابهم.

روفي المقارنة هناك فارق بين طه حسين وزكي مبارك كأزهريين وبين أمين المصري والدكتور محمد عبدالله دراز).

فإذا عادوا من معاهد المسرح والفن عادوا محملين بأفكار ودعوات ووجهات نظر خطيرة (وأخطر هؤلاء جميعاً غرجو المسرح والتعثيليات) حيث يجدوا بيئات صالحة وحضانة كافية لهم ولأفكارهم ودعوات أتباعهم تنساب في الكتابات والمسرحيات والقصة والفن والشعر وكلها تستقى من نظريات غربية مشهورة:

كالتحليل النفسي لفرويد والنظرية الاجتهاعية لدوركايم والفلسفة المادية والوجودية وكلها تنبث في القصة والمسرحية والرواية بصفة عامة حيث هي بالإضافة إلى الشعر والأغاني وسائر الفنون منطلقات التأثير في النفس العربية الاسلامة.

أما الإرساليات فقد سيطرت منذ وقت بعيد وفرضت مناهج الاستشراق على دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية وغيرها ومنها أخذت مناهج المدارس الوطنية في ظل الاستعهار ولا تزال بقايا ذلك كله قائمة ومستمرة.

فأساتذة الجامعات تابعون للنظريات الغربية: ماركسية، فرويدية، وضعية، ليبرالية، وجودية على تفاوت وخلاف لا أثر له في اتحاد الأساس والمصدر وهو المادية الخالصة التي تنكر الدين والوحي والنبوة وتعارض في الأسس والقيم التي يقوم عليها الفكر الإسلامي أساساً. ورجال الصحافة خاضعون للتيارات المسيطرة: قومية وديمقراطية واشتراكية وماركسية فهم يعتبرون أنفسهم خدماً لكل ما يرضي ويسلي ويتطلع إليه الناس من أهواء ورغبات ومطامع دون تقدير لمدى أثر ذلك كله على الأفراد أو المجتمعات ذلك لانهم يطمحون إلى الربح واتساع التوزيع ويرون أن الصحافة تجارة تخضع للإعلان ولأهواء الجاهير.

وهي تابعة للأذواق وليست موجهة لها.

ومن هنا فإن الصحافة تقدم الجرعة وتقدم القصة الجنسية وتقدم الصورة العارية وتقدم الكتاب المحتلفة للكتاب الغربين والفلاسفة والماجنين والمسرفين دون تقدير لأي عامل آخر غير عامل الكتب ويكون الشباب الغر الذي ليس له قدر كاف من الفهم والحكم على الاشباء ضحية هذا الحصاد الضخم المختلف المختلط.

ورجال الثقافة خليط من أساتذة الجامعات ورجال الصحافة فهم غواة لعرض كل مثير وجديد.

أما رجال القانون فهم تابعون للشانون الغربي لأنهم نشأوا في حماة ولذلك فهم يؤمنون به ويرونه وحده الصالح للمجتمعات ويهزون أكتافهم إزاء أحكام الإسلام من قصاص وعقوبات إلا قليلًا ممن عصم الله.

أما علماء الدين فهم في طبقتهم العليا يسايرون التيارات العامة حتى يكسبون مجالسهم بجوار غيرهم من المدنيين فلا يعترضون على أوضاع المجتمع ولا على القوانين المدنية ولا على التيارات الفكرية المختلفة إلا إذا كنانت تتعارض مع السياسة العامة، وقد كانوا في وقت من الأوقات يروجون للديمقراطية وللاشتراكية ولا يرون بأساً في أن يجدوا من الأيات القرآنية والأحاديث ما يعين على القول بأن الإسلام ديمقراطية واشتراكية. وقايل منهم من يواجه اخطار المجتمع كالربا والفساد الخلقي وفتنة المرأة والبيت، والمرأة والعمل، والمرأة والملابس ولكن هؤلاء قلة ليس لهم مكان صدارة رسمي ولا تقال كلماتهم إلا في أوقات متفاوتة وبرامع قصيرة وبجلات غير مشهورة. لا يبرون أنهم مربون بقدر ما هم معلمون. وتشغلهم أمورهم الخاصة ويرامجهم العامة ودروسهم الخصوصية عن التوجيه والإرشاد وبناء الشباب على مفاهيم الإسلام بل إنهم يخشون الحروج على النهج حتى لا يضاروا، والإسلام عندهم صادة دينية قاصرة على بعض آيات من القرآن وبضع احاديث وهي مادة لا يمتحن فيها ولكنها يمكن أن تحول حصتها في آخر العام للدراسة اللغة العربية.

أما المعلمين فإنهم قدوة سيئة لتلاميذهم في مختلف فروع التعلم لأنهم

ومدرسو التاريخ في الأغلب ليسوا مسلمين وهم يدرسون مادة الحلفاء الراشدين والعصر الأموي والعصر العباسي وفق منهج مسموم مليء بالثغرات وأحداث الحلاف والصراع بعيداً عن عطاء الحضارة الإسلامية الضخم الوافر.

ويحاول أصحاب كل نحلة أن يسلكوا الناس في طريقهم، وأبرز هؤلاء

في الفترة السابقة هم الماركسيون الذين سيطروا على الصحافة والإعلام، والتعليم وأمضوا سنوات طويلة يوجهون الحياة الفكرية وجهة ماركسية مادية في غتلف المجالات يغرون الشباب بكل سبل الإغراء، وقد حصلوا على عليا لمناصب في دور الصحف وفي الجامعات وفي المسرح والسينا والإذاعة، ولقد انفهم إليهم وانفوى فيهم جماعة من خصوم الإسلام وخصوم اللغة العربية لدن أرادوا الكيد للإسلام والعرب عن طريق المذهب الماركسي لأنهم بمجزون عن الكيد السافر أو لأنهم يجدوا فيه حماية وردءاً هم، وكان هؤلاء مخططهم الأشبه بمخطط البروتوكولات والسيطرة على فلسطين وقد كشفت محاولاتهم هذه ومخططاتهم تلك ولكنهم تركوا آثاراً خطيرة خاصة في مجال لإذاعة التي سيطروا عليها تماماً وبحال الصحافة ولقد تدافع هذا التيار حتى نفى على المجلات ذات الأصالة لأنها كانت تقاوم وتكشف وتعري ذلك لجانب من دعاة الأصالة فلم يعدهم موشل إلا في ظل بعض المجلات لإسلامية التي لم تكن لتسمح بنشر كل شيء لأنها ما كانت تخرج على الطريق لإسلامية التي لم تكن لتسمح بنشر كل شيء لأنها ما كانت تخرج على الطريق

وإذا كان هذا كله قد تغير بعد عام ١٩٧٠ حثيثاً فإنه لم يحقق الاثر المرتجى، خاصة بعد جولة ١٩٧٤ التي كان المرتجى، خاصة بعد جولة ١٩٧٤ التي كانت ذات طابع إسلامي والتي كان يمكن أن تكون منطلقاً نحو الأصالة. اختفى من رأس الصورة الماركسيون ولكن الذين حلوا مكانهم لم يكونوا إلا ذلك الجيل القديم من الوجوديين ودعاة الأدب المكشوف والقصة الجنسية والشعر الماجن (إحسان، صالح جودت، مصطفى أمين، أنيس منصور).

خفت صوت الماركسية ولكن صوت الفكر المادي والوجودي وآثار المدرسة الاجتماعية ومخلفات الفكر التلمودي مازالت حية تتحرك ولما كانت لا تتمثل في مؤسسات ظاهرة فإنها استطاعت أن تسري سريان السم وقد اختفى ما أطلق عليه اسم الماركسية، ولكن لم يختف ما يطلق عليه اسم الماسونية، أو الفراحي وكله من صنيع الصهيونية التلمودية الفكر المادي أو الإلحادي أو الإباحي وكله من صنيع الصهيونية التلمودية المختفي وراء المذاهب والمناهج والمدعوات والإيديولوجيات والنظريات المبثرثة هنا وهناك في مناهج المعراسات وفي الصحافة وفي الجامعات وما يزال جانب الأدب والفن والقصة عمثلاً في المسرحيات والشعر وغيره يشكل خطراً كبيراً ومن ورائه قوى كثيرة تعمل.



نقطة البدء والختام

تجيء هذه المقابلة في أوائل العام الثاني من القرن الخامس الهجري: أي بعد خسين سنة كاملة من اليوم الذي بدأت أحمل فيه القلم للكتابة. ولكن شتان ما بين البدء والختام فهي جولة طويلة خلال خمسة عقود نحمد الله أنها بعد فترة من التهويم سرعان ما عرفت طريقها فأصبح هذا القلم منذ بدأت مرحلة الوعى خالصاً لله تبارك وتعالى فقد تكشف لى في هذا السن الباكر وفي هذا العام بالذات ١٣٥١ هـ الموافق ١٩٣٢ م وأنا بعد في السادسة عشرة تلك الخطة المدبرة لتغريب الشرق والإسلام والعرب، ولعل هذا هو موقع التحدي في حياق كلها، ومن هذه النقطة كانت وجهتي التي توجهت إليها وأعيش لها فقبل أن أعرف حقيقة مفهوم الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع، كنت قد قرأت كتاب هـاملتون جب (وجهـة الإسلام) ملخصاً على صفحات السياسة الأسبوعية بقلم الدكتور محمد حسنين هيكل وفهمت هذا الخطر الزاحف، خطر تغريب الإسلام والشرق والعرب ومنذ ذلك الوقت لم تغب عني لحظة هذه القضية الكبرى التي شغلتني من بعــد شغلًا جمًّا، خلال هذه الرحلة الشاقة الطويلة التي لم أتوقف خلالها عن كشف الشبهات والرد على الاتهامات وقد خضت هذه المرحلة الطويلة فلم أدع نصأ أو كتاباً أو شبهة ـ مما وقع تحت يدى ـ ومما وجه إلى الإسلام ورسوله وتاريخه أو إلى اللغة العربية إلا حاصرتها وكشفت زيفها وأثبت وجه الحق فيها.

نعم هو طريق طويل على هدف واضح ولكن يتميز في بعض مراحله بالقوة أو الضعف. وربما تكشفت لي أخطاء جريت ورائها ثمة، ثم عدت لاصححها وهي أخطاء جاءت نتيجة نقص العلم بأبعاد الأمور، وخاصة فيها يتعلق بتاريخ بعض الذين أبرزتهم مدرسة التعريب من الشعوبيين والفلاسفة القدامي والغربيين وما يتعلق بشخصيات الأدب والتاريخ وبالدولة العثهانية والسلطان عبدالحميد.

كنت أعرف الاستمار وغططاته في السيطرة والاحتواء، ولكن أحداً لم يكن قبل هاملتون جب قد كشف عن هذه المؤامرة الخطيرة على هذا النحو حين قال إن الغرب يدبر منذ وقت بعيد محاولة لتغريب الأمة الإسلامية وذلك باحتوائها وإذابتها في أتون الأعية والعالمية عن طريق تطبيق القانون الوضعي واقتصاد الربا ومناهج التعليم الغربية والعلمانية وذلك حتى تفقد هذه الأمة ذاتيتها وكبائها الذي صنعه الإسلام.

كان هذا المعنى جديداً بالنسبة لجيلنا الناشيء إذ ذاك، وحتى بالنسبة للذين كنا نقرأ لهم ولا نفهم الوجهة أو الهدف مما يلقون من سموم أمثال طه حسين وسلامة وموسى ومحمود عزمي وجيل جاء بعدهم، ثم جاءت مؤامرة التبشير الغربي في المعاهد التعليمية كاشفة عن هذا الخطر، وكان الحديث عن الاستشراق وأخطاره مازال جديداً لم يكشف بعد على هذه الصورة، ومن ثم بدأت مع هذا الخيط الرفيع وهداني الحق تبارك وتعالى إلى طريق الفهم والوجهة، حين فهمت الإسلام فهمًّا صحيحاً، ومن ثم وهبت قلمي منذ ذلك الوقت لهذا الخطر وهذا التحدي في مختلف مجالات الفكر الإسلامي فلم أدع مجالًا من مجالات الأدب والفلسفة والتاريخ واللغة ودراسات الاجتماع والاقتصاد والدين والأخلاق إلا مضيت أبحث فيه عن الأصالة وأكشف عن الزيف وأصحح المفاهيم وأحرر القيم، لا أزكى عـلى الله أحداً فقـد كنت واحداً مغموراً من جيل جديد من الدعاة إلى الله كلهم أشد قوة مني وأعظم أشراً ولكني تابعت طريقهم فلم أتوقف داعياً إلى الخروج من التبعية إلى الأصالة ومن التقليد إلى الرشد الفكرى فنرجو أن يجعل الله لنا أجر العاملين وقد مضي إلى الله تبارك وتعالى منهم أعلام كنا خلف خطوهم وبقى أعلام منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلًا. أعمالكم العلمية: المحاور وأبرز المؤلفات في كل محور:

كانت الأعمال العلمية استجابة للتحدي، فقد جاءت كتبابة تباريخ الأدب العربي المعاصر في مواجهة الكتابات الإقليمية، التي تقول بأدب مصري وأدب شامي وهكذا فأحببت أن أقدم الأدب العربي في الوطن العربي كله وحدة واحدة.

وكذلك كانت هناك صيحة تسأل أين أعلامنا وأين أبطالنا المعاصرين في كل الميادين: ومن ثم فقد حاولت أن أقدم موسوعة كماملة لأعلام الأدب وأخرى لأعلام أطلقت عليهم (أعلام وأصحاب أقلام) ومجموعة أخرى لقادة الحركات الوطنية والقومية وزعهاء الطب والقانون والاقتصاد والبيان واللغة.

أما الأدب فقد كانت [موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر]، تضم أعلام النثر، والشعر، والقصة، واللغة، والترجة، وأدب المرأة، وكانت دراستي (خصائص الأدب العربي في مواجهة المذاهب الوافدة) عصارة عملي كله في هذا المجال.

وكذلك حاولت أن أقدم دراسة موجزة لتاريخ الإسلام كله، عندما سألني صديق عها إذا كانت توجد مثل هذه الدراسة المتحررة من قيود الدول والمعمور وتقسيهات البلاد والأفكار وقد كانت هذه المحاولة كتابي (الإسلام وحركة التاريخ).

ثم كانت (معلمة الإسلام) التي قدرنـا أن تضم ٩٩ مصطلحـاً من المصطلحات المنثورة الآن في مجال الثقافة من خلال وجهة نظر الإسلام إليها.

وهناك دراسات حول التبشير والاستشراق ومحاولات التغريب والغزو الثقافي والشبهات المثارة في غتلف ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع نرجو أن تكتمل في إطار منهج كامل جامع.

والله وحده هو القادر على تحقيق الرجاء ولا أستطيع أن أقول إلا أن هذا العمل هو من نتاج الفكر الإسلامي الأصيل وكل ميزة لي في هذا أن استطعت تنسيقه وترتيبه وصياغته على نحو عصري وهذا وحده هو عملي أما عصارة هذا التراث فهي من عطاء أعلام الفكر الإسلامي قديماً وحديثاً. ■ الهدف هو ١ – إخراج المسلمين من التبعية للفكر الغربي أو الوافد أو أي أسلوب غير أسلوب الإسلام وخاصة وقد افتتن الناس بأسلوب العيش الغربي الذي يستهدف إخراجهم من ذاتيتهم الخاصة ويصهرهم في بوتقة الأممية فتضيع ميزتهم التي ميزهم بها الإسلام.

٢ - كشف الزيف الذي حاول الاستشراق ودعاة التغريب بثه في النفس المسلمة خلال سنوات طويلة عن طريق الصحافة وأجهزة الإعلام من دعوى عريضة بعظمة الحضارة الغربية وأنها المنطلق الوحيد للمسلمين لبناء مجتمعهم بينها تؤكد كل الدلائل والوقائع أن الهزائم التي توالت على المسلمين في الخمسين سنة الأخيرة (نكبة ونكسة وهزيمة) كانت تتجه إلى قبول هـذه الخدعة، فضلًا عها تكشف من سقوط الحضارة الغربية في مجتمعها سقوطاً لا قيام بعده، وكيف أن المصلحين الغربيين يتطلعون اليوم إلى نظام جديد بعد أن فشل كلا النظامين الرأسهالي والماركسي في تحقيق أشواق الإنسان وأن هناك في الغرب الآن من يتطلع في كثير من الأمل إلى أن الإسلام هو المنهج الذي يستطيع أن يحقق للبشرية ما تطمح إليه فكيف يقول الغربيون هـذا بينها أصحاب هذا المنهج مخدوعون يتطلعون إلى فتات موائد الأمم، وغارقون في تبعية ذليلة وإعجاب كاذب بحضارة منهارة، كذلك فإن عشرات من الكتاب في الغرب نفسه قد كشفوا اليوم بصدق عن الدور العظيم الذي قام بـه الإسلام بعد أن قدم لهم المنهج العلمي التجريبي الذي قامت عليه الحضارة المعاصرة، وقد جاءت إشادات عريضة بالشريعة الإسلامية أغلب جامعاتنا ومدارسنا تقدم لأبنائنا نظريات الغرب المدحوضة (دارون وفرويد وماركس) على أنها علم أصيل، وعلوم الغرب التجريبية على أنها من صنع الغرب وحده، وأنه لا أولية للمسلمين فيها.

وأن المسلمين ليس لهم في العصر الحاضر وجهة نظر في كل هذه العلوم والمناهج الاجتماعية ودراسات السياسة والاقتصاد والتربية، بينيا أن الناريخ يشهد بأن جذور هذه العلوم كلها بدأت من عند المسلمين، هذا فضلًا عن أن العلوم البشرية التي حاول الغرب تطبيقها ونقلها إلى أفق المجتمع الإسلامي قد أثبتت فشلها وعجزها عن العطاء، وبينها يجدث هذا يتجاهل

الفكر الغربي أن للمسلمين منهج حياة جامع شامل، وأنه جماع الدنيا والأخرة والعقل والقلب، والعلم والروح وليس منهجاً انشطارياً وأن للمسلمين أسلوب عيش متميز وإن كل ما ينقصهم هو نقل التكنولوجيا والعلوم التجريبية التي قدموها هم للغرب في يسر في أول النضهة بينها الغرب الأن يحول دون إعادتها إليهم، ولقد كان ضرورياً أن نكشف لبني قومنا مـدى الخطر الذي يواجه الـذاتية الإسـلامية التي صنعهـا الإسلام لتكـون متميزة مستقلة، عن جميع طوابع الأمم، وحتى تحمل أمانة تبليغ الإسلام للعالمين، هذه الذاتية التي تتعرض اليوم تحت ضغط النفوذ الغربي الرأسيالي والماركسية والصهيونية لمحاولة تزييفها واحتوائها والقضاء عليها، وصهر المسلمين في البوتقة العلمانية المادية الأممية، وهذا أخطر ما تعرضت له الشخصية الإسلامية في عصر من العصور (بل لا نبالغ إذا قلنا إنها أخطر من حملات الحروب الصليبية والتتار والباطنية في القرون السابقة) وليس هناك من سبيـل لدفـع الخطر وحماية البيضة من التهاس مفهوم الإسلام الصحيح الـذي يقوم عـلى التوحيد الخالص والإخاء الإنساني وإحياء مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة مفهوم الجهاد الإسلامي؛ تلك الشريعة الماضية إلى يوم القيامة لا بد من التهاس هذا المنهج والتذكير الدائم بالخطر الماحق الذي يواجه الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي نتيجة لمؤامرات التغريب والشعوبية والغزو الثقافي التي تغير جلدها بين كل حين وتلبس لبوساً مغايراً لخداع الأجيال الجديدة.

● أعتقد أن هذه هي الأمانة التي أحملها ويحملها معي عدد كبير من كتاب الإسلام ومفكريه في هذه المرحلة الخيطيرة من حياة أمتنا، مرحلة استهلال القرن الخامس عشر الهجري الذي يتطلع المسلمون فيه إلى نصر كنصر بدر إن شاه الله، وهي أمانة يجب أن نحملها دون ملل أو تقاعس مرابطة في سبيل إعلاء كلمة الله وإيماناً بحقه تبارك وتعالى على كل صاحب قلم وصاحب علم مما علمه الله، وعلى الدعاة إلى الله إن يثبتوا في هذه المعركة وأن يخلصوا وجوههم لله، وأن ينكروا ذواتهم وأن يلتمسوا أخلاق المجاهدين الذين سبقوا على الطريق وأن يجعلوا من أقلامهم سناناً فاتكة تقتار الشبهات والسموم والتحديـات التي تواجـه الإسلام وفكـره ولغته في عـاولة لتغـريبه واحتوائه.

وأعتقد أن الدعاة إلى الله ملتزمون بأشياء كثيرة:

ملتزمون أساساً في أنفسهم وبيوتهم بمفاهيم الإسلام، وأن لا تكون الكتابة الإسلامية تجارة أو مغنم، وأن يؤمنوا بأن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع، وأن المسلم ملتزم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأن الإسلام ليس فكراً أو فلسفة ولكنه دعوة وأن كتاباتهم يجب أن تخاطب العقول والقلوب معاً، وأن لا تكون تفسيرات الإسلام وتأويلاته في سبيل غاية من الدنيا أو إرضاء لكبير أو تبريراً لواقع أو إقراراً للرخص دون العزائم فيان الرخص لا تبني الأمم.

وأن لا تحمل الدعوة إلى الله طابع العنف أو الشدة أو التعصب أو التهاس مذاهب الغلو، بل تكون يسيرة كريمة سمحة، تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة وتقبل بأدن درجة من الإيمان ثم ترتقي بالفرد حتى يصل إلى ذروة الإيمان وأن لا ينفصل الدعاة إلى الله عن المجتمع، ولا يرفضون، بل يأخذون الأمور من حيث يبدأ الإصلاح يسيراً ينمو مع الزمن ويرتفع مع الأيام حتى يبلغ الغاية.

هذا وبالله التوفيق.

الفهرسيس

الصفحة		لوضوع
٣		
٧		سهم في سبيل الله
۲۷		لبابُ الأول: سنوات ما قبل الدعوة
44		لفصل الأول: خطوط عامة
٣٣		لفصل الثاني: الكتابات الأولى
٤٠		لفصل الثالث: سنوات التهويم
٤٢		لفصل الرابع: الحلقة الأولى
٤٧		لفصل الخامس: نقطة البدء
٤٩		لباب الثاني: الدعوة والرجل القرآني
٥١		سححت إسلامي
٥١		للنا في حاجة إلىّ تصحيح إسلامنا
٥٣		جاء يوم اللقاء
٥٦		لرجل
۸٥		همة الكاتب المسلم
11		لباب الثالث: المرحلة المضطربة
75		لفصل الأول: المرحلة المضطربة
٧١		لفصل الثاني: عايشت الأحداث بقلم متيقظ
٥٧		لباب الرابع: أمانة القلم
٧٧		لفصل الأول: المصادر التي ألهمتني الكتابة

المفحة		
۸٥	الفصل الثاني: أعقد ما يواجه الباحث المؤرّخ: المصادر الحيّة	
۹١	الفصل الثالث: الكاتب ومراجع الكاتب	
9 ٧	الفصل الرابع: تجربة العمل الأدبي	
١٠٣	الفصل الخامس: تجربة القراءة وصحبة الكتاب	
1.0	الفصل السادس: تعلمت من قوائم الكتب تعلمت	
١١.	الفصل السابع: العقيدة الفكرية للكاتب المسلم	
110	الفصل الثامن: عندما يكون الإسلام منهج حياة	
119	الفصل التاسع: منطلقات الكاتب	
١٧٧	الباب الخامس: تجربة القراءة والرحلة ولقاء العظياء	
124	١ – القراءة	
147	٢ ــ الرحلة من رباط الفتح إلى جاكارتا	
١٤١	٣ ــ وقفة أمام الكعبة في بيت الله الحرام	
150	٣ ــ مؤتمر في مرسى مطروح	
١0٠	٤ ــ لقاءات مع الأعلام	
١٥٤	 دكريات مع الأعلام «كامل كيلاني»	
١٦٠	٦ ـ حول التراجم	
177	٧ ــ الندوات والمؤتمرات العالمية	
175	٨ ــ حول الملتقى الإسلامي في الجزائر	
177	٩ ــ هزيمة الاستشراق في مُؤتمر الإسلام	
۱۷۷	الباب السادس: العمل في الصحافة	
174	الفصل الأول: العمل في الصحافة	
110	الفصل الثاني: تطور الصحافة العربية	
۱۸۷	الفصل الثالث: في مجال الأدب	
194	الفصل الرابع: موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر	
197	١ ــ مسح الأدب العربي المعاصر	
199	٢ – أنور الجندي: مؤرخ الأدب العربي المعاص	

الصفحة	الموضوع
۲۰۲.	الفصل الخامس: تراجم الأعلام والبطولات
ت ۔	١ ــ خمسة ألاف بيت من الشعر لشوقي كانت مدفونة في الصحا
۲۰۸ .	القديمة
117 .	٢ ـ أخطاء في البحث في تراجم الأعلام
110	الباب السابع: المرحلة الحاسمة
	الفصل الأول: نكسة ١٩٦٧
110	الفصل الثاني: حركة اليقظة الأصالة في إطار العصر
۲۲۸ .	الفصل الثالث: على مشارف القرن الخامس عشر
	الفصل الرابع: وقفة على رأس مرحلة من العمر
	الفصل الخامس: دقات الطبول
	الفصل السادس: اعادة النظ في كتابات العصريين

شهر لإعادة صياغة الحياة وتطهير النفس